السيف الحاد

لقطع الإلحاد

تأليف

الإمام العلامة الفقيه المؤرخ اللغوي

عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن السقاف

الحسيني الحضرمي الشافعي رحمه الله

١٣٠٠ - ١٣٧٥هـ

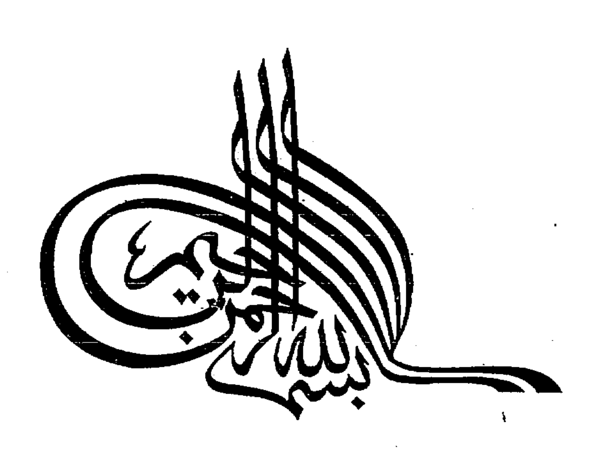
تحقيق

علي بن محسن بن علوي السقاف

سبط الإمام

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة محقق الكتاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وبعد.

تبيِّن هذه الرسالة القصيرة التي كتبها الإمام ابن عبيد الله؛ تنوع العلوم التي أتقنها هذا الإمام وتظهر أيضاً المعارف التي انفرد بها؛ فقد وجدناه في كتابه صوب الركام؛ فقيهاً متميزاً؛ ورأيناه في إدام القوت؛ مؤرِّخاً موسوعياً؛ وعرفناه في بضائع التابوت سياسياً وزعيماً؛ ورأيناه في العود الهندي أديباً متفنناً؛ ووجدناه في النجم المضيء ناقداً أديباً خبيراً؛ ورأيناه في بلابل التغريد فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً؛ وقرأناه في ديوانه الشعري؛ شاعراً مبدعاً؛ كما رأينا صنوفاً أخرى من علومه؛ وأنواعاً أخرى من فنونه؛ في رسائله الأخرى المتعددة؛ والتي شملت أدب الرحلات؛ ومختصر المسرحيات؛ والأخلاق والاجتماعيات؛ بالإضافة إلى ما عرف من نوادره وملحه ونكاته مع خاصته وزُوَّاره ومحبيه والتي وردت طائفة منه في كتب محبيه ومرافقيه؛ مثل كتاب سيدي الوالد محسن بن علوي السقاف مذكراتي ومختاراتي.

وها نحن نلتقي بالإمام ابن عبيد الله في هذا الكتاب أو الرسالة؛ السيف الحاد لقطع الإلحاد؛ مدافعاً قوياً عن دين الإسلام ومنافحاً بليغاً عن سيد الأنام وخاتم رُسِلِ ربِّنا الملك العلام؛ سيدنا محمد ﷺ؛ بل ونكتشف أيضاً إلمام الإمام بالديانات الأخرى؛ وبأقوال الفلاسفة والملحدين؛ وما حصل في ديانة أهل الكتاب من التغيير والتبديل والتحريف.

وقد بيَّن الإمام ابن عبيد الله بسيفه الحاد؛ فساد رأي مؤلف كتاب توحيد

الأديان وقال: قد فرغت من بيان كفر أهل الكتاب؛ وحكم من شكَّ فيه، وخرجت من إثبات الحجة؛ بأنَّ أهل الكتاب لم يتم إيمانهم بكتبهم؛ لجحودهم ما فيها من البشائر بمحمد ﷺ (انتهى).

كما أورد الإمام ابن عبيد الله مستعيناً ببعض المؤلفات؛ ما بقي في كتبهم المقدسة من البشائر والآيات الدَّالة على الوعد الإلهي الذي محوه من كتبهم؛ وكتموه في صدورهم؛ بظهور خاتم الرسالات؛ ومتمِّم شريعة ربِّ البريات؛ وناسخ ما قبلها من الديانات؛ سيدنا محمد ﷺ. ويقول الإمام ابن عبيد الله: إنَّ ذلك خَفِي عليهم؛ ولو أدركوه وعرفوه لَمَحَوْه بماء عيونهم؛ ويستدرك الإمام ابن عبيد الله فيقول: ومعاذ الله أن نحاول إثبات نبوة سيِّد البشر من هذه البشائر، لأن ثبوتها قد ارتكز على أرسخ الأركان؛ وأركن الدعائم (انتهى).

ولا داعي في نظري للتعريف بما جاء في كتاب أو رسالة السيف الحاد؛ لأنَّ الرسالة على غزارة مادَّتها جاءت قصيرة ومُلَخَّصة؛ وليس بعد التلخيص والفذلكة؛ تلخيص؛ بل يكفي القارئ أن يتصفَّحَهَا؛ ليعرف ما فيها؛ ويُلِمَّ بِلُبِّها وحواشيها.

وكعادة الإمام في مصنفاته؛ فإنه ينشر بين الحين والآخر؛ العديد من المعلومات المُهِمَّة والمفاهيم الذكيَّة؛ فنراه في هذه الرسالة؛ يُقَدِّم مفهوماً جديداً؛ وتفسيراً غريباً لقول الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مستنداً إلى كروية الأرض؛ التي لم يعرفها المفسرون السابقون. كما استنتج الإمام أيضاً نشوب الحرب العالمية الثانية؛ قبل وقوعها بزمن؛ مع استبعاد حدوثها بتحكيم العقل والمنطق وتسلسل الأحداث.

إلّا أنني اندهشت من قدرة الإمام العجيبة على انتزاع الشواهد من آيات الذكر الحكيم؛ وهي في نظري مرتبة تعلو على مرتبة الحفظ؛ وهي نتيجة مؤكدة لقوة الحفظ مع الفهم العميق والإحاطة التامة بآي القرآن الكريم ومعانيها ودلالاتها. بل ويورد الإمام أيضاً؛ الأحاديث من الصحاح والأمهات؛ وكأنها

مشرعة أمامه؛ يقرأ من حيث يشاء ويختار من حيث يريد. بل إنني اندهشت جداً من اطلاع الإمام ابن عبيد الله على الأناجيل الأربعة؛ ورسائل بولس؛ وأعمال الحواريين. وسبب اندهاشي؛ أن ذلك تيسّر له في حضرموت؛ ذلك البلد المعزول؛ الذي تندر فيه كتب المسلمين؛ فضلاً عن كتب اليهود والنصارى والمشركين.

كما أبدى الإمام ملاحظة مهمة؛ على وصية المسيح المشهورة؛ والتي لم يطبِّقها المسيحيون وهي قوله: «من ضربك على خدِّك الأيسر؛ فأدر له خدَّك الأيمن» فعلق عليها بقوله: إنه لا يصلح أن يتأسس بها دين؛ يُنْزِلُ الناس منازلهم؛ ويضع الحقوق مواضعها؛ وينصف المظلوم من الظالم؛ ثم بيَّن الإمام خطورة تطبيق ذلك فقال: ولو تأثَّر الناس بذلك؛ لأفضى إلى الخراب؛ وانتهى إلى الانقراض (انتهى)

كما يستغرب الإمام جداً محاباة النصارى لليهود؛ وتقديمهم للمناصب العالية؛ وتعليتهم للرتب الرفيعة؛ رغم ما يضمرونه في قلوبهم للنصارى من الغلِّ والكره والبغضاء؛ من سابق الزمان.

ومن النكت الفقهية النفيسة التي جاءت بين ثنايا كلام الإمام؛ عند بحثه في مسألة التخيير بين الإسلام والجزية؛ قوله: حتَّى لو قال اللصوص لرجل: ادفع لنا مائة أو طلِّق امرأتك؛ وإلّا فعلنا بك كيت وكيت؛ فطَلَّق؛ نفذ طلاقه؛ لأنه لم يكره؛ وإنما خُيِّر فاختار، وهذه دقيقة يجهلها كثيرٌ من الناس (انتهى).

وقد كنت في شك في أنَّ كتاب توحيد الأديان؛ من وضع أحد المستشرقين؛ لأنَّ مثل هذه المناقشات والاستنتاجات يستبعد أن تأتي من هذا المؤلف المغمور؛ ولكن صَعُبَ عليّ التحقق من هذا الأمر؛ بعد مرور زمن طويل على هذه القضيَّة؛ فقد طبع الرد عليه؛ وهو كتاب السيف الحاد في سنة ١٣٦٩هـ؛ ومات أغلب معاصري الإمام ومعارفه. ولكن لحسن الحظ وجدت أحد الشيوخ؛ ممن عاصر الإمام ابن عبيد الله في شبابه؛ وعندما ذكرت له كتاب توحيد الأديان؛ بادرني بالقول: إن هذا الكتاب الذي تتحدث عنه هو من تأليف

أحد المستشرقين؛ وأنه قد أعطاه هذا المؤلِف العربي المسلم في عدن؛ لينشره ويضع عليه اسمه؛ فيكون الكتاب أكثر تأثيراً وأبعد أثراً؛ مما لو نشره المستشرق باسمه الصريح. فأكَّد لي هذا الكلام ما كان يداخلني من الشك.

ولا أدري هل أدرك الإمام ابن عبيد الله هذا الأمر؛ أو أنه قَصَرَ اهتمامه على مادة الكتاب أكثر؛ من اهتمامه بمؤلفه أو غير ذلك؟؛ ولكن العلامة علوي بن طاهر الحداد الذي أورد الإمام ردّه على كتاب توحيد الأديان؛ والذي عاش سنين طويلة بالشرق الأقصى وعمل لأكثر من عشرين سنة مفتياً لولاية جوهور؛ قال في ردِّه على كتاب توحيد الأديان: فقد رأينا مثله فيما يكتبه رجال جمعية التبشير بتوحيد الأديان؛ وهي جمعية معروفة؛ فيها نصارى ويهود وأقباط؛ وهي سياسية كالماسونية؛ وذلك أصل من أصول الديانة البوذية (انتهى).

والإنجليز بدهائهم المعروف؛ لا يهاجمون الإسلام مباشرة؛ بل يلتفون حول الأمور التي يريدونها؛ ولا يقصدونها مباشرة؛ ويثابرون على تحقيقها ولو بالأسلوب البطيء تبعاً لمبدئهم القائل: (بطيء ولكن مؤكَّد). وزيادة في التمويه والتخفِّي؛ فإنهم ينشرون الكتب التي كتبها كبار مستشرقيهم؛ ممن أتقنوا العربية؛ وسبروا أغوار دين المسلمين؛ وعرفوا المناطق التي يتسللون منها؛ والعورات التي ينفذون من خلالها؛ ثم ينشرونها بأسماء أوليائهم من المسلمين؛ لتكون مقبولة عند المسلمين؛ ومحترمة عند القارئين؛ وهذه من أساليبهم المعروفة منذ زمن بعيد.

ولا يبعد عن هذا الأمر كتاب الشيخ علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم الذي نشره إبَّان الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٣٤٧هـ فأحدث ضجَّة؛ وحمل عليه الأزهر حملة شديدة وجرَّده من الشهادة العالمية الأزهرية. والشاهد هنا ما قيل؛ من إنَّ المستشرق (مرجليوث) هو الذي كتب مادته؛ بل قال الشيخ محمود شاكر: إن مرجليوث هو صاحب الأصل الذي نقل عنه طه حسين بحثه عن (الشعر الجاهلي)؛ وقد أحدث كتاب طه حسين؛ أيضاً ضجة؛ وكان له دور في التشويش والتشكيك على شباب المسلمين.

وكتاب توحيد الأديان واتحاد العالم؛ الذي وزع ببلدة سيؤون بحضرموت على الأعيان؛ وبعض طلبة العلم؛ هو من هذا القبيل؛ رغم غرابة هذا التصرف في بلد يقوم فيها عماد الحياة على دين الإسلام؛ ومنه خرج الدعاة الذين نشروا الإسلام في أفريقيا وشرق آسيا.

ولكن هؤلاء القوم لا ييأسون؛ ويستخدمون جميع الأساليب المتاحة لتحقيق أهدافهم؛ ومن ذلك قول الإمام ابن عبيد الله: بلغني بعد هذا أن إنكليزياً يقال له ديفي؛ جاء على بيحان[1]؛ وأراد أن يشوِّش على أفكار بعضهم بنوع من ذلك؛ فردُّوا عليه وأفحموه مع عاميتهم، وذكر لي بعضهم أن هناك جمعية تحاول ذلك وتدعو إليه؛ كما حاولت جمعية إخوان الصفا أن تجمع بين الفلسفة والشريعة (انتهى).

ولبساطة أهل العلم بحضرموت؛ وانقطاعهم إلى الزهد والعبادة؛ وابتعادهم عن أمور السياسة ومسائل الخلاف؛ فإنَّهم كما قال الإمام: لم يَرَوْا بكتاب توحيد الأديان بأساً؛ مما دفع الإمام ابن عبيد الله إلى القول: فعجبت من انطلاء ما فيه من الغش الظاهر على من يُعَدُّ في طلبة العلم (انتهى).

إلّا أن الله سبحانه وتعالى؛ الذي هيَّأ العديد من العلماء السابقين؛ وهيأ الأزهر وعلماء مصر المتأخرين؛ لحماية الدين؛ وحراسة بيضة المسلمين؛ وصدّ هجمات الملحدين والمشككين والمستشرقين؛ أوجد أيضاً في حضرموت؛ ذلك البلد المعزول؛ البعيد عن أحداث العالم؛ القليل الدراية والمعرفة بمثل هذه الأبحاث والقضايا؛ أوجد فيه سبحانه؛ من العلماء الأعلام من مثل الإمام ابن عبيد الله؛ ومثل العلامة علوي بن طاهر الحداد؛ ليذِبُّوا عن دين المسلمين؛ ويدفعوا عنه غوائل المعتدين؛ ويفسدوا مكر الماكرين؛ ويفنِّدوا دسائس المستشرقين.

(١) إمارات بيحان كانت إحدى المحميات البريطانية وهي اليوم ضمن الجمهورية اليمنية وتبعد عن عتق عاصمة شبوة ٢٠٠ كيلومتر.

هذا ومع انحدار هذه الموجة من الملحدين والمشككين في دين المسلمين؛ إلّا أنَّ المسألة قمينة بالعودة بين الحين والآخر؛ ومن هنا تظهر أهمية هذه الرسالة للإمام؛ كمستند متكامل للرد على هذه الدعوات ووأد هذه الافتراءات.

هذا وكعادة الإمام في كتبه الأخرى نراه يستدرك أحياناً كما فعل هنا؛ على الأئمة الكبار؛ كابن القيِّم والغزالي. وقال: إنَّ الإمام ابن حجر الهيتمي؛ نقل عن كتاب (تذييل الأرائك) للسيوطي دون عزوٍ إلى المصدر.

وقد وجَّه الإمام في كتابه هذا؛ كما فعل في بلابل التغريد؛ بعض الملاحظات القاسية إلى معاصريه وقومه في حضرموت؛ والذين تعرض منهم لحملات ومعارضات؛ سببها صراحته الشديدة وجرأته العنيدة؛ واعتراضه على كل ما يجده مخالفاً للفقه؛ لكنه قد يبالغ أحياناً؛ وقد اعترف في كتابه بضائع التابوت؛ بأنه قد يأتيه من ينقل إليه كلاماً غير صحيح؛ فينفعل على الفور ويعترض ويتكلم؛ ثم يندم ويتراجع عن ذلك؛ حين يتبيّن له عدم صحة ما نقل إليه من كلام؛ وما رفع إليه من أخبار.

كما أكثر الإمام في بعض الفصول من الاستشهاد بالأحاديث التي تقاربت معانيها مما وجدت نوعاً من الإطالة لكنه علَّل ذلك بقوله: الإكثار أبعد عن التأويل وأظهر للمنار، إذ التواتر أدمغ الحجج وأبلغ البراهين، (انتهى).

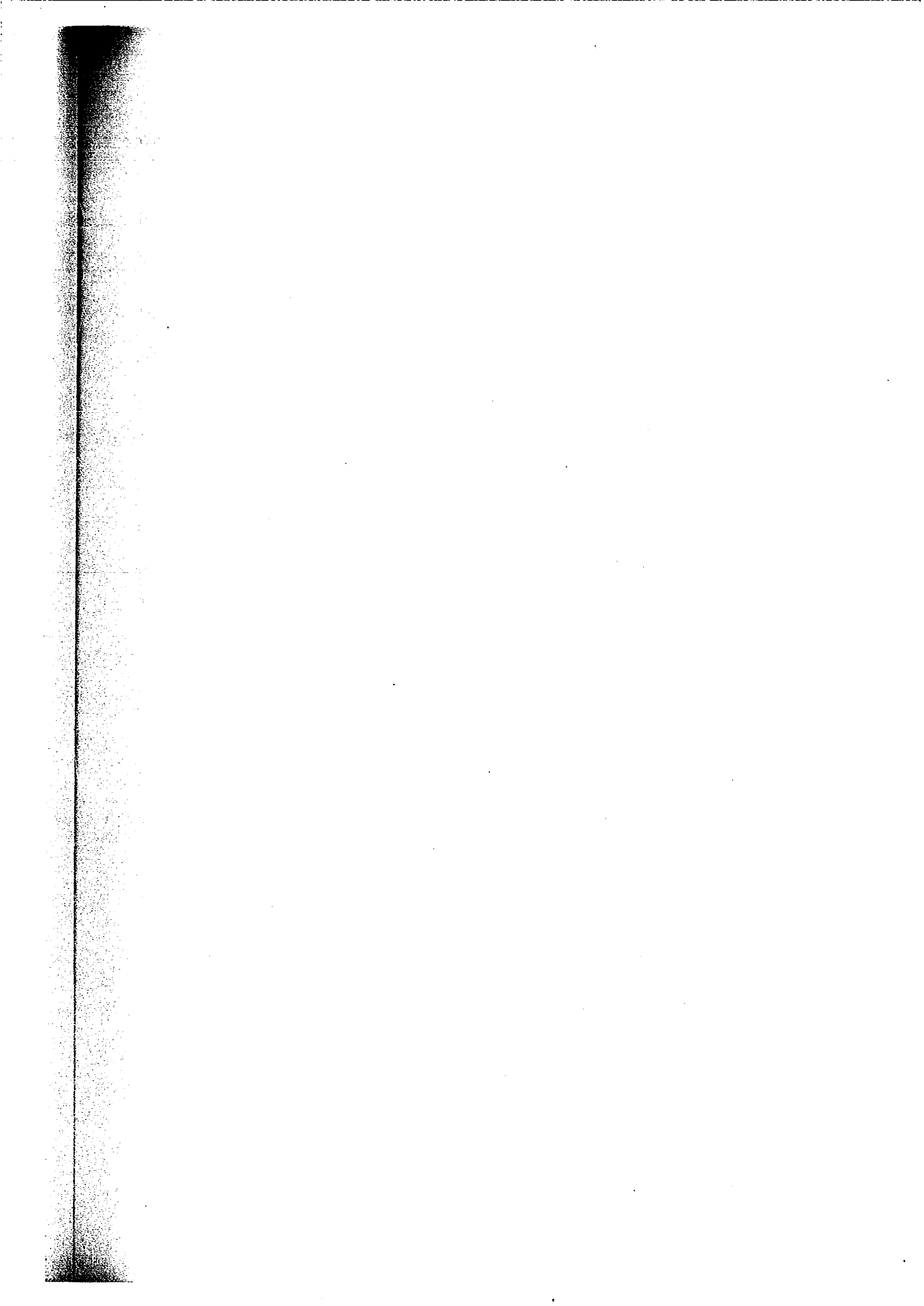
أتمنى أن يجد القارئ؛ وطلبة العلم؛ والباحثين؛ بغيتهم المنشودة في هذا الكتاب؛ أو الرسالة؛ والتي لم تتجاوز صفحاتها المائة؛ والتي قام الإمام بطبعها على نفقته؛ رغم ضعف ماليته؛ وطبعتها طبعة حجرية مكتبة الكمال بعدن سنة ١٣٦٩هـ؛ وذلك لشعوره بأهمية الموضوع؛ وخطورة ما يترتب على ترك هذه الفرية بدون تفنيد ولا توضيح.

وقد رأيت أن أضم هذا الكتاب؛ لكتاب بلابل التغريد؛ لتقارب مواضيعهما؛ ولأنَّ هذا الكتاب لو ترك الآن؛ فربما لم يقم أحد بعد ذلك بتحقيقه وطباعته. وقد قمت بتحقيق الكتاب في فترة شهرين وأضفته لكتاب الإمام بلابل

التغريد وكان الانتهاء من ذلك يوم الثلاثاء ١٢ صفر من عام ١٤٣٦هـ.

جعل الله عملي في هذا الكتاب خالصاً لوجه الله الكريم؛ وبراً بجدِّي لأمِّي الإمام العظيم؛ والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

علي محسن السقاف



مقدمة مصنف الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله كاشف الغمم، وباسط النعم، ودافع النقم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه خير الأمم.

أما بعد؛ فقد وصلني الغداة السيد عبد القادر بن سالم الحبشي؛ يحمل كتاباً سماه صاحبه «توحيد الأديان واتحاد العالم» وذكر أنه تحدث فيه مع بعض الدرسة بسيئون؛ فلم ير به بأساً؛ وأن الذي أهداه له؛ ووزَّع نسخاً منه على الأعيان في كل مكان؛ هو الفاضل السيد فلان، فعجبت من انطلاء ما فيه من الغش الظاهر على من يُعَدُّ في طلبة العلم، وكان عجبي أكثر؛ إذ تخطَّاني السيد فلان؛ وهو صديقي الكريم؛ ووليي الحميم؛ ولم يبعث له نسخة منه. إذ لم يكن ظنِّي به؛ إلّا بقاءه على صدق الثناء؛ وإخلاص الود (فما عدا مما بدا)! افتراه استقلني؟ كل ذلك يجوز والدنيا عجوز.

ولما صار وِدُّ الناس خِبًّا جَزَيْتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصِرْتُ أشَكُّ فِيمَنْ أصْطَفيهِ لِعلمي أنَّه بَعْضُ الأنامِ

أمَّا أنا؛ فبمجرد ما رأيته أنكرته. **أما أولاً**: فلأنه يحاول أمراً لم يُرِدْهُ ربُّه؛ كما في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]؛ وكما قال في سورة النحل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]؛ وقال في سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢] وقال في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٣] وقال في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٤] وقال في سورة الزخرف: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

ولكن صاحب ذلك الكتاب؛ الذي أُكَنِّي عنه فيما بعد؛ بالمؤلف؛ طمع فيما أيسَ منه سَيِّدُ المرسلين؛ وأراد أن يُغْلِقَ أبواب جهنم؛ خلاف ما تمَّت به كلمةُ ربِّك؛ وجعل الناس كلهم أمَّةً واحدة؛ بغير إذن الله.

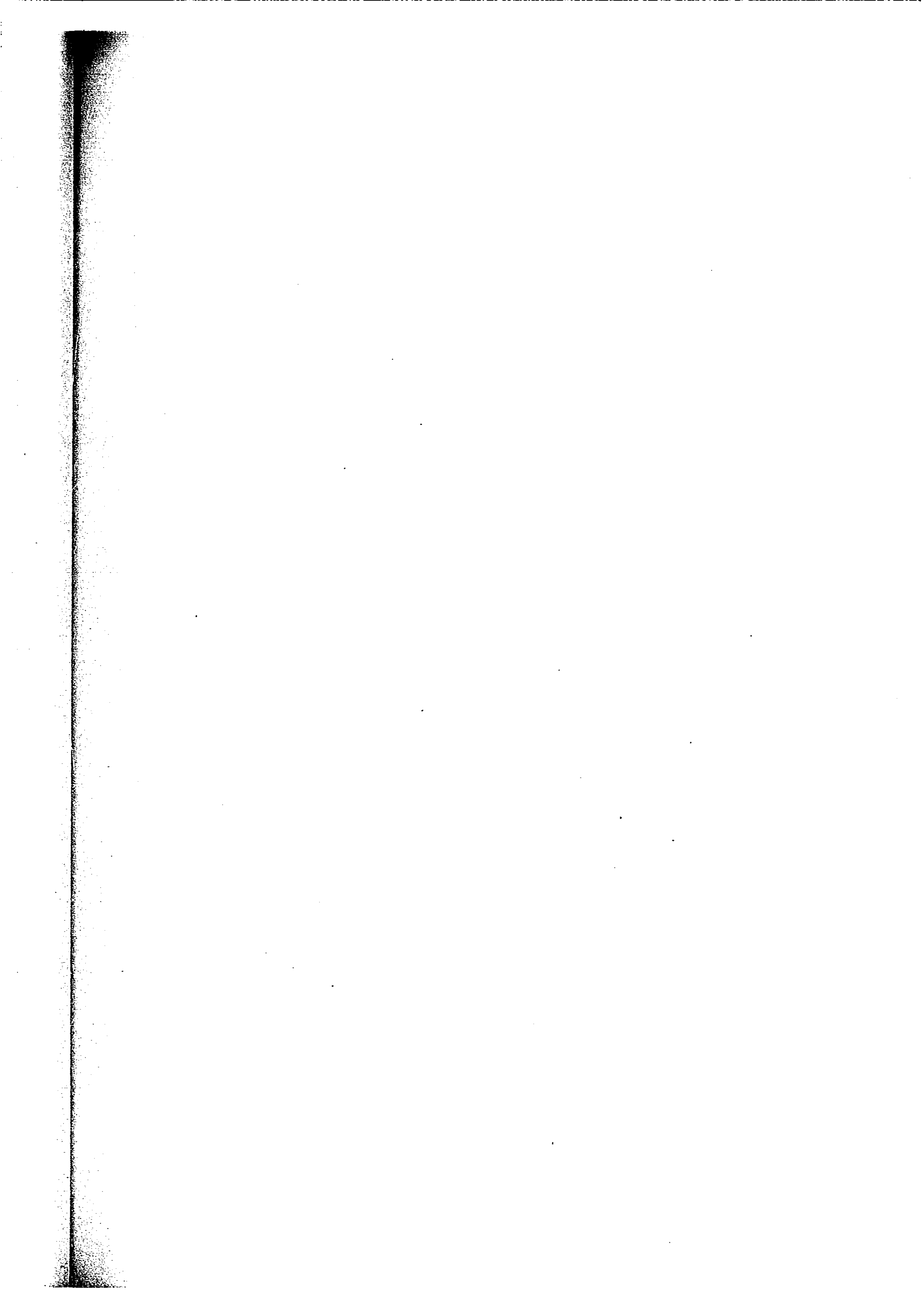
وردني السيد عبد القادر بذلك الكتاب؛ وأنا أشغل من ذات نَحْيَيْن؛ بتأليف معجم لبلاد حضرموت؛ طلبه مني الفاضل الوجيه عبد الله بلخير؛ لِيَضُمَّ ما ينويه؛ ناصر العلم؛ ولي عهد الحجاز ونجد؛ من تقويم بلدان شبه الجزيرة. ولكني رأيت هذا ألزم؛ والأخذ بنقده أحزم. وهزَّتني حَمِيَّة الدين، وأخذتني حِدَّة تليق

(١) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٩ ـ ١٠٠.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) سورة الشورى، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٥) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣ ـ ٣٥.

بمثلي من المسلمين. فهجرت المهاد؛ وأخذت حظّي من الجهاد. واستعذبت الألم؛ واعتقلت القلم؛ وأنشدت ما قال بعض العلويين رحمه الله:

يَا قَلَمِي لِنُصْرَةِ الحَقِّ تَهِي   مُبَسْمِلاً مُحَوْقِلا مِنْ غَيرِ عِي

وسأتكلم على ما يحتاج في فصول:



الفصل الأول

في إبطال استدلاله

الفصل الأول
في إبطال استدلاله

لقد استدلَّ بسورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وسورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] دلَّلَ بذلك على تسميتهم مؤمنين؛ وإن لم يُقِرُّوا بمحمد ﷺ؛ ولا اتبعوه. فقال في صفحة (١٠): وهذه آية صريحة في الدعوة إلى الرجوع إلى أصول الأديان؛ وهي: الإيمان بالله، واليوم الآخر؛ والعمل الصالح؛ وأنَّ المؤمنين بها من كل دين؛ هم فائزون جميعاً. وقال في صفحة (١٢): لأننا نعتقد أنَّ دين الله واحد؛ وأنَّ أصول الأديان جميعها واحدة؛ وإنْ تعدَّدَت الفروع؛ وأنَّ الرجوع إلى تلك الأصول؛ هو الحلُّ الصحيح لاتحاد العالم؛ والإيمان الكامل.

فهو يجزم؛ ويصرِّح؛ ويمجمج؛ ويلوِّح: بأنَّ الأمم إذا آمنت بالله واليوم الآخر؛ والعمل الصالح؛ كفاها ذلك في النجاة من الخوف والحَزَنْ؛ وإنْ لم تؤمن بمحمَّد وتتبعه في فروع شريعته؛ إذ الاختلاف عنده لا يضرُّ فيها. ولا يخرج عن دائرة الإيمان؛ إلّا من جحد الله والدار الآخرة. وقال في صفحة (١٦): ولم ينشأ الإلحاد والشكُّ إلّا عند طائفة قليلة من الفلاسفة. وقال في صفحة (١٨):

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

وقد قرر القرآن الكريم؛ أنَّ هذه الأصول؛ هي الأصول الأساسية لجميع الأديان؛ كما بيَّن وقرَّر أن المتبعين لهذه الأصول من أهل الأديان؛ هم جميعاً من المهتدين الفائزين؛ ولم يجعل ذلك وقفاً على المسلمين وحدهم إلخ. وقال في صفحة (٢٠): إن جميع أهل الكتب السماوية؛ وهم المُعَبَّر عنهم في القرآن؛ باسم أهل الكتاب؛ هم أهل هداية ورشاد؛ ما لم يخرجوا عن جادَّة الإيمان الصحيح بالله. وأعاد الآية الكريمة؛ للتدليل بها على الاقتصار على أصول الدين الثلاثة بزعمه؛ وهي: الإيمان بالله؛ والدار الآخرة؛ والعمل الصالح. وكلامه في قوة التصريح: بأنه لا يضر الاختلاف فيما سوى هذه الثلاثة. وقال في صفحة (٢٦): وزاد القرآن فاعترف بأن التابعين للأديان الأخرى؛ إذا آمنوا بالله واليوم الآخر؛ وعملوا العمل الصالح؛ فهم ناجون مهتدون؛ كما في الآية الجامعة (وأعادها). وقال في صفحة (٣٢): مما سبق يتضح لك: أنَّ الشروط الوحيدة للهداية والرشاد هي ما دعت إليها أصول الأديان كلها؛ وقد أجملتها الآية الكريمة (وأعادها). وعدَّدَ الأصول الثلاثة. ثم قال: «والمؤمن من أي دين كان؛ إذا أقرَّ واعترف بذلك فهو من المهتدين المفلحين». وصرح أثره: بأنه لا يضر الاختلاف في الفروع؛ فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً؛ فهو مؤمن؛ سواء كان (في زعمه) يهودياً أو نصرانياً أو بوذياً أو غير ذلك؛ وإن لم يصدِّق بمحمَّد ﷺ؛ ولم يتبعه في فروع شريعته. لأنَّ مخالفتها لا تضر بزعمه؛ سبحانك هذا بهتان عظيم.

وعلى الجملة: فليس في كتابه شيء غريب؛ إلّا ما توهَّم أنه انفرد بفهمه من تلك الآية الشريفة؛ فبنى عليه الكتاب؛ وأبرق وأرعد وأرغى وأزبد وأغور وأنجد. وظنَّ كما في صفحة (١٨) أنه اهتدى لما ضلَّ عنه المفكرون قديماً وحديثاً. ليس في كتابه ما يزيد عن هذا؛ إلّا ما لا يحتاج إلى نقض؛ من الإلحاد المكشوف في صفحة (٥٠)؛ بمحاولته إنكار حقيقة سجود الملائكة لآدم؛ وتأويله بتسخير الكون بنواميسه وملائكته الموكّلين به؛ ومحاولته كذلك لإنكار حقيقة إبليس؛ وتأويله بالقُوَّة النزَّاعة إلى الشر.

فمثل ذلك؛ وإن كان مما تقف له الشعور؛ وتضيق به الصدور؛ غَنِيٌّ عن

الإبطال؛ لأنه بديهي الفساد؛ فهو مما يُعَيَّن على التدليل لفساد نيته؛ وكشف ما يريد من تغطية باطلة. فإن الحق لا يلتئم.

وأما الشق الأول؛ فنقول في الجواب عنه: لقد أجمع المسلمون؛ على أنْ؛ لا إسلام؛ لمن فرَّق بين الشهادتين أصلاً؛ ومن شكَّ في كفر اليهود والنصارى؛ فهو كافر؛ بإجماع العلماء؛ ومنهم الإمام الشافعي؛ الذي أطنب في مدحه؛ واحتجَّ بكلامه في الصفحات (٢٧ و٢٨ و٢٩) من كتابه. ولئن لم تكن عندي عبارة الأم[١]؛ فإن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى مراجعتها. وهذه بين يديَّ عبارة الروض[٢] في المُكَفِّرات ونصُّها: أو: شَكَّ في تكفير اليهود والنصارى اهـ. وعبارة أصله؛ الروضة[٣]؛ أو لم يُكَفِّر من دان بغير الإسلام؛ كالنصارى؛ أو شكَّ في كفرهم؛ أو صحَّحَ مذهبهم اهـ.

نعم! قال في جمع الجوامع[٤]: المصيب في العقليات واحداً؛ ونافي الإسلام مخطئ آثم كافر. وقال الجاحظ[٥] والعنبري[٦]: لا يأثم المجتهد؛ قيل

(١) كتاب فقه من تأليف الإمام الشافعي.

(٢) روض الطالب ونهاية مطلب الراغب تأليف العلامة اليمني شرف الدين ابن المقري المتوفي سنة ٨٣٧هـ ويختصر الفقهاء اسمه بالروض وهو عبارة عن اختصار لروضة الطالبين للإمام النووي وقد شرح الروض جماعة من العلماء منهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦) في كتابه أسنى المطالب شرح روض الطالب.

(٣) روضة الطالبين في الفقه الشافعي للإمام النووي.

(٤) جمع الجوامع في أصول الفقه لجلال الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية.

(٥) أبو عثمان الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥هـ) كان دميماً أسود البشرة وعاش فقيراً وله نهم للقراءة فكان يبيت في دكاكين الوراقين ويقرأ ما فيها من الكتب ويختزن ما يقرأ في ذاكرته له مصنفات عديدة أشهرها البيان والتبيين والبخلاء وكتاب الحيوان. له اطلاع على الثقافة اليونانية والفارسية وكان ميالاً للفكاهة.

(٦) عبيد الله بن الحسن العنبري كان من ثقة أهل الحديث، ومن كبار العلماء العارفين بالسنة، إلّا أن الناس رموه بالبدعة بسبب قول حكي عنه من أنه كان يقول: بأن كل مجتهد من أهل الأديان مصيب، حتى كفَّره القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره؛ وقال مثل هذا القول أبو عثمان الجاحظ.

بشرط قبول الإسلام؛ وقيل مطلقاً اهـ. ومع سقوط هذا القول؛ لتقدُّم الإجماع عليه من الصحابة بقتال الكفار؛ وأنَّهم في النار؛ بلا فرق بين مجتهدٍ ومعاند؛ فقد جزم بعضهم؛ بأنَّ مراد العنبري: الاجتهاد فيما يختلف فيه أهل القبلة؛ ويرجع المخالفون فيه إلى آليات تحتمل التأويل. فأمَّا ما اختلف فيه المسلمون وغيرهم من أهل الملل؛ كاليهود والمجوس والنصارى؛ فيقطع فيه بصواب أهل الإسلام؛ وخطأ أولئك. لأنَّا لا نظنُّ أنَّ أحداً من هذه الأمَّة؛ إلّا وهو يقطع بتضليل اليهود والمجوس والنصارى. وعليه ينبغي أن يحمل قول الجاحظ؛ لأنه من المسلمين؛ وبعد التنزُّل وافتراض أنَّ الرجلين أرادا ما هو أعمُّ من ذلك؛ فإنه إلحاد جزئي؛ لا يبلغ أصغرانية المؤلف[(١)].

أما كلامه[(٢)]؛ فلولا سقوطه بذاته؛ لكان أدهى وأمر؛ وأقبح وأضر. والقول الفصل كتاب الله؛ فإن فيه الشفاء والرحمة للمؤمنين، ولو أردت استيعاب الأدلّة القاطعة على ذلك؛ منه ومن سنة رسوله؛ لأوردت ربعاً من الأول؛ وجزءاً من الثاني، ولكني أتبرَّك بما ينير العقول ويقر العيون؛ بادياً بما على حبل ذراعه؛ وطرف الثمام منه؛ مما قبل الآية؛ في الموضعين فقبلها؛ في البقرة قوله جل ذكــره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[(٣)].

وموضع الشاهد: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإمَّا أن يقول: إن القرآن ليس منها[(٤)]؛ وإمَّا أن يسلِّم؛ بأنه لا يصح إيمانهم بالله واليوم

---

(١) أي صاحب كتاب توحيد الأديان.
(٢) أي هذا المؤلف.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٤) أي آيات الله.

الآخر؛ إلّا بشرط الإقرار بها؛ وبمن جاء بها. فيرجع عما صرَّح به في تلك الصفحات السبع المشؤومة؛ وغيرها؛ من كتابه؛ ويستعيذ من الشيطان؛ ويجدِّد الشهادة، ولا يأنف أن يذهب كتابه هدراً؛ ويستحيل هباءً؛ فإنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم المعصومة؛ فضلاً عن كتبهم المهدرة.

وأما ما قبل الآية التي توكأ عليها في سورة المائدة، فقوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

وهل يتصور إقامة التوراة والإنجيل؛ بدون الإيمان بما فيهما من البشائر بمحمد ﷺ؟ (حسبما يأتي ذلك في الفصل الحادي عشر). أفليس المكابرون في رسالته؛ داخلين تحت من زادهم إرساله طغياناً وكفراً؟. بلى؛ وإنَّ الأمر لواضح؛ لا يتمارى فيه يهودي ولا نصراني. ولو كان لهم بشيء من ذلك أدنى مسكة؛ لتعلَّقُوا به؛ وملؤوا الدنيا ضجيجاً، ولكن ما أظن أحداً منهم يتشبث به لتفاهته؛ وإنْ ظنَّ المؤلف أنه فتح لهم الباب؛ ونهج السبيل.

ثم بلغني بعد هذا أن إنكليزياً يقال له ديفي؛ جاء على بيحان[٢]؛ وأراد أن يشوِّش على أفكار بعضهم بنوع من ذلك؛ فردوا عليه وأفحموه مع عاميتهم، وذكر لي بعضهم أن هناك جمعية تحاول ذلك وتدعو إليه؛ كما حاولت جمعية إخوان الصفا[٣]؛ أن تجمع بين الفلسفة والشريعة؛ وأسرت حسواً في إرثنا؛ واستقت بلا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٢) إمارات بيحان كانت إحدى المحميات البريطانية وهي اليوم ضمن الجمهورية اليمنية وتبعد عن عتق عاصمة شبوة ٢٠٠ كيلومتر.

(٣) إخوان الصفا مجموعة من الفلاسفة المسلمين عاشوا في القرن الثالث الهجري بالبصرة واتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها (تحف إخوان الصفا) ووضع المجريطي القرطبي المتوفى سنة ٣٩٥هـ كتاباً على نمط هذه التحف وسماه (رسائل إخوان الصفا).

دلو ولا رشاء؛ ودللت على فسولتها وضعف نيتها؛ والله غالب على أمره. وكم كاد للإسلام خلقٌ في القديم والحديث؛ فنكصوا على أعقابهم خائبين؛ وكبوا لوجوههم خاسرين؛ كما قال أبو حيَّان(١)؛ مع أنه من المتَّهَمِين.

وإنما تلك الآيتان الشريفتان وسابقاتهما في الموضعين؛ شبيهتان بما اجتمع في سورة الحج؛ من قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

لأنَّ الله تعالى لما بيَّن فيما قبل الآيتين؛ من خالف أوامره وارتكب زواجره؛ نبَّه على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة؛ فله جزاء الحسنى؛ كما أنَّ من اتَّبَعَ النبيَّ الأمِّي؛ تكون له السعادة الأبديَّة. وكان إيمان اليهود في التمسك بالتوراة؛ وسنَّةَ موسى عليه السلام؛ صحيحاً نجيًّا إلى مجيء عيسى. فمن لم يتبعه يكون هالكاً؛ وإن بقي على التمسُّك بالتوراة؛ وسنَّةَ موسى. ثم إيمان النصارى بعيسى؛ واتِّباع الإنجيل؛ نافعٌ مقبولٌ إلى مجيء محمد؛ فمن لم يتبعه ويَدَعَ ما كان عليه من شريعة عيسى والإنجيل؛ فهو هالكٌ؛ كما ذكره المفسرون؛ ومنهم العلامة ابن كثير.

ولو أنَّ مؤلف كتاب توحيد الأديان تدبَّر؛ لأخذ المعنى من كتاب؛ لأنَّه قريبُ الخطوة منه. فلا أجد له مثلاً؛ إلّا الهدهد يبصر الماء من تحت طبقات الأرض؛ ثم يقع في الفخ؛ وما بينه وبينه؛ إلّا ذرَّات من الطين. نعم! لا ننكر أنَّ في الآية التي كرَّرَها؛ وفي أمثالها؛ وعداً جميلاً لمن آمن بمحمَّد من أهل الكتاب؛ يؤكِّدُهُ ما أخرجه الشيخان والنسائي والترمذي وأبو داود؛ من حديث أبي

---

(١) أبو حيان التوحيدي (٣١٠ ـ ٤١٤هـ) أديب ذو ثقافة واسعة وأسلوب رائع له كتاب البصائر والذخائر والامتاع والمؤانسة اتهمه الحافظ الذهبي وابن الجوزي وابن حجر العسقلاني بالإلحاد والزندقة وقال ابن الجوزي الزنادقة في الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي وأبو العلاء المعري وأبو حيان التوحيدي؛ وهو أخطرهم؛ لأن الاثنين صرحوا؛ وهو يمجمج. وقال عنه ياقوت إنه صوفي؛ ووصفه السيوطي في طبقاته بشيخ الصوفية.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٧.

موسى الأشعري مرفوعاً: «**من كانت له أمة فعلمها وأحسن تعليمها؛ وأدَّبها أحسن تأديبها؛ وأعتقها فتزوجها؛ فله أجران: وعبدٌ أدَّى حق الله وحق مواليه. ورجل من أهل الكتاب؛ آمن بما جاء به عيسى؛ وما جاء به محمد ﷺ فله أجران**» وما أخرجه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي أمامة: «**من أسلم من أهل الكتاب؛ فله أجره مرتين؛ وله ما لنا وعليه ما علينا. ومن أسلم من المشركين؛ فله أجره؛ وله ما لنا وعليه ما علينا**». ومصداقه قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وهذه الفائدة وقعت في البين؛ فلنرجع إلى ما أخذنا فيه من التشرف بالآيات المقدسة. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢]. وتقديم الذين يؤمنون بالآخرة؛ دالٌّ على الاختصاص؛ كما هو مقرر في علم المعاني.

وقال في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]. أفيتمعني هذا التهديد مع النجاة؟ كلا والله. وقال فيها: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٤] وما بعدها إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

أفليس الإيمان في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ مشروطاً بإقامة التوراة والإنجيل؛ المشتملين على عديد البشائر به ﷺ؟ (حسبما يأتي في الفصل الحادي عشر).

وبغض النظر عمَّا فيه؛ فنحن نعلم علم اليقين؛ أنَّه مُبَشَّرٌ به في كتبهم؛ كما تصرح به الآية (٢٩) من سورة الفتح[١]. والآية (٦) من سورة الصف[٢]. والآية (٥٧) الآتية عما قليل من سورة الأعراف. وقال جل ذكره في سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣]؛ واللواتي بعدها.

فهل يقدر إنسيٌّ أو جنِّيٌّ؛ أن يخرج اليهود والنصارى والصابئين عن هذا الوعيد؛ بدون أن يؤمنوا بالقرآن؛ ومن أنْزِلَ عليه؟ وكمثلها قوله منها: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤]. ولئن آمنوا هنا بالآخرة؛ فقد مرَّ في سورة الأنعام، الآية: ٩٢[٥]: إنَّ الذين يؤمنون بها؛ يؤمنون به؛ فالجحود لأحدهما جحود للآخر. وسنحيل أوائل الفصل الثالث عليها؛ وعلى أمثالها من الآية الشريفة الصريحة في المقصود. وقد قال جلَّ شأنه في الأعراف أيضاً: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا

---

(١) ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٧.

(٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فلم يكتف بتقواهم وإيتائهم الزكاة وإيمانهم؛ حتَّى يؤمنوا بمحمد ويعزِّروه وينصروه. فالمسلِّم بإيمانهم؛ من دون اتباعهم لمحمَّد ﷺ؛ وتصديقه؛ كافرٌ بطائفةٍ كبيرة من القرآن؛ الذي لا نشك فيما أخبرنا به من التبشير بنبيِّنا في كتبهم. فأنَّى يصحُّ إيمانهم بأنبيائهم؛ دون أن يؤمنوا بما بشرُّوهم به؛ من بعثة نبيِّنا ﷺ؛ ورسالته إليهم. ولعمري لقد كان الأمر أهون؛ لو كان المؤلِّف يحاول إيمان أهل الكتاب عبثاً؛ أمَّا وقد حاوله بتكفير أهل القبلة؛ بل وبتكفيرهم هم أيضاً؛ فأيُّ ريقٍ لا يجف؛ وشَعَرٍ لا يقف؛ من هذا الأمر؛ الذي يتبجح به في الصفحة (١٨) وغيرها. وكأنَّه يؤمِّل من ورائه؛ أن يكون زعيم دعوة جديدة؛ يدخل تحت لوائها جميع أهل الكرة الأرضية؛ ما عدا قليلاً من الفلاسفة؛ الذين ينكرون الصانع الحكيم.

ولا شك أنه ينازع بذلك (سيد ولد آدم) في كثرة التابعين يوم القيامة؛ نعوذ بالله من سبات العقل؛ وقبح الزلل. وقال تقدست أسماؤه بعد هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[2]. وقال في هذه السورة أيضاً: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٨ ـ ١٥٩.

مَتِينٌ﴾[١]. وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢].

قال السيوطي: فقد دلَّت هذه الآية؛ وكلام السلف في تفسيرها؛ على أنَّ المعاني التي تضمنها القرآن؛ موجودة في كتب الله السابقة. وقد نصَّ على هذا بعينه الإمام أبو حنيفة؛ حيث استدلَّ بهذه الآية على جواز قراءة القرآن بغير اللسان العربي. وقال: إنَّ القرآن مُضَّمَنٌ في الكتب السالفة؛ وهي بغير اللسان العربي. ويشهد لذلك وصفه؛ بأنه مُصَدِّقٌ لما بين يديه.

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج: أنَّ القرآن أمين على الكتب؛ فيما أخبرنا أهل الكتاب عن كتابهم؛ فإن كان في القرآن فصدِّقوا؛ وإلّا فكذِّبوا. وأخرج عن ابن يزيد؛ أنه قال: كلُّ شيءٍ أنزله الله؛ من توراة أو إنجيل أو زبور؛ فالقرآن مُصَدِّقٌ على ذلك (اهـ من صفحة ١٥٩ ج٢ من الحاوي للفتاوى)[٣]. وقد أخذ العلامة ابن الحجر الهيتمي في صفحة (١٣٢) من فتاواه الحديثية؛ بغير أمانة؛ ومن دون أدنى إشارة للسيوطي[٤]. وكان القطب الحداد[٥] ينكر على ابن حجر

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٨١ ـ ١٨٣.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٧.

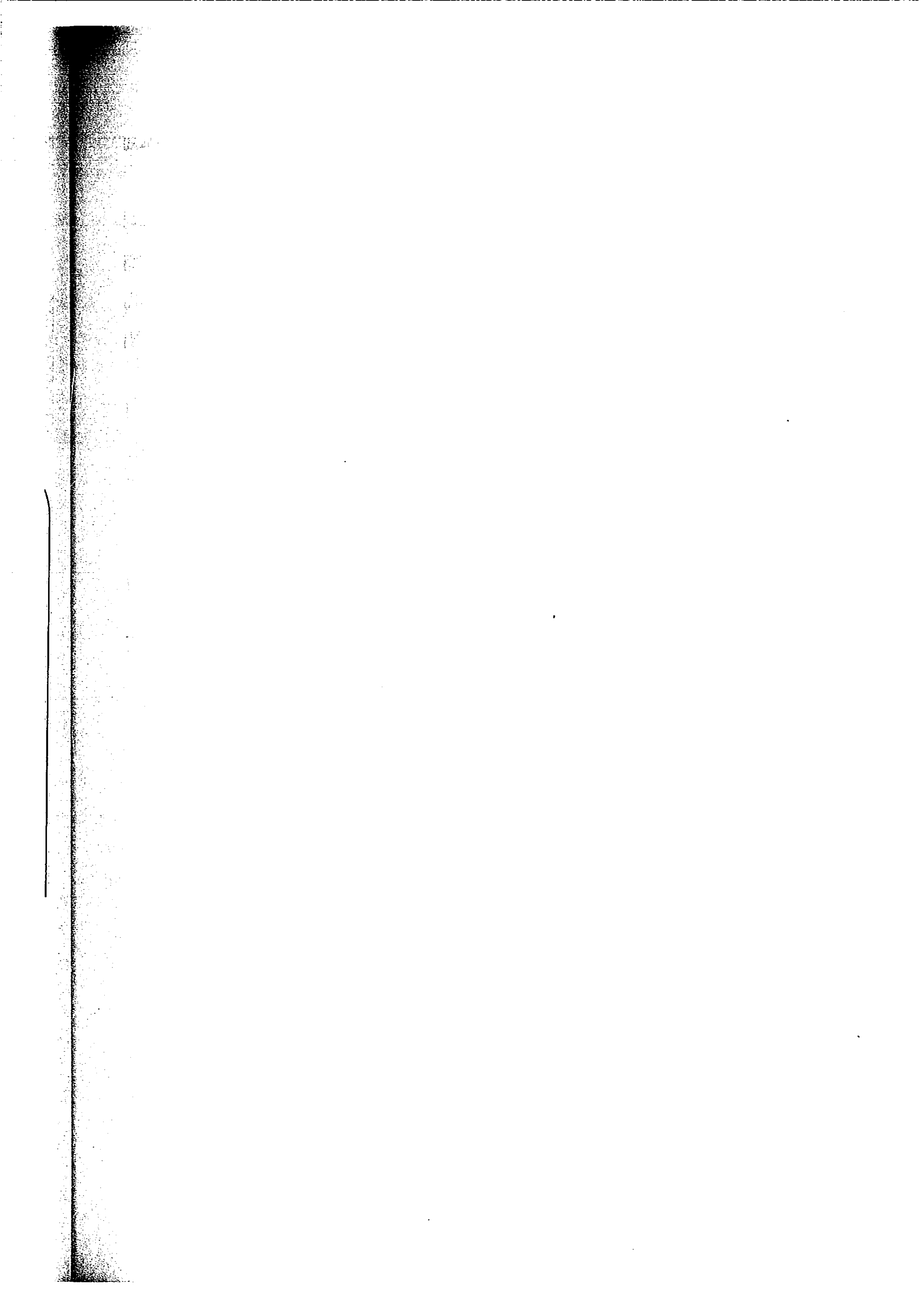
(٣) لقد حفظت اللغة العربية للنصارى علوم اليونان والرومان؛ وحفظ القرآن لهم ما جاء في التوراة والإنجيل والكتب السابقة؛ لذا فلا ينكر فضل العرب والمسلمين عليهم إلّا الظالم.

(٤) يتألم الإمام ابن عبيد الله كثيراً لظاهرة الأخذ بدون عزو بين العلماء والإمام ابن عبيد الله معروف بتحريه للصدق والأمانة وانتقاده لأي خطأ حتى لو أتى من الرجال الذين يجلهم وقد رأيناه في كتاب صوب الركام يقول: بأن جدّه علي بن عمر (١١٠٤ ـ ١٠٢٠هـ) أخطأ في فتواه وأن العلماء ابن سراج وباكثير وأحمد مؤذن اضجعوا في الجواب عليه مراعاة منهم لخاطره وذلك غير لائق بمقام العلم.

(٥) قطب الدعوة والإرشاد الإمام عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ ـ ١١٣٢هـ) ولد وعاش ومات بمدينة تريم بحضرموت له مؤلفات كثيرة مشهورة وديوان شعر.

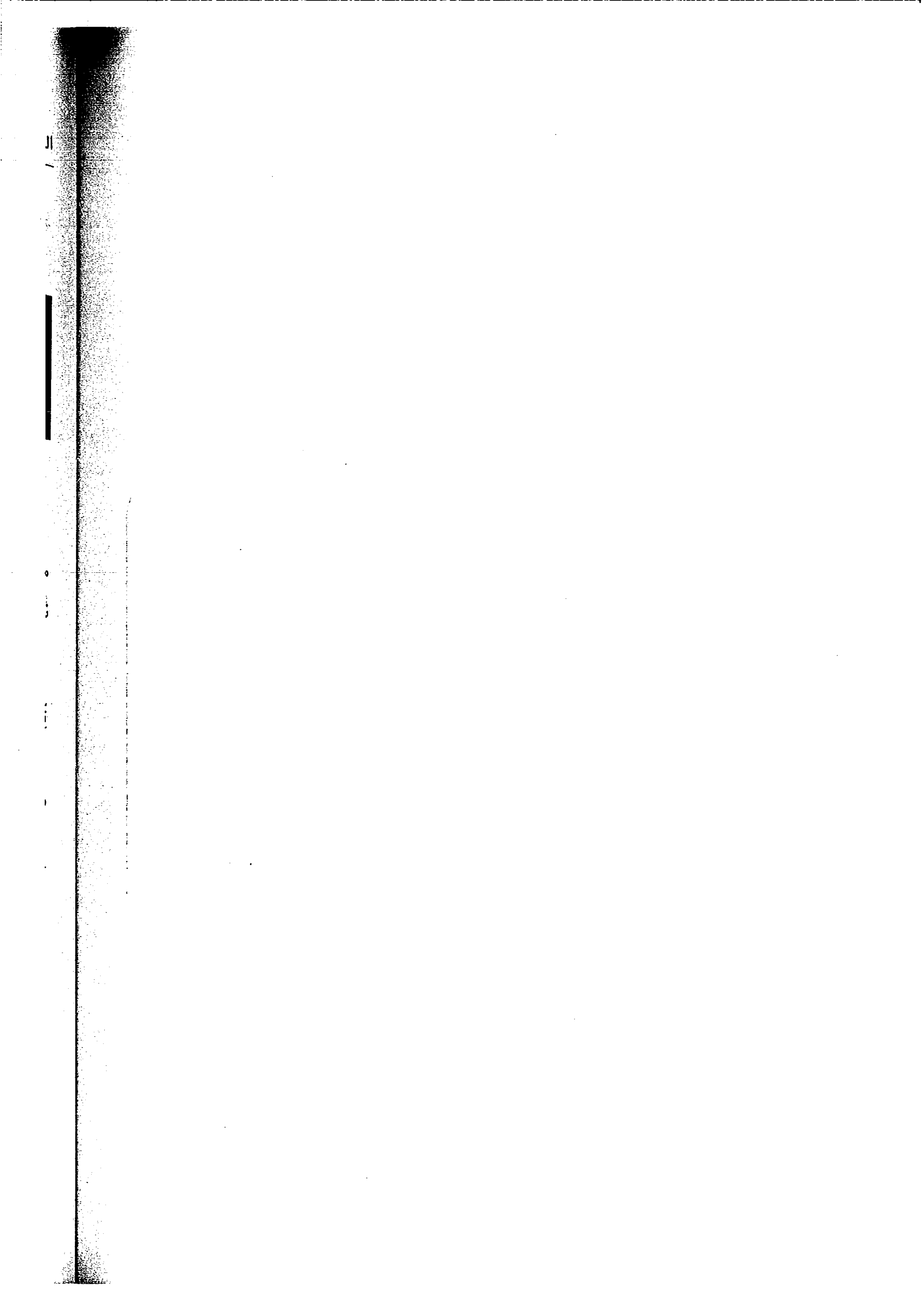
أخذه كلام غيره؛ بدون عزو. وعلى ذِكْرِي علَّة لقول الإمام أبي حنيفة بجواز الترجمة؛ تَفْضُلْ ما ذكره السيوطي؛ وتبعه عليه الهيتمي؛ وهي: أن صاحبيه علّلاه بأنه مقامُ خضوعٍ ومناجاة؛ لا مقام إعجاز ومباهاة. وفي هذا تأييد لاتحاد أصول الأديان؛ بأكثر مما قاله المؤلف؛ وسيعاد القول فيه بالفصل الثالث.







الفصل الثاني



الفصل الثاني

فيما يشبه الأول؛ وفيه ما يشهد لعموم الرسالة؛ وإطلاق الكفر؛ على كُلِّ من لم يؤمن بها ويتبِّعها. وهذا فضاء واسع؛ لا تأتي على أطرافه النسور؛ ولكنَّا نأتي بما ينبثق به النور؛ وتنشرح به الصدور؛ ويستفيق به المغرور.

قال جلَّ ثناؤه في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1] والآيات بعدها.
وقال فيها: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].
وقال فيها: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٤.
(٢) سورة البقرة، الآيات: ٤٠ ـ ٤٢.

مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١). وقال فيها: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢). وقال فيها: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٣). وقال فيها: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٤) والآيات التي قبلها. وقال فيها: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٥). وقال فيها: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٦). وقال فيها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٧). وقال في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٨) والآيات بعدها. وقال فيها: ﴿فَمَنْ

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨٩ ـ ٩١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

(٦) سورة البقرة، الآيتان: ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1]. وقال فيها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

وقد احتج بها ﷺ على هرقل؛ في كتابه إليه؛ الثابت في الصحيح[3]. وقال بعدها: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4]؛ والآية التي بعدها. وقال فيها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾[5] وقال فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[6]. وقال فيها: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ٦٥ ـ ٧٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٨.

(٦) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٠ ـ ١٠١.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[١]؛ والآيات بعدها؛ وقال فيها: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[٢]؛ والآيات بعدها. وقال فيها: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٣].

فهؤلاء المؤمنون؛ من اليهود والنصارى والصابئين؛ هم الذين تنطبق عليهم آية البقرة (٦٢) وآية المائدة (٦٩)؛ إذ المُطْلَقُ يُحملُ على المقيَّد؛ تأخَّر القيد أو تقدَّم أو توسَّط. وقال في سورة النساء، بعدما ينتظم في سلكها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[٤]؛ والآيات بعدها إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٥]. وقال فيها: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٦]. والشقاق في هذه الآية مُفسَّرٌ بما سبق في سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

ثم إن في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ ما يصلح شاهداً لقول الإمام الغزالي في فيصل التفرقة: بل أقول: إنَّ أكثر نصارى الروم والترك؛ في هذا

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٢ ـ ١١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٧.
(٥) سورة النساء، الآية: ٥٦.
(٦) سورة النساء، الآية: ١١٩.

الزمان؛ تشملهم الرحمة، إن شاء الله تعالى؛ أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك؛ ولم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً؛ أو بلغهم؛ ولم يبلغهم نعته؛ بل سمعوا منذ الصبا؛ أنَّ كذاباً مُلَبِّساً اسمه محمد؛ ادَّعى النبوة؛ كما يسمع صبياننا بالمقفَّع. فهؤلاء عندي في معنى الأولِّين؛ إذ مثل ذلك السماع؛ لا يحرِّك داعية النظر في القلب. أما من بلغه اسمه ونعته ومعجزته؛ فأعرض؛ فهؤلاء الكفار الملحدون اهـ.

ثم قال: فمن قرع سمعه خروج النبي ﷺ؛ وصفته، والقرآن المعجز الذي تحدَّى به أهل الفصاحة؛ فعجزوا؛ وأعرض عنه وتولَّى؛ ولم ينظر فيه؛ ولم يبادر إلى التصديق، فهذا هو الجاحد الكافر؛ ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك؛ الذين بَعُدَتْ بلادهم عن بلاد المسلمين. **بل أقول:** من قرع سمعه هذا؛ فلا بدّ أن تنبعث به داعية الطلب؛ ليستبين حقيقة الأمر؛ إن كان من أهل الدين؛ ولم يكن من الذين استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة. فإن لم تنبعث منه هذه الداعية؛ لركونه إلى الدنيا؛ وخُلُوِّه من الخوف وخطر الدين؛ فذلك كفر. وإن انبعث منه الداعية؛ فقَصَّر في الطلب؛ فهو كفرٌ أيضاً. وإن أخذ بالنظر؛ فأدركه الموت قبل تمام التحقيق؛ فإنه مغفورٌ له (اهـ؛ بمعناه وأكثر لفظه).

ثم رأيت المقبلي؛ يقول في صفحة (٤٠٥) والتي بعدها من «العلم الشامخ»[1]: نقلوا عن العنبري[2]: أنَّ كُلَّ مجتهدٍ في العقليات كلّها مصيب.

---

(١) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ لمؤلفه صالح بن مهدي المقبلي اليمني (١٠٤٧ ـ ١١٠٨هـ) وقد حمل في كتابه هذا على الصوفية.. قال عنه الشوكاني: وقد أكثر الحط على المعتزلة في بعض المسائل الكلامية وعلى الأشعرية في بعض آخر وعلى الصوفية في غالب مسائلهم وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم وعلى المحدثين في بعض غلوهم (انتهى) وقد انتقده كثير من العلماء لتجاوزه الحدّ في مهاجمة كبار العلماء ولم يسلم منه حتى الإمام البخاري. وقال عنه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين: استوفى نصيبه من الحمق والجهل صاحب الكتاب المسمى: بالعلم الشامخ؛ وقد عاب في كتابه ذلك على الإمام أحمد ونسبه إلى التعصب وطعن أيضاً على غيره من أئمة الحديث وأهل السنة.

(٢) عبيد الله بن الحسن العنبري المتوفى سنة ١٦٨، كان أحد سادات أهل البصرة وفقهائها =

وكأنه يريد من الناظر بذل جهده؛ وإذا أراد ذلك؛ كان عائداً إلى المنقول عن الجاحظ: أنَّه لا إثم على مجتهد. وقيَّد النقل بعضهم عن الجاحظ؛ بقبول الإسلام ولا ينبغي خلافه؛ وإلّا كان كإنكاره الضرورة من الدين. وهو أجلُّ من ذلك. وإنْ تحامل عليه مخالفوه في العقائد؛ فلا يَصْدُقُون عليه في جميع ذلك؛ وأصحابه المعتزلة أخْبَرَ به؛ وهو عندهم من جملة العلماء؛ وعند الجميع مقدَّم الأذكياء الحكماء.

وقد مال الغزالي إلى قريب من هذا المذهب؛ أو يزيد عليه. فقال في سياق: إنَّ من لم تبلغه الدعوة معذور. ثم قال: وكذلك عندي رجل نشأ في الروم؛ إنمَّا يسمع بساحر ظهر في أرض العرب وادَّعى النبوة وهذا من تخبطاته، فإن الله قد أظهر دين الإسلام على الدين كله. ولم يأمر ﷺ بتحرير أدلته؛ لِبَلِه الناس؛ ونسائهم؛ بل كان يغيِّر عليهم؛ بعد انتشار الإسلام من دون تجديد دعوة. فالمعتبر؛ إنما هو التمكُّن؛ وهو يحصل بأن يسمع بالنبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ اهـ باختصار.

■ والرد عليه من وجوه:

أحدها: أن ما نقله عن الغزالي لم يكن بأمانة؛ وإنما نقل عنه من كتب خصومه؛ حسبما تعرفه من الوجه الثالث؛ وطالما نعى المقبلي على من يفعل ذلك؛ حتى في نفس البحث بالنسبة للجاحظ؛ فجاء موضع المثل المشهور: «رمتني بدائها وانسلت»[(١)].

ثانيها: كيف يكون الغزالي على قرب من رأي الجاحظ والعنبري؛ وهو

= وعلمائها وكان قاضيها وكان من ثقة أهل الحديث، ومن كبار العلماء العارفين بالسنة، إلّا أن الناس رموه بالبدعة بسبب قول حكي عنه من أنه كان يقول: بأن كل مجتهد من أهل الأديان مصيب، حتى كفَّره القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره.

(١) (رمتني بدائها وانسلت) مثل عربي قديم يضرب لمن يُعيِّر صاحبه بعيب هو فيه.

الذي يركسهم ويركس غيرهم من المبتدعة في أحجارهم؛ ويرميهم بأحجارهم؛ ويمحو آثارهم؛ ويقلِّم أظفارهم.

قال الغزالي في ص٣٥٩ والتي تليها ج٢ من المستصفى[1]: ذهب الجاحظ إلى أن مخالف مِلَّة الإسلام؛ من اليهود والنصارى والدهرية؛ إن كان معانداً فهو آثم؛ وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور؛ وكذا إذا لم يعرف وجوب النظر فلم ينظر. وإنّما الآثم المُعَذَّب؛ المُعَانِدْ فقط. وهذا باطلٌ بأدِلّة سمعية ضرورية؛ فإنَّا نعلم بالضرورة؛ أنه أَمَرَ اليهود والنصارى بالإيمان به وإتباعه؛ وذمَّهم على إصرارهم على عقائدهم؛ وقاتل جميعهم؛ وكان يكشف عن مؤتزر من بلغ منهم؛ ويقتله. ونعلم قطعاً؛ أنَّ المعاند العارف؛ مما يقل؛ وإنما الأكثر؛ المُقَلِّدة الذين اعتقدوا دين آبائهم تقليداً؛ ولم يعرفوا معجزة الرسول ﷺ وصدقه. والآيات الدَّالة على هذا في القرآن؛ لا تُحْصَى. وقد نبَّه الله على أنه أقدرهم بما رزقهم من العقل؛ ونَصَبَ من الأدِلّة؛ وَبعَثَ من الرسل المؤيَّدِين بالمعجزات؛ الذين نبَّهوا العقول؛ وحرَّكوا دواعي النظر؛ حتى لم يبق على الله لأحدٍ حُجَّةٌ بعد الرسل.

وذهب عبد الله بن الحسن العنبري: إلى أنَّ كُلَّ مجتهدٍ مصيبٌ في العقليات. وقد استبشع المعتزلة من إخوانه؛ هذا المذهب؛ فأنكروه وأوَّلوه؛ وقالوا: أراد به اختلاف المسلمين في المسائل الكلامية؛ التي لا يلزم فيها تكفير؛ كمسألة الرؤية؛ وخلق الأفعال والقرآن؛ وإرادة الكائنات. لأنَّ الآيات والأخبار فيها متعارضة؛ فذهب كلُّ فريقٍ إلى ما رآه أليق بعظمة الله؛ فكانوا فيه مصيبين ومعذورين.

ونقول: أما زعمه الإصابة فمحال عقلاً؛ لأنَّ هذه أمور ذاتية لا تختلف بالإضافة؛ فلا يمكن أن يكون القرآن قديماً ومخلوقاً؛ ولا الرؤية محالاً وممكنة؛ ولا المعاصي بإرادة الله وبدون إرادته. بخلاف التكليف؛ والحلال والحرام.

---

(١) هذه الأرقام من النسخة التي قرأها الإمام ابن عبيد الله وأوردناها كما ذكرها وقد تكون نسخة الإمام مخطوطة وينظر مكان هذا العزو في الطبعات الحديثة.

وإن أراد: أنَّ المصيب واحد؛ لكن المخطئ معذور؛ فليس بمحال عقلاً؛ لكنه باطل بدليل الشرع؛ لأنَّ اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به؛ جهل. والجهل بالله حرام مذموم (انتهى باختصار).

ثالثها: أن المقبلي لم يأخذ كلام الغزالي من معدنه؛ وإلّا لما وقع في الشطط. ولكنه اغترَّ بقول القاضي عياض[1] في الشفاء: وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني مثل قول عبيد الله (يعني ابن الحسن العنبري) عن داود الأصفهاني؛ وقال: حكى قوم عنهما: أنهما قالا ذلك في كل من علم الله من حال استفراغ الوسع في طلب الحق من أهل ملتنا؛ أو من غيرهم. وقال نحو هذا القول؛ الجاحظ وثمامة؛ في أنَّ كثيراً من العامة؛ والبُلْه؛ والنساء؛ ومُقَلِّدة اليهود والنصارى وغيرهم؛ لا حُجَّة لله تعالى عليهم؛ إذ لم تكن لهم طباع يمكنها الاستدلال. وقد نحى الغزالي قريباً من هذا المنحى في كتاب التفرقة. وقائل هذا؛ كله؛ كافرٌ بالإجماع في كفر من لم يُكَفِّر أحداً من النصارى واليهود؛ وكل من فارق دين الإسلام؛ أو وقف في تكفيرهم أو شك. قال القاضي أبو بكر: لأن التوقيف والإجماع على كفرهم؛ فمن وقف في ذلك؛ كذَّب النص والتوقيف؛ أو شكَّ. والمكذب فيه؛ والشاك لا يقع إلّا من كافر اهـ.

وفيه خَلْفٌ وخَبْطٌ. أما الخلف؛ فبما يوهم أنَّ الحطَّ على الغزالي؛ من جملة مقول الباقلاني؛ وليس كذلك. إذ قد توفي الباقلاني سنة ٤٠٣هـ. وأما الخبط؛ فإنَّ الغزالي لا يقول في فيصل التفرقة[2]؛ إن صحت نسبته إليه؛ فقد تشككت فيها؛ لأن ابن السبكي لم يذكرها في عداد مؤلفاته؛ لكني رأيت

---

(١) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ) من أهل الأندلس ومن أصول يمنية بلغ مبلغاً عالياً في علم الحديث وله مؤلفات كثيرة شهيرة عمل قاضياً وكان فقيهاً مؤرخاً ومات مقتولاً لعدم اعترافه بابن تومرت بأنه المهدي المنتظر.

(٢) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ. وضع فيه حداً لمن يعتبره مسلماً ومن يعتبره كافراً أو زنديقاً.

السيوطي؛ وهو الناقد البصير؛ يجزم بنسبتها إليه؛ وينقل منها؛ كما في ص١١٥ ج٢ من الحاوي[١]. فلا مجال للشك إذاً؛ والغزالي لا يقول فيها إلّا بنجاة من لم تبلغه الدعوة؛ ولم يقرع سمعه القرآن؛ ولا وَصْفُ النبيِّ ﷺ؛ وهو الأشبه بحال الفترة[٢]. وقد اتفق الفقهاء في باب الصلاة؛ على أن من وُلِدَ أعمى أصم أخرس؛ وإن لم تبلغه الدعوة؛ معدودٌ منهم. ولكن المقبلي يقول بمؤاخذة أهل الفترة؛ ويناقض ما سبق من قوله.

فالمعتبر؛ إنَّما هو التمكن؛ وهو يحصل بأن يسمع إلخ. بل فرَّع البناني[٣] على تكليف أهل الفترة بقوله: فإذا سمع آية دعوة كانت إلى الله؛ وترك أن يستدِلَّ بعقله؛ وهو من أهل النظر؛ كان مُعْرِضاً عن الدعوة؛ فهو كافر (انتهى).

فاشترط سماع الدعوة والأخذ في الاستدلال؛ وهو الأليق بامتناع تكليف الغافل. وهو من لم يتَصَوَّر التكليف لا من لم يصدِّق. قال العلامة ابن قاسم[٤]: وهذا معنى ما قيل إن شرط التكليف هو التمَكُّن من العلم. وقال في فواتح الرحموت[٥]: فما لم يحكم الله ليس هناك حكم؛ ومن هنا اشترطنا بلوغ الدعوة في التكليف. فالكافر الذي لم تبلغه الدعوة؛ غير مُكَلَّف بالإيمان؛ ولا يؤاخذ بكفره في الآخرة اهـ. وهو مثل قول ابن السبكي في الجمع[٦]: ولا حكم قبل

---

(١) الحاوي للفتاوي للسيوطي.

(٢) أهل الفترة مصطلح يطلقه الباحثون في شأن العقيدة الإسلامية على الناس الذين لم ينزل إليهم رسول ولا نبي ولم يتبعوا أحد الأديان السماوية.

(٣) عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي المالكي نزيل مصر فقيه أصولي من تصانيفه حاشية على شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع في أصول الفقه توفي سنة ١١٩٨هـ.

(٤) هو أحمد بن قاسم الصباغي العبادي ثم المصري الشافعي الأزهري: كان فقيهاً فاضلاً له حاشية على التحفة وحاشية على شرح جمع الجوامع أسماها (الآيات البينات) وحاشية على شرح المنهج توفي سنة ٩٩٢هـ.

(٥) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت؛ المؤلف: عبد العلي محمد بن نظام الدين محمد السهالوي الأنصاري اللكنوي.

(٦) جمع الجوامع في أصول الفقه لجلال الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية.

الشرع؛ والصواب امتناع تكليف الغافل اهـ. فلا أشنوعة على الغزالي ولا اعتراض. ولكن عياضاً يطأ آثار المازري[1]؛ وهو أعدى عَدُوٌّ للغزالي؛ وإليه إشارته بالتذمُّر في أول كتابيه: الانتصار، وفيصل التفرقة. وقد نقل السيوطي ما في الانتصار بالصفحة ٢٦٦ والتي بعدها في الجزء الأول من الحاوي؛ وكان المازري معاصراً للغزالي؛ إذ ولادته في سنة ٤٥٦هـ ووفاته في سنة ٥٣٦هـ، وولادة الغزالي في سنة ٤٥٠هـ ووفاته في سنة ٥٠٥هـ. وحَرِيٌّ لما اشتهر به الغزالي من الفضل والعلم؛ أنْ يَشْرَقَ به الأقران؛ وانضم إلى ذلك جمود المازري على ما يقول الأشعري؛ لأنه مثلهم مالكي.

وحُرية الغزالي؛ وإمامه في الفكر[2]؛ كما حققه ابن السبكي في ترجمة الغزالي من طبقاته؛ تأخذ بهما إلى مخالفة الأشعري في بعض الآراء؛ فيصعب ذلك جداً على المالكية؛ مع أن الباقلاني قد خالفه.

وثالثة الأثافي: أن يوسف بن تاشفين[3]؛ كان كثير الثناء على الغزالي والمحبَّة له؛ يرفع الأسئلة إليه؛ ويتمنى وفادته عليه؛ فلا جرم أن تصير؛ الحبَّة؛ مما يتوهم الغلط فيه على الغزالي؛ قُبَّة في عين المازري؛ وأن يُفْتِي بكفره؛ وإحراق كتابه؛ الإحياء. وعياض يتقيَّل آثاره شبراً بشبر؛ وذراعاً بذراع؛ وهو الذي أتمَّ شرح المازري على صحيح مسلم؛ وسمَّاه الإكمال؛ وكانت ولادة

---

(١) هو محمد بن علي المازري كان فقيهاً مجتهداً اشتهرت فتاويه بغزارتها ومحتواها وشملت العبادات والمعاملات والعقائد وكانت ولادته بجزيرة صقلية وعاش طفولة صعبة ابتلي فيها باليتم والأمراض وتوطدت علاقته بمحمد بن تومرت الملقب بالمهدي وعاش معه بالأندلس والمغرب ومن تلاميذه القاضي عياض.

(٢) أعتقد أن المقصود إمام الحرمين عبد الملك الجويني.

(٣) يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وهم أتباع دعوة دينية سياسية ظهرت بين قبائل البربر الأمازيغ وتمكن يوسف بن تاشفين من استنقاذ الأندلس بعد سقوطها المحقق وأقام إمبراطورية إسلامية امتدت من تونس حتى غانا جنوباً والأندلس شمالاً وعرف بالزهد والشجاعة وكان سياسياً حازماً محباً لأهل العلم والدين.

عياض في سنة ٤٧٦هـ؛ فأدرك نحو ثلاثين عاماً من حياة الغزالي؛ والمعاصر لا يناصر؛ ولم يقل الغزالي أن لا حُجَّة لله على البُلْه والعامَّة والنساء؛ بل قد جزم بأن أكثر الكفار هم المُقَلِّدون كما مرَّ؛ فهذه فُرْيَةٌ عليه. وإنما منع التكليف قبل التمكُّن من العلم؛ أي للمتبوعين؛ بدليل قوله ﷺ لهم: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»[١].

ثم رأيت العلامة ابن حجر الهيتمي؛ ذكر في كتابه؛ الإعلام بقواطع الإسلام؛ ما اعترض به القاضي عياض على الغزالي؛ وأجاب عنه بنحو ما ذكرته؛ بل إنَّ جوابي أقوى وأوضح؛ مع أنه كان قبل اطلاعي على كلام ابن حجر؛ فللَّه الحمد والمِنَّة على الموافقة.

وقد اندفعنا في هذا؛ بقائد المناسبة؛ وفيه إنارة للحُجَّة؛ وتوضيع للمحَجَّة؛ وتكميل لما في الفصل الأول؛ ونكث لما فتله المؤلف؛ ونقض لسائر عُرَاه[٢]؛ لأنه إذا كان هذا كلامهم؛ مع حجة الإسلام[٣]؛ لِمَ لا يكون حَبَّة في فلاة؛ بالنسبة لما افتجره المؤلف؛ فما بالك بهم لو سمعوه؟

ولنرجع لما نحن بسبيله فنقول: وقال فيها؛ أعني سورة النساء؛ أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٤].

---

(١) من كتاب رسول الله ﷺ إلى عظيم الروم وفيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ» ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

(٢) يعود الإمام هنا للحديث عن كتاب توحيد الأديان.

(٣) أي الإمام الغزالي.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

وفي هذه الآية (كآية البقرة ٢٨٥)؛ تفسير الإيمان بحدِّه الجامع المانع؛ الذي يتلقاه صبيان المكاتب؛ وهو الذي لا بدَّ من حمل الإيمان عليه كلما أطلق؛ كما في الآيتين؛ اللتين خَفِيَ على المؤلف منهما؛ ما لا يخفى على أبناء الكتاتيب. وقال تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾(١). وقال تعالى فيها: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾(٢). والآيات بعدها إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾(٣). واللواتي بعدها. وقال في سورة المائدة: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٤). والآيات بعدها إلى قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٥). وقال فيها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٩.

بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾(١). والآيات بعدها السابقة في الفصل الأول.

ومن بعدهنَّ الآية الصريحة في تقييد الآية المطلقة؛ التي توهم أنه أظفر منها بِعَلَقِ مَظَنَّة؛ لم يقع عليه أحد من الأولين؛ ولا من الآخرين، فبنى عليه العلالي والقصور؛ التي لن تبرح إلّا ريثما تأتي عليه رياح الحق؛ فتعود من جملة الهباء المنثور. وما الذي غطّى بصره عما بعدها بآيتين؛ وهو قوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). وقال فيها: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٣). والتي بعدها؛ وستجيء عليك في الفصل السابع؛ وقال فيها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(٤). وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ ـ ٨١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٦.

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١]. وقال فيها؛ والضمير لليهود؛ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٢]. وقال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]. وقال في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٤].

إلا أن بعض الفقهاء غلا في تفسير الصغار؛ بما تتبرأ منه سماحة الدين؛ الذي بلغ من تساهله؛ إلى حدّ أنَّ أمير مصر (وهو عمرو بن العاص) يجلس في قصره؛ ومعه العرب على الأرض؛ فيأتيه المقوقس؛ ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي؛ فيجلس عليه أمامه؛ لا يغيِّر عليه، وفاءً له بما اعتقد معه من الذمة والعهد؛ كما ذكره ابن خلدون؛ في صفحة (٢١٧) من مقدمة تاريخه المطبوع بدار الطباعة ببولاق مصر القاهرة[٥]. وأيُّ صدرٍ لا ينشرح بالإسلام؛ وأيُّ خاطرٍ لا ينثلج به؛ إذا ميَّل[٦] بين أمثال هذه المعاملات؛ وبين ما جاء في (سفر التثنية) ونصه: (حين تقرب من مدينة لتحاربها؛ ادعها إلى الصلح؛ فإن أجابتك وفتحت لك؛ فكل الشعب الموجود فيها؛ يكون لك للتسخير؛ ويستعبد لك. وإن لم

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٩ ـ ٢١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٧.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٥) هذه الأرقام من النسخة التي قرأها الإمام ابن عبيد الله وأوردناها كما ذكرها وينظر مكان هذا العزو في الطبعات الحديثة.

(٦) مَيَّلَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ: تَرَدَّدَ وَرَجَّحَ بَيْنَهُمَا.

تسالمك؛ بل عملت معك حرباً؛ فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك؛ فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم؛ وكل ما في المدينة؛ فتغنمها لنفسك؛ وتأكل غنيمة أعدائك؛ الذي أعطاك الرب إلهك، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك؛ التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب؛ التي يعطيك الرب إلهك نصيباً؛ فلا تستبق منهم نسمة).

ومما نحن فيه قوله؛ تقدَّست أسماؤه؛ في سورة الحج: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١] وقوله فيها: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[٢]. وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]. وقال في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤]. والآيات بعدها. وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٥]. والآيات بعدها. وقال في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٦]. وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧]. وقال في سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) سورة الحج، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٤) سورة النمل، الآية: ٧٦.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(٧) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَالِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[1]. وقال في سورة الفتح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2]. وقال فيها: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[3].

وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[4]. وقال في سورة الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾[5] الآية. وقد مرت في الفصل الأول. وقال في سورة المجادلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[6]. وقال فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[7]. وقال في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[8]. وقال فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا

---

(١) سورة محمد، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة الفتح، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٣.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٦) سورة المجادلة، الآية: ٥.

(٧) سورة المجادلة، الآية: ٢٠.

(٨) سورة الحشر، الآيات: ٢ ـ ٤.

﴿أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١]. وهذه السورة سورة «بني النضير» من اليهود؛ وقد سماهم فيها كفاراً مرتين.

وكانت اليهود ثلاث طوائف حول المدينة؛ وبينهم وبين رسول الله ﷺ؛ كتاب أمن، فشرقت بنو قينقاع بيوم بدر؛ وأظهروا البغي والحسد؛ فسارت إليهم جنود الله؛ للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة؛ وحامل اللواء حمزة بن عبد المطلب؛ فحاصروهم خمس عشرة ليلة. ثم قذف الله الرعب في قلوبهم؛ فنزلوا على حكمه ﷺ؛ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم. فَكُتِّفُوا ثم استوهبهم عبد الله بن أبي؛ بإلحاح؛ وكان حليفاً لهم؛ فوهبهم له؛ بشرط أن لا يجاوروه.

وتولَّى جمع أموالهم محمد بن مسلمة؛ فخُمِّست؛ وكانوا نحواً من ستمائة مقاتل. ثم نقض العهد بنو النضير؛ وهَمُّوا على اغتياله ﷺ؛ فنهض إليهم؛ وعليٌّ حامل لواءه؛ فحاصرهم حتى انتهى الأمر إلى جلائهم؛ أن يخرجوا بنفوسهم وذراريهم وما حملته الإبل؛ ما عدا السلاح، حسبما اقتصَّ الله أخبارهم في تلك السورة.

ثم غدرت بنو قريضة؛ فسار إليهم النبيُّ ﷺ؛ ولواؤه في يد عليٍّ؛ فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة؛ ثم نزلوا على حكمه؛ فشفعت فيهم الأوس. ففوَّض أمرهم لسيِّدهم سعد بن معاذ، فرضوا؛ فحكم بقتل الرجال؛ وغنم الأموال؛ وسبي الذُّرِّيّة. فضربت أعناقهم؛ وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة[٢].

(١) سورة الحشر، الآية: ١١.

(٢) نقل أبو الحسن الندوي قول أحد المستشرقين: إنه لو ترك الرسول ﷺ جريمة غدر بني قريظة، من غير أن يعاقبهم عليها، لم يكن للإسلام بقاء في جزيرة العرب، إن عملية قتل اليهود كانت ولا شك عنيفة، ولكن لم يكن ذلك حادثاً فريداً في نوعه في تاريخ الديانات (أبو الحسن الندوي السيرة النبوية دار الشروق صفحة ٢٦٥) كما ذكر الأستاذ أبو الحسن =

فهل كانوا مؤمنين؟ وقتله ﷺ؛ لهم؛ وأخذ أموالهم؛ وسبي ذراريهم؛ من الظلم والجور؟ أم ما يقول المؤلف في ذلك؟.. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[١]. وقال في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٢]. والآيات بعدها. وكثيراً ما يضرب الله الأمثال؛ بالأنعام؛ لمن ذرأه لجهنم من الجن والإنس؛ لكن لم يرض ذلك لليهود؛ حتى جعلهم أقلَّ وأذلَّ؛ فضرب لهم مثلاً بالحمير؛ حيث يقول في سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٣]. والآيات بعدها وقال في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[٤]. إلى أن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾[٥].

وبعضُ هذه الآيات المقدَّسة كافٍ لإصابة الغرض؛ وإزالة المرض. إذ لا يمكن أن يتخالج معها الشك أو تعترض مرية، وإنما لذة ذكرناها. أمَّا الشبهة فقد أنارت؛ وأما الظلمة فقد أسفرت؛ مما قبل الآيتين اللتين توكأ عليهما؛ بدون نصيب من الفهم؛ ولا أثارة من العلم. بل قد جاء في أمِّ الكتاب ما يقرر ما ذكرناه. إذ قال المفسرون؛ ومنهم العلامة ابن كثير: إنَّ المغضوب عليهم؛ هم اليهود؛ لأن أخصَّ أوصافهم الغضب؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ

= الندوي أيضاً أن الحكم الذي نزل في بني قريظة، هو حكم التوراة، وأورد من التوراة الآيات الدالة على ذلك.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٢) سورة الصف، الآية: ٦.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٤) سورة البينة، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٥) سورة البينة، الآية: ٦.

عَلَيْهِ﴾[(١)]. وإن الضالين هم النصارى؛ لأن أخصَّ أوصافهم الضلال؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٢)].

فالمسلك سوي، والمنهاج لائح؛ والإيراد مدفوع من أصله، ولولا تراذل الزمان؛ وتوهم الانقطاع؛ من السكوت؛ لما أرهفنا اليراع بهذا الإسراع.

والمسلمون على اتفاق؛ حتى الجاحظ والعنبري؛ على بعثته ﷺ؛ إلى الأحمر والأسود؛ والنصوص قاطعة، والحجج دامغة. وإنما الخلاف في بعثته ﷺ إلى الملائكة. وقد قال ابن حجر الهيتمي؛ في فتاويه الحديثية: وحاصل المعتمد؛ أنَّ في إرساله ﷺ إلى الملائكة؛ قولين، والذي رجَّحه السبكي وجماعة من محققي المتأخرين؛ وردُّوا ما وقع في تفسير الرازي مما يخالفه؛ أنه أرسل إليهم. ويدل له؛ ظاهر قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٣)] وهم الإنس والجن والملائكة.

وفي قول شاذ: إنَّ الملائكة من الجن؛ فإذا رُكِّب مع القول الذي أجمع المسلمون عليه؛ من عموم رسالته للجن؛ لزم عموم الرسالة للملائكة؛ كذا قيل، وهذا لا يحتاج إليه وكفى بظاهر الآية دليلاً. ومن ثمّ أخذ شيخ الإسلام البارزي[(٤)]؛ أنه ﷺ؛ أُرْسِلَ إلى جميع المخلوقات؛ حتى الجمادات؛ بأنْ ركَّب فيها فهماً وعقلاً مخصوصاً؛ حتى آمنت به، وقد أخبر عنها ﷺ؛ بأنَّها تشهد للمؤذن، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) هبة الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم البارزي، الملقب بشرف الدين، شيخ الإسلام، وإمام الفقهاء في عصره. ولد شرف الدين بحماة سنة ٦٤٥هـ بلغ مرتبة عالية في الفقه والعلم ومن تلاميذه تقي الدين السبكي والحافظ الذهبي والمؤرخ ابن الوردي تولى قضاء حماة أربعين سنة وتوفي بها سنة ٧٣٨هـ وكان مولعاً باقتناء الكتب وجمع منها مكتبة عظيمة.

خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ﴾[(١)]؛ وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٢)]. اهـ. باختصار[(٣)].

وقد مسخ العلامة ابن حجر بهذا الجواب؛ مؤلفاً ضافي الذيول للحافظ السيوطي؛ سمَّاه «تزيين الآرائك»[(٤)] ولم يتفضل بإشارة حتى خفيَّة إليه؛ مع كثرة ما يقرر في مؤلفاته الفقهية؛ من دقائق المسائل في أبواب السرقة:

وليست ببكرٍ بل عَوَانٌ وقد مَضَى لها عن قريبٍ في رسالتِنَا مِثلُ

* * *

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) وقد يفسر ذلك حنين الجذع إليه ﷺ كما جاء في البخاري عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحنَّ الجذع، فأتى النبي ﷺ فمسحه. وكذلك اهتزاز جبل أُحد ففي الحديث: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِرَاءٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، قَالَ: «**اثْبُتْ حِرَاءُ، مَا عَلَيْكَ إلا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**» (المحقق).

(٤) تزيين الأرائك بإرسال النبي ﷺ إلى الملائك.

الفصل الثالث

في نقد نتائج بحثه التي وصل إليها

الفصل الثالث
في نقد نتائج بحثه التي وصل إليها

وهي (كما في صفحة ٢٠)؛ **ثلاث**:

أولاها: أن جميع أهل الكتب السماوية؛ أهل هداية وإرشاد؛ ما لم يخرجوا عن جادة الإيمان الصحيح بالله تعالى. **والثانية**: أن صفة أهل الكتاب لا تختص باليهود والنصارى؛ بل تشمل كل من له كتاب من غيرهم. **والثالثة**: أن جميع الأنبياء والمرسلين؛ إنما بعثوا للتوحيد، فالأديان جميعها دين واحد إلخ.

ونقول:

أما الأولى: فقد فرغنا من إبطالها في الفصل الأول؛ بما قررنا: أن الإيمان بالله وحده؛ ليس بإيمان؛ ما لم يوجد معه الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وذلك ما استهلّت به الآيات السابقة في الفصلين؛ الأول والثاني؛ ولا سيَّما آية البقرة (٢٨٥) وآية المائدة (١٢٦) وأمثالهما. وكأنه خاف صولة الحق؛ فَتَستَّر بقوله: «ما لم يخرجوا عن جادة الإيمان الصحيح». ولكنه كره أن يفوت عليه ما زعمه؛ أنه اهتدى إليه من بين الخلق أجمعين؛ من القول: بنجاة النصارى واليهود والصابئين على ما هم عليه الآن؛ ومن قديم الزمان؛ من التكذيب بمحمد ﷺ، وكتابه الذي لا يأتيه الباطل، ومع ما هم مجدّون في شوطه الطويل؛ من معاندته؛ بالدعاة والنشريات والتأليف؛ التي تغدق عليها جمعياتهم الأموال الضخمة؛ بسخاء لا تتصوره الأفكار.

أفلم يدر ما جرى بالأمس من الدولة الفرنساوية (التي أهانها الله في الحرب

الأخيرة بما نتمنى لها أكثر منه) من أخذها في تنصير البربر؛ بمقتضى صك أجبرت سلطان المغرب الأقصى؛ على التوقيع عليه في ١٧ ذي الحجة من ١٣٤٨هـ؛ بتنازله لها عن الإشراف على الأمور الدينية في الأمَّة البربرية؛ إنْ صحَّ ما تناقلته الصحف في ذلك. غير أنه يريبنا فيه؛ ما نعلمه من مسارعة بعض الأمراء والزعماء المسلمين؛ في هدم دينهم؛ وبيع ذممهم؛ إرضاءً للأجانب؛ بما لا يقدر عليه أحد من مبشرِّيهم. فلا نأمن أن يكون سلطان المغرب؛ من أولئك النفعيين؛ الذين يأكلون مع الذئب؛ ويبكون مع الراعي.

ومهما يكن من الأمر؛ فليس بخافٍ أنَّ الأجانب اليوم يؤجُّون[1] حنقاً على الإسلام؛ ويبذلون جهدهم في الكيد له. فبأيِّ شيءٍ مع هذا؛ نُفَسِّر إصرار المؤلف على القول بنجاتهم. إذ عاد بعد الإطلاق؛ إلى التخصيص والتقييد؛ فقال: بالله تعالى؛ ولم يشترطه بمحمد ﷺ؛ وما درى وما علم؛ أنَّ حقيقة الإيمان بالله؛ إنما هي ما يتلقاه صبيان المكاتب؛ من أنه: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. كما تصرح به كثير من الآي؛ التي ساقها بنفسه في كتابه. وقال تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخر الآية (٦٢). ونحوها سورة الأنعام (٩٢) السابقة في الفصل الأول؛ وسورة الفتح (١٣) وسورة الحجرات (١٥) السالفتين في الفصل الثاني. وما على غرارها من سوابق الآيات؛ الناصَّة على اشتراط الإيمان بالرسول ﷺ.

وقد استشكل المفسرون قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[2]؛ وقالوا كيف يجيء بلفظ الماضي؛ والذي سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ إنما هو البعض؟ ولا بدَّ للإيمان من اشتماله على الجميع؛ سالفه ومترقَّبه. وهذا هو موضع الشاهد، **ثم أجابوا**: بأن المراد الكل؛ وإن كان بعضه مترقباً، تغليباً للموجود. أو لأنَّهم على تَهَيُّؤٍ للإيمان بما سينزل،

(١) أجَّت النار: أي تلهبت واضطرمت وتوقدت.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤.

فكانوا في حكم المؤمنين به جميعاً؛ بعضاً بالفعل؛ وبعضاً بالقوَّة.

فإن قلت: إنَّ في كلا المعنيين؛ لزوم الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ قلت في الجواب: أمَّا على ما يقوله العلامة ابن حجر الهيتمي؛ من جواز ذلك؛ وزعمه النقل فيه عن الإمام الشافعي؛ فلا إشكال. وأمَّا على ما قرره الغزالي؛ واعتمدناه في غير موضع من كتبنا؛ من امتناعه؛ فلا إشكال أيضاً، لأن الجمع إنما يلزم إذا كان كل واحد منهما مراداً باللفظ. ولم يُرَد به هنا إلّا معنى واحداً؛ تركَّب من الحقيقة والمجاز؛ كما حققه الشريف الجرجاني (وسيأتي لهذه النتيجة تأكيد إبطال في الفصل الرابع).

وأما النتيجة الثانية: فالدعوى فيها عامة، وما نقله من الدليل عن الشافعي منقوض بأشياء: منها أن ما نقله بالصفحتين (٢٧) و(٢٨) خاص بالمجوس؛ وما نقله عنه بالصفحة (٢٩)؛ وهو قوله: ومن غزا المسلمون ممن يجهلون دينه؛ فإن ذكروا لهم أنهم أهل الكتاب؛ سئلوا متى دانوا به وآباؤهم؟ فإن ذكروا أنَّ ذلك قبل نزول القرآن؛ قبلوا قولهم اهـ.

وبينه وبين ما ادَّعاه؛ فرقٌ كبير؛ وبَوْن بعيد. لأنَّ الشافعي إنما يعتبرهم كتابيين لأجل الجزية؛ بشرط أن يدَّعوا أنهم أهل كتاب؛ وأن آباءهم تمسَّكوا به؛ قبل نسخه بمحمد ﷺ؛ فهو شاهد عليه؛ لا له؛ حيث كان يمنع نسخ الشرائع بنبيِّ الإسلام ﷺ.

وإليك نص ما استنتجه من كلام الشافعي: قال بعده في صفحة (٢٩): وعلى هذا وجب أن نعتبر جميع أهل الأديان الموجودة اليوم؛ أهل كتاب؛ لأننا نعلم أن جميع الأديان الموجودة؛ من يهودية ونصرانية ومجوسية وبوذية وبرهمية وغيرها، وجدت قبل نزول القرآن؛ على محمد صلوات الله عليه؛ وعلى جميع المرسلين اهـ. هذا هو الرد الأول.

والثاني: أنَّ للشافعي كلاماً غير هذا في النكاح. قال في المنهاج؛ مع تكملة له من الشرح: والكتابية؛ يهودية أو نصرانية، لا متمسكة بالزبور وغيره؛

كصحف شيث وإدريس وإبراهيم، فإن لم تكن إسرائيلية؛ فالأظهر حِلَّها؛ إن علم دخول آبائها في ذلك الدين؛ قبل نسخه وتحريفه. والسامرة من اليهود؛ والصابئون من النصارى[١]. فمن خَالَفَتْهُمْ في أصل دينهم؛ حَرُمَتْ؛ كالمرتدَّة. وقد تطلق الصابئة على قوم أقدم من النصارى؛ كانوا في زمان إبراهيم منسوبين لصابئ بن نوح؛ يعبدون الكواكب السبعة؛ ويضيفون إليها الآثار؛ ويزعمون أن الفلك حيٌّ ناطق؛ وليسوا مما نحن فيه؛ إذ لا تحل مناكحتهم؛ ولا ذبائحهم مطلقاً؛ ولا يُقَرُّون بجزية اهـ.

أما في الجزية فإنهم يتساهلون؛ تغليباً لحقن الدماء؛ وإنما لم يأخذ ﷺ؛ الجزية من يهود المدينة؛ لأنه لم يؤمر بها بعد؛ وإنما نزلت آية الجزية بعد غزوة تبوك؛ وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة.

والثالث: قد علمت من الفصل الأول؛ أنَّ مذهب الشافعي: تكفير من يُصَحِّحْ مذهب اليهود أو النصارى؛ أو يتشكَّكْ في كفرهم. فلا أجد للمؤلف مثلاً؛ إلّا ابن الرومي في قوله:

أحلَّ العراقيُّ النبيذَ وشُرْبه … فَحُلَّت لنَا بَينَ اختلافِهِمَا الخَمْرُ
وقالَ الحَرَامَانِ المُدَامَةَ وَالسّكْرُ … سَآخُذُ مِنْ قَوْلَيهِمَا طَرَفَيهِمَا
وقال الحجازيُّ الشَّرابَانِ وَاحِدٌ … وَأشْرَبُهَا حِلّاً وَللوَازِرِ الوِزْرُ

وشرح ذلك: أنَّ أبا حنيفة يقول: إنَّ شرب النبيذ حلال. وإنما يحرُم السكر والخمر، وقال الشافعي: هما سواء في الحرمة. وابن الرومي أخذ من قول أبي حنيفة: النبيذ حلال؛ وترك باقيه، وأخذ من قول الشافعي: هما سواء، وأعرض عن قوله في الحرمة. والمؤلف تمسك بشيءٍ من قول الشافعي في الجزية؛ وأعرض عما يقول في الرِّدَّة والنكاح. أليس المثال منطبقاً عليه أيها الناظرون؟

---

(١) الصابئة دين نصراني قديم يؤمن اتباعه بأربعة أنبياء من آدم إلى يحيى وموجود منهم اليوم حوالي مائة ألف يعيش معظمهم في العراق.

أما استدلال المؤلف في صفحة (٢٠) بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[١]، وقوله في سورة فاطر: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢]، فاستدلال جميل. ولكن الشافعي لا يعتبر المظنة؛ وإنما يعتبر في الأغلب المئنة[٣]. وهذا كله إن أراد البشر؛ وإلّا فقد قال القاضي عياض: بكفر من ذهب إلى أنَّ في كُلِّ جنس من الحيوان نبيًّا؛ محتجاً بهذه الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤]، وأقره العلامة ابن حجر؛ ومنه يتوجه الانتقاد إلى قول المعرِّي:

نبيٌّ من الغربان ليسَ على شَرعٍ   يُحَدِّثُنا أنَّ الشُّعوبَ إلى الصَّدْعِ

وأما نتيجة الثالثة: فقد حام فيها حول الحقيقة؛ ولكن لم يصب المحز؛ ولم يطبق المفصل؛ بل خبط في عشوة؛ وتكلم في نشوة، فقال في صفحة (٢١): إذاً فإنَّ الأديان جميعها؛ هي دين واحد؛ وأصولها هي واحدة؛ وإن تعدَّدَتْ الفروع، وقال في صفحة (٣٢): فهذه هي أصول الأديان الأساسية؛ التي دعت إليها جميع الأديان؛ أما الفروع؛ فليس هناك بأس إذا هي اختلفت اهـ.

فإما أن يكون لا يفهم؛ أو لا يضبط مشاعره عند تحريك القلم. ولقد أصاب في قوله: إنَّ أصول الأديان واحدة؛ ولكن ليس ذلك من كيسه؛ ولا بشيءٍ جديدٍ جاء به من تلقاء نفسه، إنما هو الطريق المهيَعْ[٥]؛ المعلوم بالضرورة من الدين؛ كما اتفق عليه سائر المفسرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين. وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٦]. وقال فيها أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٣) المئنة: علامة الشيء الدالة عليه.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٥) الطريق البيِّن.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[١]، وقال في سورة فصلت: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢].

ولئن قيل إن المقول هو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ فالعموم أولى؛ بشهادة ما سبق؛ قبيل الفصل الثاني. وقال في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٣]. والآيات في ذلك أكثر من الحصر، وأخرج مسلم بن الحجاج من عدة طرق صحيحة؛ بألفاظ متقاربة؛ هذا لفظ آخرها، قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة! قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياءُ إخوة من عَلَّاتٍ، أمهاتهم شتى؛ ودينهم واحد؛ وليس بيننا نبي**»[٤]. وأخرجه البخاري وأحمد وأبو داود؛ وذكره القاضي عياض وغيره. وقال النووي: قال جمهور العلماء: معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد؛ وشرائعهم مختلفة، فإنهم يتفقون في أصول التوحيد؛ وأصل طاعة الله؛ وإن اختلفت صفتها؛ وأما فروع الشريعة؛ فوقع فيها الاختلاف. وأخرج البخاري في باب خاتم النبيين أنه ﷺ قال: «**مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلّا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة**». وقد جوَّدت القول في خطبة ألقيتها منذ أكثر من عشرين عاماً؛ في الجمع بين سورة المائدة؛ وهي قوله جلَّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٢.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) قال العلماء: أولاد العَلَّات هم الإخوة لأب من أمهات شتى. وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان.

عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]؛ وسورة الشورى وهي قوله جلّ ذكره: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2].

وقد ذكر غير واحد من المؤرِّخين؛ أن أحد بطارقة الروم؛ جاء مسلماً إلى إبن الخطاب. فسأله عن سبب إسلامه؟ فأخبره أنه سمع أحد أسرى المسلمين عندهم يقرأ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3]؛ قال: فتأمَّلتها؛ فإذا هي جامعة لكُلِّ ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة. وجاء في الصفحتين ٢٢ وص٢٣ ج٢٠ طنطاوي[4]: أن الهنود البراهمة يوَحِّدون الله.

وقال الأستاذ الحكيم؛ الشيخ محمد عبده المصري[5]؛ في بعض مقالاته: الدين دين الله؛ وهو دين واحد في الأولين والآخرين؛ لا تختلف إلّا صوره ومظاهره؛ وأما روحه؛ وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون؛ على ألسن الأنبياء والمرسلين؛ فهو لا يتغيَّر: إيمان بالله وحده؛ وإخلاص له في العبادة؛ ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير؛ وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٤) أعتقد أن الإمام يشير إلى تفسير القرآن الكريم لجوهري طنطاوي.

(٥) الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ) من علماء مصر المجددين شارك في ثورة عرابي فنفي إلى بيروت ثم دعاه جمال الدين الأفغاني إلى باريس وأنشأ معه مجلة العروة الوثقى ثم عاد إلى مصر وعيّن أول مفتٍ للديار المصرية مستقلاً عن الأزهر له مجموعة من الفتاوى وشرح كتاب نهج البلاغة.

قدروا. ونعتقد أنَّ دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول. ومن أهمِّ وظائفه؛ إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب؛ ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمودة؛ وهذا ما عمل عليه المسلمون؛ قرناً بعد قرن؛ بحسب قوة تمسُّكِهِمْ بالإسلام (انتهى).

ومنه تعرف؛ أنَّ المؤلف[1] إنما يستقي منه؛ ومن أمثاله الموجودة بكثرة؛ في منشآت هذا الأستاذ الحكيم، ولكنه لم يتفضَّل بإشارة ما؛ إلى مأخذه منه؛ ليوهم الاختراع والابتكار؛ ويحرِّف بعض معانيه عن مواقعها. فإن الأستاذ الحكيم؛ لم يجعل الأديان ديناً واحداً؛ ولم ينحل ديناً منها؛ اسم غيره؛ وستأتي تتمة هذا البحث في الفصل العاشر.

وأما الذي خبط فيه فقوله: أما الفروع فليس هناك بأس إذا اختلفت. إذ ما بعد (لا بأس) أولى بالترك لا بالعمل، فإذا قلت لأحد: لا بأس أن تجيء؛ كان عدم المجيء أولى. وقضيته أنَّ عدم الاختلاف في الفروع؛ أولى بالحكمة منه فيها؛ وليس الأمر كذلك؛ بل اختلافها بحسب المصلحة؛ نظراً للأمكنة والأزمنة والأشخاص؛ هو الأولى.

قال البيضاوي[2]؛ على قوله تعالى؛ في آية المائدة؛ السابقة عما قليل: ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة؛ المناسبة لكل عصر وقرن؛ هل تعملون بها مذعنين أنَّ اختلافها مقتضى الحكمة الإلهية؟ أم تزيغون عن الحق وتفرطون في العمل؟

فإن قيل: إنما تقيَّل البيضاوي في هذه العبارة آثار الزمخشري[3]؛ وقد بناها

(١) لكتاب توحيد الأديان.
(٢) هو القاضي العلامة عبد الله بن عمر البيضاوي ولد بالبيضاء قرب شيراز وبرع في الفقه والأصول واللغة وله عدة مصنفات أشهرها تفسيره المسمى بمعالم التنزيل.
(٣) هو محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) برع في الآداب وصنف =

على مذهبه؛ من القول والحكمة بالأفعال، **فالجواب**: إن القول بحكمة الله؛ أظهر من أن يُحْتَجَّ عليه لتقرير مسلم؛ سلم من تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها. ولذا تقِرُّ به العوام من كل فرقة، ويقرُّ به من لم يتلقن خلافه من اتباع غلاة المتكلمين. وقد جزم بإثبات حكمة الله في الأفعال؛ عشرة من الشافعية؛ وهم: الخطابي وعلي بن خلف بن بطال، والزنجاني، وابن كثير، والذهبي، والغزالي، والنووي، وابن الأثير، والدميري، والزركشي. وذكر في شرح جمع الجوامع: إثباته عن الحنفية؛ وعن الخطَّابي من الحنابلة. وهو المنصور لقِوَّته من حيث الفطرة؛ وآيات القرآن المجيد؛ وسلامته من الوهن والتعارض. وأمَّا الإمام الرازي فقد اختلف كلامه، وقال في (مفاتيح الغيب)[1]: إنَّ مسألة الأفعال وقعت في حيِّز التعارض؛ بحسب تعظيم الله تعالى؛ نظراً إلى قدرته؛ وبحسب تعظيمه؛ نظراً إلى حكمته. وأطال في ذلك العلامة ابن الوزير في (إيثار الحق)[2] بما يتعين الوقوف عليه. وقد جاءت هذه الفائدة في البين[3]؛ ولكنها يعذب بها الاستطراد؛ لأنها جَدُّ نفيسة.

ومن عشوته أيضاً؛ قوله في تلك الصفحة (أعني صفحة ٣٢): وعلى هذا فالمؤمنون جميعاً من مسلمين ومسيحيين ويهود وبوذيين وغيرهم؛ إذا أقَرُّوا واعترفوا بذلك؛ فقد أقرُّوا واعترفوا بجميع الأديان؛ وجميع الكتب والرسل؛ وأنهم من عند الله. ومعناه: أنهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً؛ فقد أقروا بطريقة الالتزام؛ واعترفوا بجميع الأديان؛ تَضَمُّناً؛ شاؤوا أم أبوا. ولا يضر عنده تفريق الشهادتين؛ ولا جحودهم لرسالة محمد ﷺ، لأن المقصود عنده؛

= التصانيف وأشهرها تفسيره للقرآن وكان على مذهب المعتزلة في العقيدة حنفياً في الفروع وكان يجاهر باعتزاله.

(١) هو التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.

(٢) محمد بن إبراهيم الوزير (٧٧٥ ـ ٨٤٠هـ) عالم موسوعي من اليمن أثنى عليه كبار العلماء وله عدة كتب منها العواصم من القواصم ومنها إيثار الحق على الخلق.

(٣) أي في ثنايا الكلام.

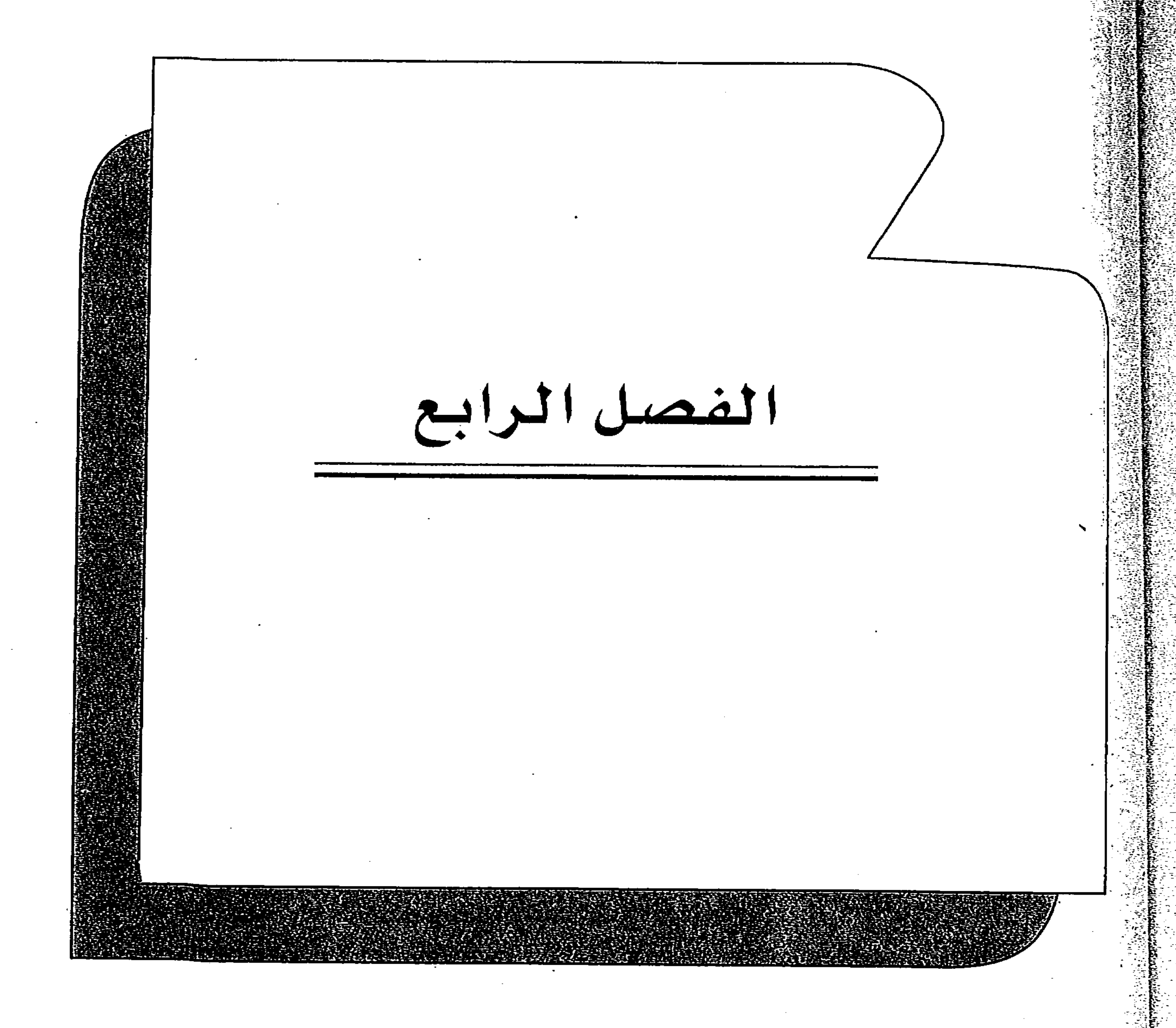
وجود الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ فمتى وجدت هذه؛ كان صاحبها مؤمناً بسائر الكتب؛ لاتفاقها على طلبها من الإنسان.. وهذا والله هو الكفر الشنيع؛ الذي لم يأت بمثله أحد من العالمين. ولا ينطبق مع ذلك على شيء من المنطق واللغة. وأينه مما أنكره الناس على الشيخ الأكبر ابن عربي[١]؛ إذ يقول في الصفحة ٣٩٣ من آخر أجزاء فتوحاته[٢]؛ في الكلام على أنَّ العالم على صورته؛ فلذلك قلنا: إنَّ الحق غير الوجود؛ ومن هذه الحضرة جمع العالم كله على تسبيحه بحمده؛ وعلى السجود له. إلّا أنَّ كثيراً من الناس؛ ممن حقَّت عليه كلمة العذاب؛ سجد له في صورة غير مشروعة. فأُخِذَ بذلك؛ مع أنه ما سجد في المعنى إلّا لله؛ فافهم اهـ.

فإنه جزم بأنهم ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب؛ بخلاف المؤلِّف؛ فإنه يقول بنجاة المكذِّبين بمحمد ﷺ؛ لأنهم وإن كذبوا به في الظاهر؛ فقد أقرُّوا بما جاء به من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والجزاء على الأعمال. وهذا القدر؛ هو الذي بنى كتابه على الاحتجاج على كفايته والتدليل لها، تعالى الله عما يشركون.

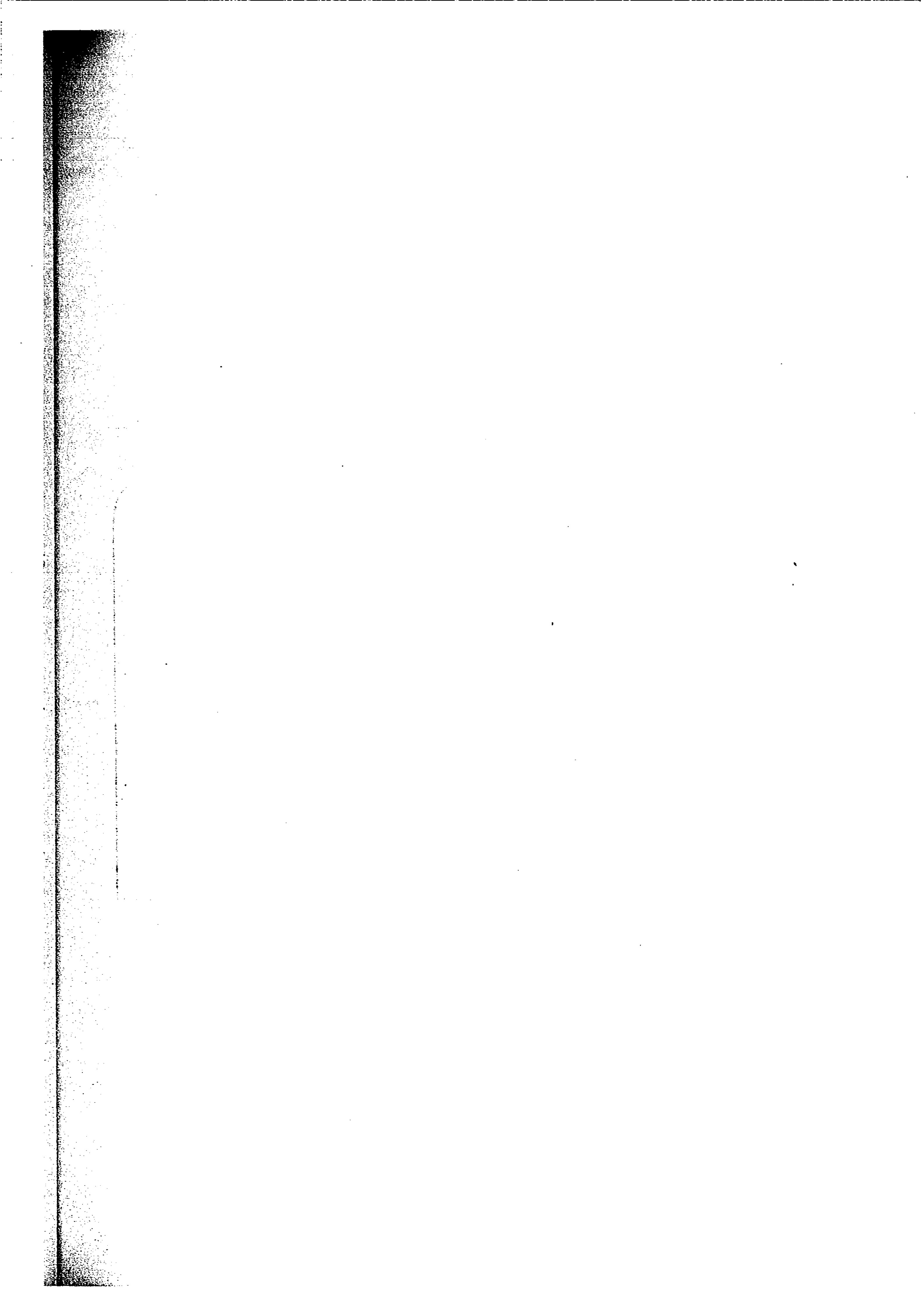


(١) محيي الدين بن عربي الأندلسي أحد أشهر المتصوفين يلقبه أتباعه بالشيخ الأكبر ولد في الأندلس سنة ٥٥٨هـ قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني ودفن بدمشق عام ٦٣٨هـ.

(٢) أي الفتوحات المكية لابن عربي.



الفصل الرابع



الفصل الرابع

كنت توهمته ارْعَوَى عن الغيِ؛ ودنا من الظل؛ وقرع باب الصواب؛ بما جاء في الصفحات: (٨ و٢٢ و٢٤ و٢٥ و٣١ و٣٢). أما ما في صفحة (٨) فهو قوله: (فكان من حكمة الله تعالى؛ أن أرسل خاتم الأنبياء؛ وأمر القرآن بوجوب الإيمان لكل الأديان التي قبله؛ وجميع الكتب التي سبقته؛ وعموم الأنبياء الذين تقدموه؛ وجعل ذلك شرطاً أساسياً للإيمان؛ لا يكمل ولا يتم إلّا به.. إلخ).

فقد ذهب إلى وهمي؛ بداءة ذي بدء؛ بدافع الظن الحسن؛ أنه ينقض كلامه في الصفحات المشؤومة؛ ويجعل الإيمان بجميع الكتب شرطاً لإيمان اليهود والنصارى. ولما أعدت النظر؛ ألفيته كالصريح في العكس. وهو أن القرآن مأمور بالإيمان بكتب أولئك؛ لا أنَّهم مأمورون بالإيمان به. فكانت شرًّا من تلك الصفحات؛ وإنْ كانت كلها شرًّا وكفراً. هذا إن جعل القرآن مفعولاً؛ وإن جعله فاعلاً؛ كان الأمر كذلك. لأنَّ المقصود أمْرُ القرآن لأبنائه؛ بأن يؤمنوا بالأديان والكتب والرسل قبله؛ لا أنَّه يأمر أهل الكتاب؛ ومَنْ لَفَّهُمْ؛ بالإيمان به؛ وبمن أنزل عليه. وقد صرح في صفحة ٩: بأنه لا يقصد الدعوة إلى دين معيَّن؛ وإنما غرضه الرجوع إلى أصول الأديان. يعني دينه الجديد؛ وهو ظاهر في أنَّ لكُلِّ أهل دين؛ فروعهم. وهل من كُفْرٍ فوق هذا؟ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وأما قوله في صفحة (٢٢): (فكان القرآن هو الدعوة العامة للعالم كله؛ إلى دين الله؛ الذي أرسل به جميع الأنبياء؛ والرسل الذين تقدموه؛ وجعل ذلك شرطاً

أساسياً لازماً؛ لا يكمل الإيمان إلّا به؛ حتى يكون الدِّين كُلُّه لله). فأخذتني سلامة النية عند أول نظرة فيه؛ على أنه يجعل الشرط الأساسي للإيمان: هو التصديق بالقرآن؛ ولما أعدتها؛ إذا هو كما في السابقة بالعكس. والإشارة في قوله: (وجعل ذلك) عائدة إلى أقرب مذكور؛ وهو دين الله؛ الذي أرسل به جميع الأنبياء. إذاً؛ فهذه العبارة؛ أشبه بسابقتها؛ من الجرادة بالجرادة؛ والبيضة بالبيضة؛ والغراب بالغراب. وأما في الصفحة ٢٤؛ فقد ساق جملة من الآيات الكريمة؛ ومنها آية البقرة ١٢٦ وآيتها ٢٨٩؛ وقال: إنَّ المسلم لا يتم إسلامه؛ ولا يكمل إيمانه؛ إلّا بذلك. ولولا ما انكشف لي من صريح الغش في الصفحتين السابقتين؛ لتوَهَّمت أنَّ الإشارة بذلك؛ إلى ما جاء في الآيات من الإيمان التفصيلي بالملائكة والكتب والرسل؛ ولكنه لا يريد إلّا الإيمان بالدين؛ الذي اختصر أركانه؛ وردَّها إلى ثلاثة فقط؛ كما يتوضح ذلك من قوله في صفحة (٢٥): (وهذه الآيات مشيراً إلى ما في صفحة ٢٤) صريحة في أن القرآن يعتبر الأديان جميعها ديناً واحداً؛ وأنَّ الرسل جميعاً؛ إنما جاؤوا بدينٍ واحد. ويجعل ذلك شرطاً أساسياً لازماً في كمال الإيمان؛ وأنَّه لا يتم إيمان المرء ما لم يؤمن بذلك إلخ. فإن اسم الإشارة في «ويجعل ذلك» لا يحتمل رجوعاً إلى غير اعتبار الأديان جميعاً ديناً واحداً؛ خلاف ما فهمته أولَ بدءٍ؛ من ارعوائه واستفاقته. ومثل ذلك وقع لي؛ عندما رأيت قوله في صفحة (٣٢) السابق؛ مع نقده قبيل الفصل الرابع.

أما قوله في صفحة (٣١): (فماذا يعذرنا أن نعتبر ونعترف ونقر بجميع الأديان؛ وأنَّ اتباعها من المؤمنين المهتدين؛ إذا آمنوا بالله وعملوا صالحاً؛ ولم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ حتى يكون الدينُ كلُّه لله؛ ويتم توحيد الأديان؟ وماذا يعذر أهل الكتاب أن يؤمنوا بجميع الكتب والمرسلين؛ ويعبدوا الله وحده؛ ويعملوا العمل الصالح؟ إلخ..). فلا شك أنَّ أوله؛ كمثل ما في الصفحات المشؤومة السابقة في الفصل الأول، وأما آخره؛ فقد يُتَوَهَّم أنه عليه شَمَّة من الحق؛ لو كان من قبيل الحتم والإلزام بالإيمان التفصيلي؛ إذ لا بدَّ من وجوب

الإيمان بمُحَمَّدٍ وبكلٍّ من نصَّ القرآن على اسمه من الأنبياء تفصيلاً. ولكنه لم يكن إلّا بصفة العرض.

وقد مرَّ اكتفاؤه من اليهود والنصارى ومن لَفَّهُمْ؛ بالإيمان الاستلزامي والتَّضَمُّني؛ فهو الذي لا يعذرهم منه هنا. أما الإيمان المتبوع بحذو المثال وسلوك الطريق؛ فقد أعفاهم منه رأساً؛ نعوذ بالله من الخذلان. فهو وإن مجمج في بعض الكلام؛ وتذبذب في بعض العبارات، إخفاءً لمَكْرِه، فقد صدَّق كتابه سن بكره[1]؛ بل إنه لا يُلْزِمُهُمْ بالإيمان التضمني الإجمالي؛ وإنما يَعُدُّ موافقتهم على الإيمان بالله والبعث والعمل الصالح؛ هو الدِّين الذي يجمع شتى الأمم؛ ويضم منتشر الملل؛ وهو الذي يجب عليهم وعلى القرآن الإيمان به. وبما أن القرآن لا يؤمن بأن هذا الاختصار هو الدين الخالص؛ فماذا يكون حكمه عند المؤلف؟ نعوذ بالله من ركوب الغمَّة؛ والخبط مع العشوة.

ولئن توهم من آخر عبارته؛ القرب من حِمَى الحق؛ فقد أبدت الرغوة عن الصريح[2]؛ إذ قوله في أولها: (وإنَّ أتباعها من المؤمنين المهتدين)؛ صريحٌ؛ في الإصرار على تلك المَعَمَّة؛ والكفر الفاحش؛ والإلحاد القبيح. ولولا سقوط كلامه بذاته؛ بقطع النظر عن رَدِّي عليه؛ ونقض فتله وقطع حبله؛ لأُطْلِقَ عقال الفتنة؛ واستَوْرَى زناد الشر. وأما المسلمون حتى الجاحظ والعنبري؛ فقد اتفقوا على أنَّ لا إسلام؛ إلّا بكلمتي الشهادة؛ واتِّبَاعِهِ ﷺ في جميع ما جاء به عن الله تعالى.

وقد تضمنت كلمة الشهادة مع قِلَّةِ حروفها؛ جميع ما يجب على المُكَلّف معرفته من عقائد الإيمان؛ في حقِّه تعالى؛ وفي حقِّ رسله. ولاختصارها مع اشتمالها على ما ذكرناه؛ جعلها الشرع ترجمان ما في القلب من الإسلام. ولم يقبله من أحَدٍ إلّا بِهَا.

---

(١) المثل: «صَدَّقَنِي سِنَّ بَكْرِهِ»؛ يضرب مثلاً في الصدق والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل.

(٢) أبدت الرغوة عن الصريح من أمثال العرب ومعناه ظهر الأمر المخفي.

وأخرج البخارى ومسلم؛ من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «**من شهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله تبارك وتعالى الجنة على ما كان من عمل**»[1]. وأخرج الترمذي ومسلم عنه أيضاً: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله حرَّم الله عليه النار**». وعن يونس بن عبد الله بن سلام؛ عن أبيه؛ قال: عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ سمع القوم وهم يقولون: أي الأعمال أفضل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إيمان بالله وجهاد في سبيل الله وحج مبرور ثم سمع نداء في الوادي يقول أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله فقال رسول الله ﷺ: وأنا أشهد وأشهد ألا يشهد بها أحد إلّا برئ من الشرك**» رواه أحمد والطبراني في الكبير قال الهيتمي ورجال أحمد موثقون.

وفي حديث معاذ بن جبل الطويل؛ الذي أخرجه البزار والنسائي وابن ماجه والترمذي والإمام أحمد وغيرهم؛ بإسناد صحيح مرفوعاً: «**إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويشهدوا أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلّا بحقها وحسابهم على الله عز وجل**». وفي صحيح مسلم؛ أنه ﷺ؛ قال لعليٍّ يوم خيبر: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله... إلخ**». وأجمع ما في الباب؛ حديث جبريل الطويل؛ ومنه: «**أن قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمَّداً رسول الله؛ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة؛ وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**.

---

(١) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِت، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ، يَقُولُ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ**». أَخْرجه البخاري وَمسلم.

قال: صدقت؛ قال: **أخبرني عن الإيمان؟** قال: **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كلِّه خيره وشره»**. وقد اتفق البخاري ومسلم وغيرهما على إخراجه وتصحيحه. وقد جمع أركان الإيمان والإسلام والإحسان. غير أن المؤلف اختصره اختصاراً قبيحاً جداً.

وفي حديث وفد عبد القيس؛ الذي اتفق عليه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وغيرهم: «**أنه ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، ثم قال لهم: تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: شهادة أن لا إله إلّا الله؛ وأنَّ محمداً رسول الله؛ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان؛ وأن تعطوا من المغنم الخمس**». وفي حديث عمرو بن عنبسة الجامع لفرائض الدين؛ أنه قال: وما الإيمان؟ قال له ﷺ: «**تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث**»، أخرجه الطبراني وأحمد، ورجاله ثقات.

وعن جرير بن عبد الله من حديث طويل؛ أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: علِّمني ما الإيمان؟ قال: «**تشهد أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله؛ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت**». قال: قد أقررت؛ ثم وقعت يد بعيره في بعض ما تحفر الجرذان؛ فاندقت عنقه؛ فقال ﷺ: «**عمل قليلاً وأُجِرَ كثيراً**» أخرجه الطبراني؛ وابن أبي حاتم في تفسيره؛ والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والخطيب البغدادي؛ والإمام أحمد بسند فيه زاد: أنْ وثَّقه قومٌ وضعفَّه آخرون.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ**» أخرجه الإمام أحمد وعبد الرازق. وأخرجه البخاري ومسلم والطبراني وأحمد أيضاً والنسائي والترمذي بدون: «**وأنَّ محمداً رسول الله**». وفي كل الروايات بناؤه على خمس؛ فدلَّ على أن الشهادة لمحمَّد بالرسالة؛ منطوية في الشهادة بالتوحيد.

وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله؛ وإقام الصلاة؛ وإيتاء الزكاة؛ وحج البيت وصوم رمضان**»، قال الهيتمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير والصغير؛ وإسناد أحمد صحيح. وعن عليٍّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ**» أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم؛ وسنده جيد.

وعن السدوسي قال: «**أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه؛ فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأن أقيم الصلاة؛ وأن أؤدي الزكاة؛ وأن أحج حجة الإسلام؛ وأن أصوم شهر رمضان؛ وأن أجاهد في سبيل الله؛ فتلكأ في الصدقة والجهاد؛ ثم بايع عليهن كلهن**»[1]. قال الهيتمي رواه أحمد والطبراني في الأوسط الكبير، ورجال أحمد موثقون، وعن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لمَّا بعث معاذاً إلى اليمن؛ قال: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» أخرجه الشيخان والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود. وأخرج مسلم وأحمد عن أبي موسى الأشعري؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**والذي نفسي**

---

(١) وفي المسند عن بشير بن الخصاصية قال: «أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وأن أقيم الصلاة وأن أوتي الزكاة وأحج حجة الإسلام وأن أصوم رمضان وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله، أما اثنتين فوالله ما أطيقها، الجهاد والصدقة، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: فلا جهاد ولا صدقة! فبم تدخل الجنة إذاً؟ قلت: أبايعك، فبايعته عليهن كلهن» ملاحظة للمحقق: ويطلق على السدوسي ابن الخصاصية.

بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النار»؛ وأخرجه أحمد أيضاً من حديث أبي هريرة. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله؛ فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلّا بحقِّها؛ وحسابهم على الله**». قال فلما كانت الردة قال عمر لأبي بكر: تقاتلهم وقد سمعت رسول الله يقول كذا وكذا؛ قال: فقال أبو بكر: نقاتلهم؛ والله لا أفرِّق بين الصلاة والزكاة؛ ولأقاتلنَّ من فرَّق بينهما؛ قال: «فقاتلنا معه فرأينا ذلك رُشْداً» أخرجه الشيخان. والشهادة لِمُحَمَّدٍ بالرسالة؛ مندرجةٌ في شهادة التوحيد؛ كما تشهد الروايات السابقة والآتية. وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ثم قد حرم على دماؤهم وأموالهم، وحسابهم على الله عز وجل**» أخرجه أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عمر. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلّا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم**» أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود باختلاف في بعض الألفاظ.

وعن ابن مسعود قال: «**إن الله عز وجل ابتعث نبيَّه لإدخال رجل الجنة؛ فدخل الكنيسة؛ فإذا هو بيهود؛ وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة؛ فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا ـ وفي ناحيتها رجل مريض فقال النبي ﷺ: ما لكم أمسكتم؟ قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة؛ فقرأ حتى أتى على صفة النبي وأمته، فقال: هذه صفتك وصفة أمتك؛ أشهد أن لا إله إلّا الله؛ وأنك رسول الله ثم مات، فقال النبي ﷺ: ولوا أخاكم**» أخرجه أحمد والطبراني وسنده جيد.

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار **أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ، فَسَارَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَجَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،**

فَقَالَ: «**أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ؟**» قَالَ الأَنْصَارِيُّ: بَلَى وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ؟**» قَالَ الأَنْصَارِيُّ: بَلَى، وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يُصَلِّي؟**» قَالَ: بَلَى، وَلا صَلاةَ لَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ**» أخرجه مالك وعبد الرازق في جامعه، وقال الهيتمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ؛ عاد عتبان بن مالك من وجع بعينيه؛ فتحدَّث أصحابه؛ وذكروا ما يلقون من المنافقين؛ وأسندوا عظم ذلك إلى مالك بن الدخشم، فقال النبي ﷺ: «**أليس يشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله ﷺ فقال قائل: بلى وما هو من قلبه، فقال رسول الله: فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجه الله**» أخرجه أحمد والشيخان من حديث محمود بن الربيع؛ وأخرجه البخاري وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض**»؛ يعني عشرة بعد عبد الله بن سلام؛ ومخيريق[1]؛ فيكون المجموع اثني عشر؛ وهم المشار إليهم في المائدة بقوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

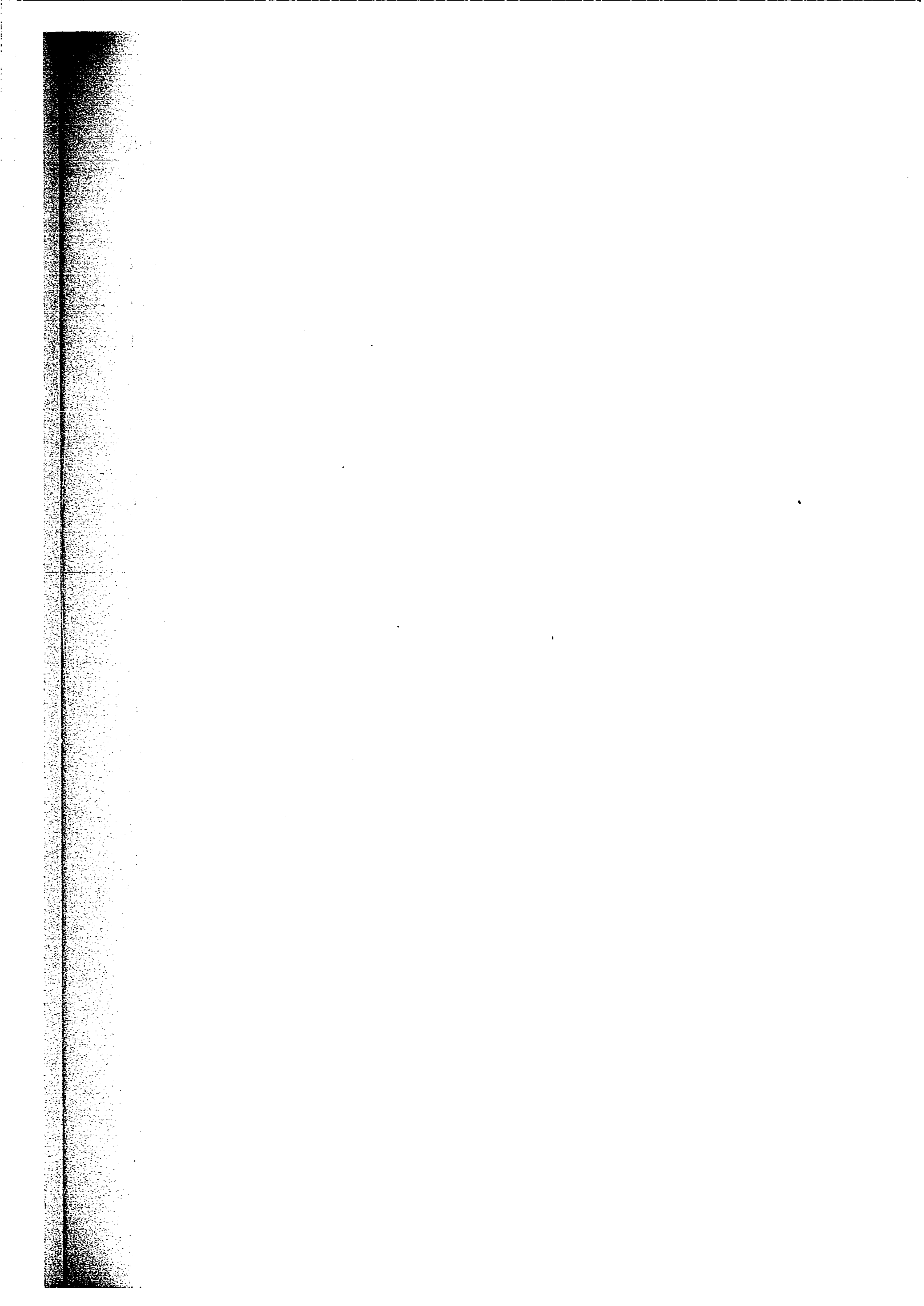
---

(١) مخيريق بن النضير كان من يهود بني قينقاع وكان من أغنيائهم؛ أسلم ودعا اليهود إلى مناصرة الرسول ﷺ يوم أُحد فلم يستجيبوا له فخرج وانضم إلى جيش المسلمين وقاتل حتى قتل وأوصى بماله لرسول الله ﷺ وكانت سبعة من البساتين وقال رسول الله ﷺ: «**مخيريق خير يهود**» وجعل أمواله صدقة للمسلمين.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

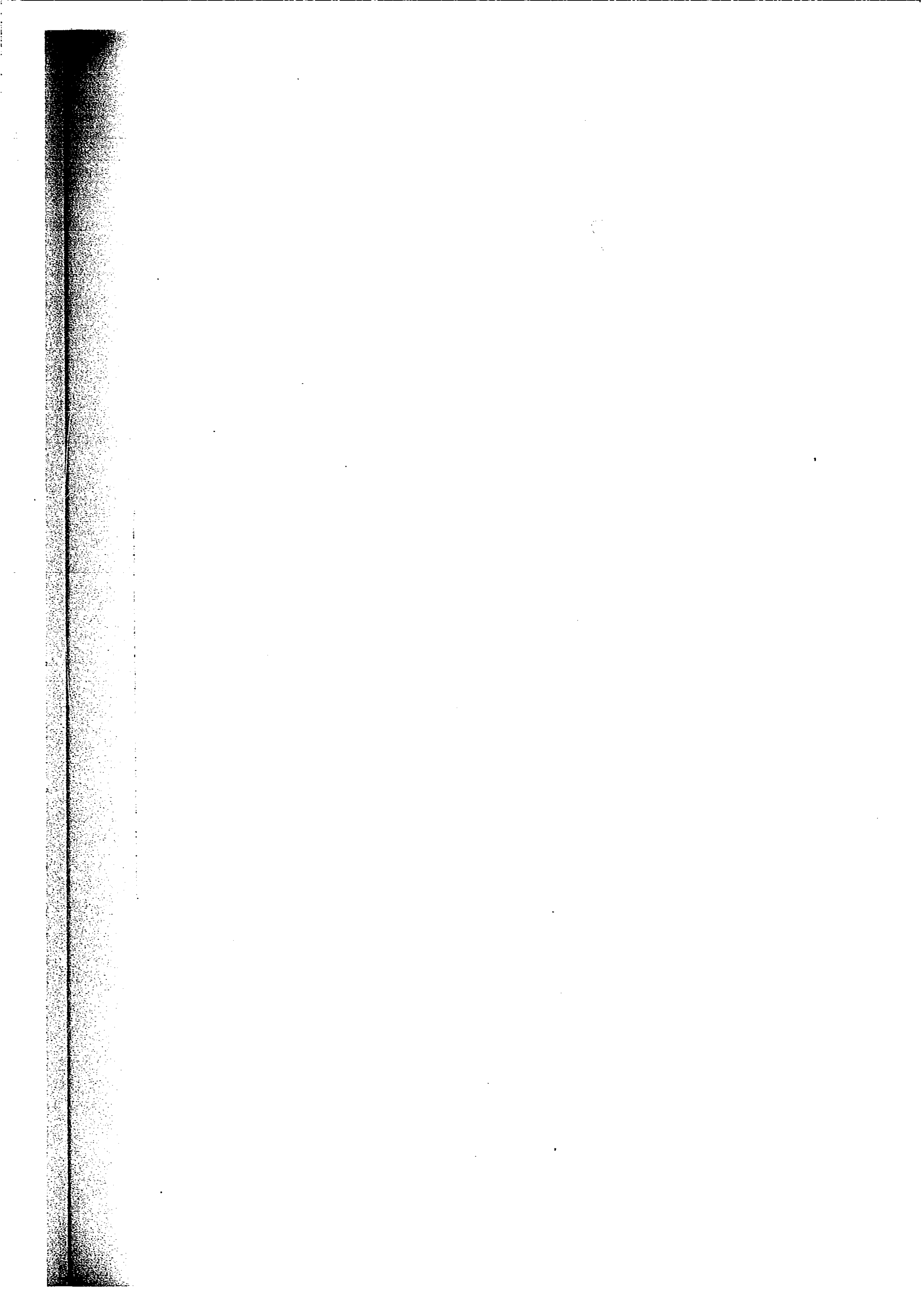
وكان الاقتصار على بعض هذه الأحاديث الصحيحة أولى بالاختصار؛ ولكن الإكثار أبعد عن التأويل وأظهر للمنار، إذ التواتر أدمغ الحجج وأبلغ البراهين، وقد حصل بحمد الله وزيادة؛ وما توفيقي إلّا بالله؛ عليه توكلت وإليه أنيب.







الفصل الخامس



الفصل الخامس

لقد أطلنا القول في التشرف بسرد الآيات المقدسة؛ والأحاديث الثابتة؛ فلم نعدم فائدة وعائدة، غير أنَّا كمن يدفع باباً مفتوحاً على مصراعين؛ بينهما بُعد المشرقين؛ إذ لا يمكن أن ينطلي شيء من تلك الترهات على ذي عقل.

ونعود فنتساءل فيما بيننا؛ ماذا يُفَسَّر به العمل الصالح في دين المؤلف؟ أما الاعتراف بنبيِّنا محمد ﷺ؛ فتارة يكاد يصرِّح بعدم اشتراطه؛ كما في الصفحات السبع المشؤومة؛ التي قد فرغنا من ردِّها في الفصل الأول. وأخرى يخاف انهتاك الستر؛ ويهاب من غضب أهل القبلة؛ فيتذبذب ويمجمج القول؛ ويتوهَّم أنه يحفظ لنفسه خط الرجعة؛ بعبارات قد يفهم منها لأول وهلة: أن شرط الإيمان الأساسي هو الإيمان بسائر الأنبياء والكتب؛ دون تصريح بالواجب الذي لا بدَّ منه من التفصيل؛ ثم لا تنكشف الحقيقة عند إعادة النظر؛ إلّا عن إصراره؛ على أنه لا يلزم الإيمان إلّا بالدين الذي اختصره إلى ثلاثة أركان فقط؛ بل لا يظفر الناظر في كتابه بنتيجة قط؛ سوى أنَّ موافقة من سمَّاهم أهل الكتاب؛ على الإيمان بتلك الأسس الثلاثة؛ أو الاثنين والعمل الصالح؛ هو الدِّين نفسه؛ وإن لم يصحبه إيمان بالأنبياء والكتب بتفصيل ولا إجمال. وقد خرجنا من هذا بما في الفصل الرابع.

أما في هذا الفصل فنطالبه بتفسير «العمل الصالح» وعنده تنكشف الضمائر؛ وتُعْلَنْ السرائر؛ وتُنْصَبْ الموازين؛ وتُنْشَر الدواوين. فإن فسرَّه بالصلاة إلى قبلتنا؛ وبالحج والصيام؛ والزكاة والقيام؛ فقد اندفع الملام؛ والتأم الكلام؛

وصحّ الإسلام؛ وصرنا أهل الكتاب إخواناً في الدين؛ كما يقرره؛ والسلام. وحينئذٍ نقدِّم له الاعتذار؛ ولا سيَّما إذ لم نتقدمه بالاستفسار والإنذار، ونطلب منه العفو إن لم نفهم ما يريد؛ فإنَّا لم نزد إلّا الحق؛ والله على ما نقول شهيد. وأما ما فسره بزمزمة الفرس وتعظيمهم للنار؛ وصلاة النصارى؛ التي يقول بشأنها ابن القيِّم؛ في الصفحة ٣٨٩ من «إغاثة اللهفان»: وأما تلاعب الشيطان بهم في صلاتهم؛ فمن وجوه: أحدها؛ صلاة كثير منهم بالنجاسة والجنابة؛ ومنها؛ صلاتهم إلى مشرق الشمس؛ وهم يعلمون أن المسيح لم يُصَلِّ إلى المشرق أصلاً؛ وإنما كان يصلِّي إلى قبلة بيت المقدس، ومنها؛ تصليبهم على وجوههم عند الدخول في الصلاة؛ والمسيح بريء من ذلك. فصلاة مفتاحها النجاسة؛ وتحريمها التصليب على الوجه[1]؛ وقبلتها المشرق؛ وشعارها الشرك؛ كيف لا تنفر عنها العقول أعظم نفرة؟ ويستحيل مجيئها في شيءٍ من الشرائع (اهـ بمعناه وبعض لفظه).

فإن فسَّر المؤلف[2] عبادتهم بأشباه هذا؛ فليعلم أنه جاوز مسيلمة الكذاب من جهات؛ نَعُدُّ منها ولا نعدِّدها. منها: أنَّ مسيلمة لم يضع عن بني تغلب إلّا صلاة الفجر وصلاة العشاء؛ وقد جازف هذا بسائر الشرائع؛ فقدَّمها قرباناً لأهل الكتاب؛ وضَحَّى بها في استمالة قلوبهم؛ على حين أنهم يجرحون عواطف المسلمين بتقسيم بلادهم. ومنها أن مسيلمة لم يتبرع بتينك الصلاة؛ وإنما جعلهما صداقاً لسجاح[3]؛ فماذا الذي يصل إلى المؤلف في مقابلة ذلك؟

---

(١) أي جعلوا التصليب مثل تكبيرة الإحرام في صلاة المسلمين.

(٢) أي مؤلف كتاب توحيد الأديان.

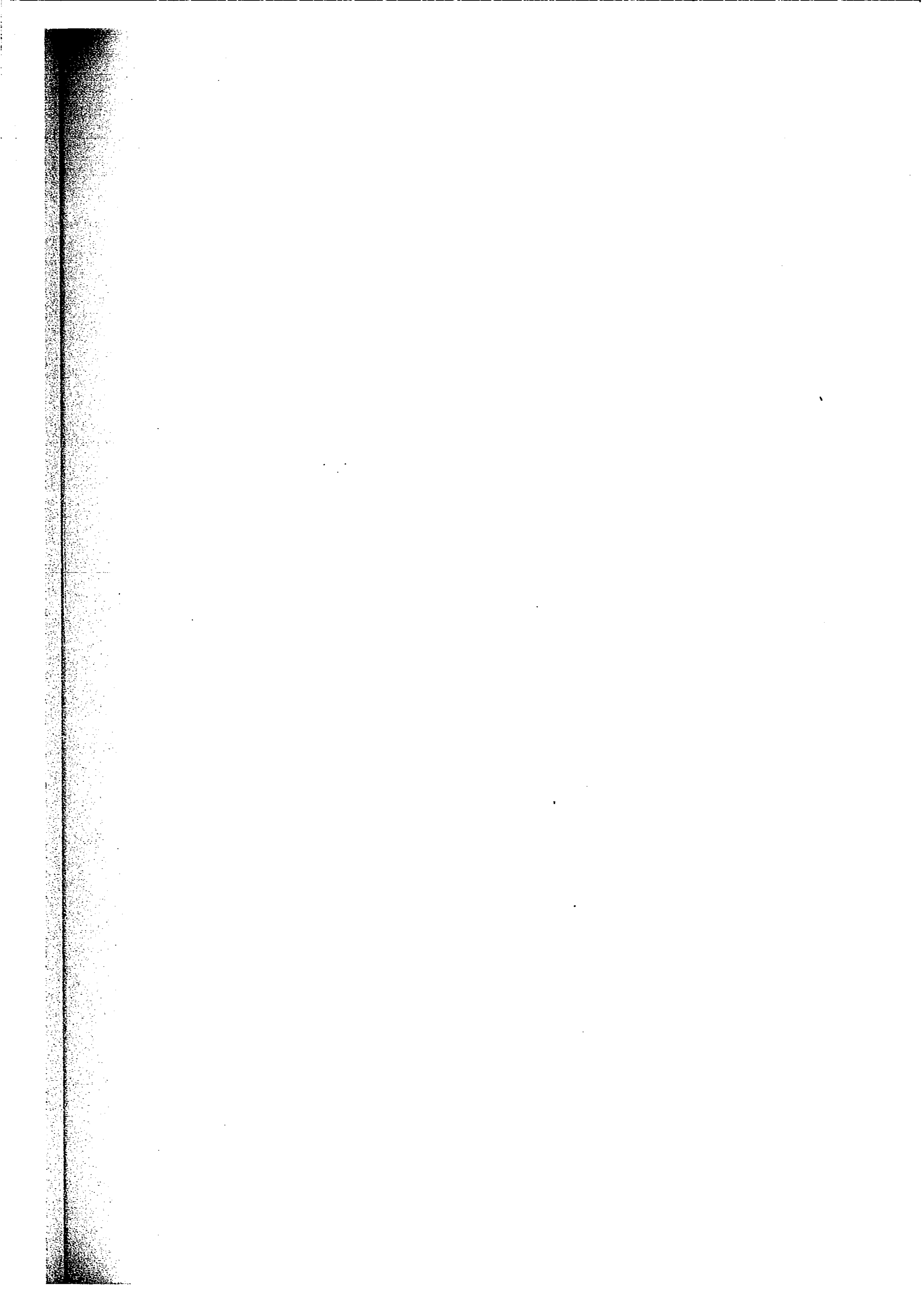
(٣) سجاح بنت الحارث من بني تميم ادعت النبوة وتزوجت مسيلمة الكذاب وحاربت المسلمين وقد أصدقها مسيلمة وضع الصلاتين عن أتباعه وكانت مشهورة بالكذب ولما بلغها سير بطل الإسلام خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وانتصاره على مالك بن نويرة وطليحة بن خويلد سارت إلى العراق ثم لما قتل مسيلمة تابت وأسلمت وحسن إسلامها وماتت في عهد معاوية بن أبي سفيان.

نعم؛ قال في صفحة ٣٥: لا يتم الركن الثالث للدين «وهو العمل الصالح» إلّا بها؛ يعني العبادة اهـ. ولكننا نعيد السؤال نفسه؛ ونقول ما هي العبادة؟. فإنْ فسرَّها بشرائع الإسلام؛ وأنْ لا بُدَّ منها لتوحيد الأديان واتحاد العالم؛ فقد اتفقنا. غير أن ذلك من المستحيل العقلي؛ مع ما سبق من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾[1]. وإن قال: بل لكُلٍّ أمة عبادتها! انهد ركنه؛ وانهار بناؤه؛ لأنَّ الخلاف عنده؛ كان في الركن الثالث من أركان الدين؛ التي لا بدَّ من الاتفاق عليها.

أما في الصفحة (٥٩)؛ ففسَّر العبادات؛ بالصلاة والصيام والزكاة والحج، ولكن بعد أن تذبذب وموَّه الكلام؛ ولم يفصح بالمُوَجَّه إليهم الخطاب في ذلك؛ أهُمْ أهل الكتاب من سائر الأنام؟ أم أتباع محمد فقط عليه الصلاة والسلام؟ لا أراه بالأوَّل يطيب، بل قد قطع تصريحه في الفصل التالي؛ لسان كل خطيب.

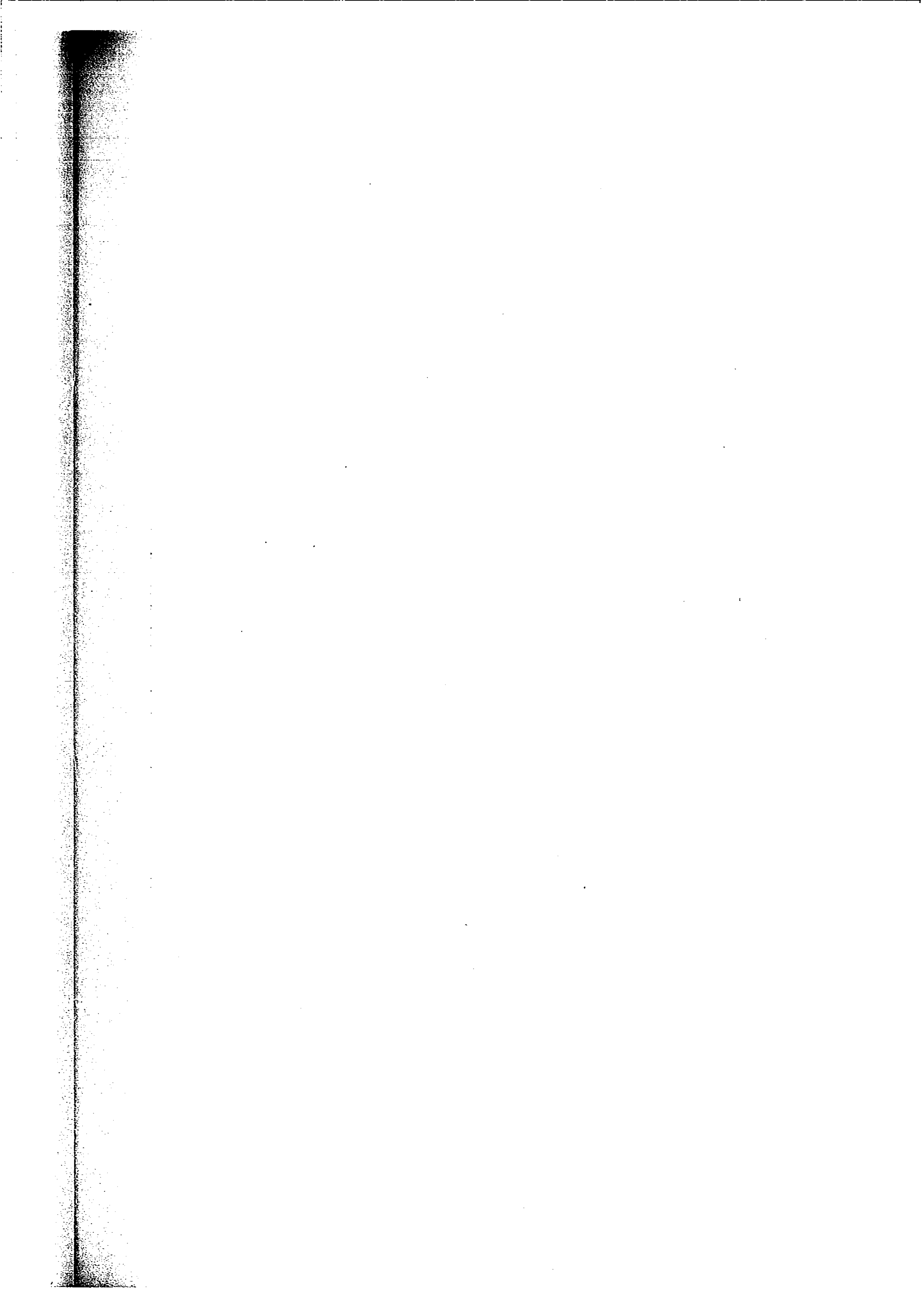


(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.





الفصل السادس



الفصل السادس

قال في صفحة (٣٥): قد تحصل شبهة عند بعضهم؛ فيقول: كيف نُقِرُّ ونعترف بجميع الأديان؛ مع قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]؛ والواقع أنه إذا فهم معنى الآية الكريمة من آل عمران أيضاً وهي: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[2]؛ يزول عنه الالتباس؛ ويدرك أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً.

ونقول: إن الكلام عليه من جهات: **أولاها**: أنه لا يعرف ما له مما عليه، ومن أمارة ذلك استدلاله بآية آل عمران؛ ولا مستمسك له فيها؛ بل هي عليه، إذ ليست إلّا مثل سورة البيِّنة؛ كما يستهل بذلك سياقها مع أخواتها. قال جلّ ذكره: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

والمعنى: ما اختلف اليهود والنصارى في دين الإسلام؛ فقال قومٌ: إنَّه حق؛ وقال آخرون: إنَّه باطل؛ وقالت فرقة ثالثة: إنَّه مخصوصٌ بالعرب؛ إلّا من بعد ما علموا حقيقة الأمر جيداً؛ ولو كانت الأديان تُسَمَّى إسلاماً من قبله؛ لكان جوابهم عن قوله تعالى: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ أن يقولوا: نحن مسلمون؛ وديننا إسلام؛ لكنهم لم يقولوا ذلك؛ فصحَّ أنَّ دينهم لا يُسَمَّى إسلاماً.

والثانية: لو كان له نصيب من التوفيق؛ لأمكنه الاستدلال بغيرها؛ فإنَّ المسألة ذات اختلاف؛ وواجب الأمانة يقضي علينا بالبيان؛ ولا نتخذ من خطئه؛ برهانه عليه؛ ينبني على المغالطة. وقد ألَّف السيوطي[1] رسالة سماها: (إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة) أولها في صفحة ١١٥ من الجزء الأول من حاوي الفتاوي قال: اختلف العلماء هل يطلق الإسلام على كُلِّ دينٍ حق؛ أو يختص بهذه الملَّة الشريفة؟ على قولين؛ أرجحهما الثاني. وذكر له ثلاثة وعشرين دليلاً. وقال نقلاً عن السبكي[2]: أنَّ الآية الواحدة والآيتين؛ قد يمكن تأويلها ويتطرق إليها الاحتمال؛ فإذا كثرت ترقَّت إلى حدّ يقطع بإرادتها ظاهراً؛ ونفي

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي المصري ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ كان أبوه من رجال العلم والدين ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وبعض المتون في طفولته وبرع في علوم كثيرة وبلغت مصنفاته أكثر من أربعمائة منها في الفقه: الأشباه والنظائر وكتاب الحاوي في الفتاوي وفي الحديث جمع الجوامع وله مصنفات في التاريخ واللغة والنحو اشتهر بالابتعاد عن السلاطين والأمراء وقام برحلات للشام والحجاز واليمن والهند وقد نشبت بينه وبين معاصريه من العلماء عداوات منهم السخاوي فاعتزل الحياة العامة في الأربعين من عمره وتفرغ للتأليف وله مع عظمة مصنفاته مصنفات لطيفة منها: «منهل اللطايف في الكنافة والقطايف»، و«الرحمة في الطب والحكمة»، و«الفارق بين المؤلف والسارق»، توفي الإمام السيوطي سنة ٩١١هـ.

(٢) تقي الدين السبكي الحافظ المفسر النحوي اللغوي الأديب يلقب «بشيخ الإسلام وقاضي القضاة»، وهو والد الفقيه. برع في الكثير من العلوم وشرح المنهاج وكمّل كتاب «المجموع في شرح المهذب» وتخرّج على يديه كبار العلماء كالإسنوي والبُلقيني وابن النقيب المصري وابن الملقن وغيرهم توفي سنة ٧٥٦هـ.

الاحتمال والتأويل عنها اهـ. وذكر من أدلة القول الأول قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾[٦].

وأجاب[٧] عما عدا الأخيرة؛ بأنَّ في الملقبِّين بالإسلام أنبياء؛ وغيرهم؛ ضميمةٌ إليهم؛ والإسلام لا يطلق إلّا على أنبياء الأمم السالفة؛ وعلى هذه الأمة فقط؛ بشهادة أمثال قوله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[٨]. وعن الأخيرة[٩] بأجوبةٍ أمثلها: أنهم كانوا عازمين على الإسلام بمحمَّد؛ إذا جاء؛ من قبل مبعثه؛ لِمَا يجدونه في كتبهم من صفته والشهادة له؛ فكانوا مسلمين بالقوة من قبل ابتعاثه. ومن أقوى أدلَّة الاختصاص: إطباق الألسنة؛ نساءً ورجالاً؛ صغاراً وكباراً؛ من كافة الفرق؛

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٦) سورة القصص، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.
(٧) أي السيوطي.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٩) أجاب.

على تسمية من كان على دين موسى يهوديًا؛ ومن كان على دين عيسى نصرانياً؛ ومن كان على دين محمد مسلماً؛ لا يمتري في ذلك مسلم ولا كافر؛ ولا يهودي ولا نصراني؛ ولا غيرهم؛ بل لو قيل لليهودي: يا مسلم؛ لاشمأزَّ من ذلك. هذا ملخص تلك الرسالة بمزيد الاختصار. وفيها فوائد كثيرة؛ وقد اقتضبها العلامة ابن حجر الهيتمي في صفحة ١٣٠ من فتاويه الحديثية؛ ولكنه خرق العادة فأصرح هنا بالعزو إلى السيوطي[١].

والثالثة: أنَّ هذا كله؛ وقتما كانت الشرائع حقًّا قبل نسخها، أما بعد نسخها بمحمد ﷺ؛ فلا يطلق عليها الإسلام؛ قولاً واحداً؛ بإجماع المسلمين. وإنما خرقه المؤلف اليوم؛ بقوله الصريح في قبولها والاعتراف بحقيقتها إلى اليوم. ومن أظهر الأدِلَّة؛ على أنَّ اليهود والنصارى لا يُسَمَّوْن مسلمين؛ كما في سورة آل عمران السابقة؛ أوائل الفصل الثاني؛ وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

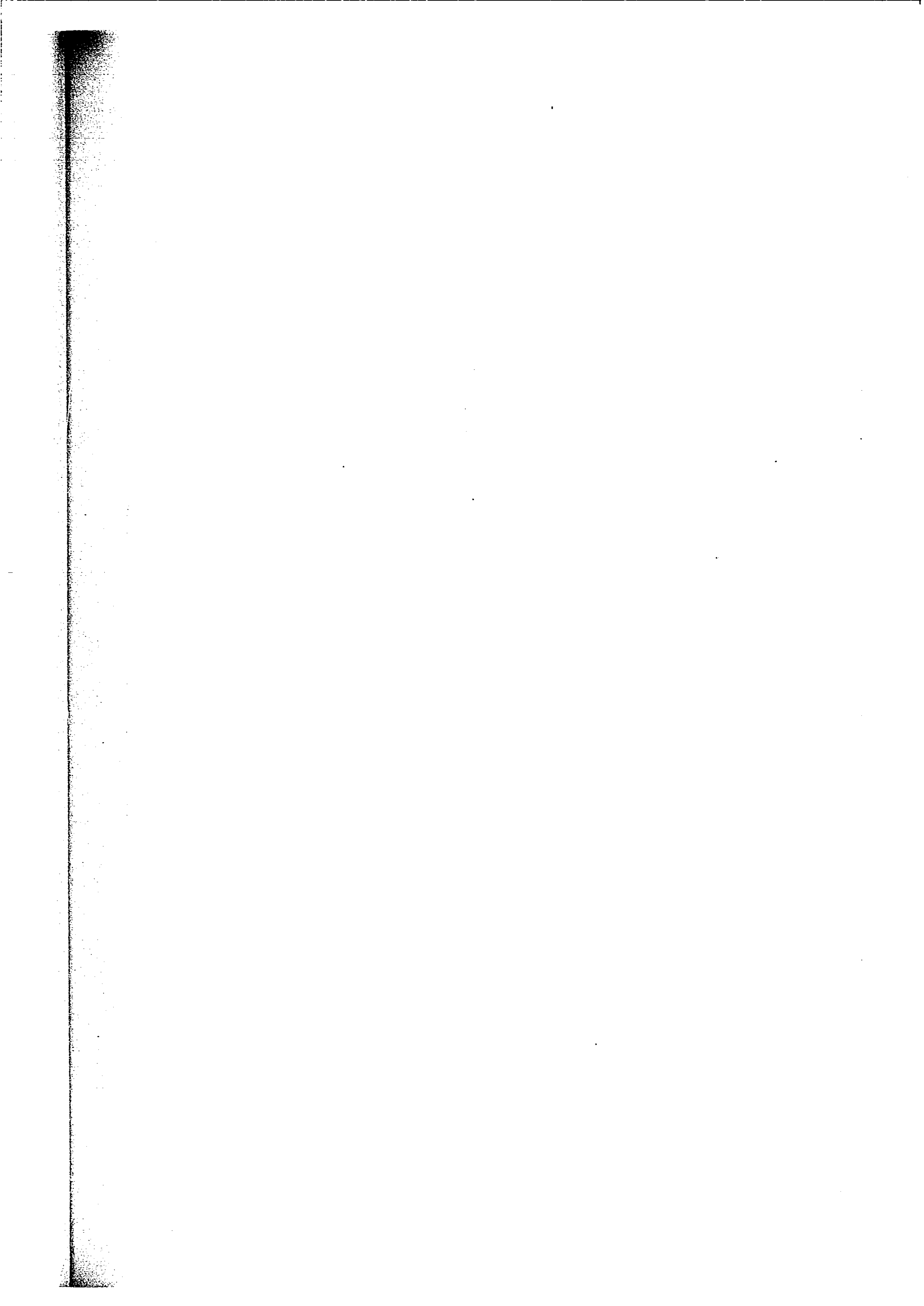


(١) لشد ما رأينا الإمام يحمل على النقل بدون عزو وقد رأيناه ينتقد كثيراً من العلماء على ذلك في مواضع مختلفة من كتبه ولكنه كان شديد الوطأة على الإمام ابن حجر الهيتمي صاحب تحفة الإرشاد.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.



الفصل السابع



الفصل السابع

قال في صفحة (١٠): إن القرآن قد وضع حريَّة الاعتقاد في الدين؛ وأن لا إكراه فيه، وجعل أساس الإيمان الاختيار فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ..﴾ إلى آخر ما ذكره. وقال في صفحة (٢١): فالقرآن لم يجبر أحداً على تغيير دينه، لأنَّ الدين المنزل على جميع الرسل؛ هو دينٌ واحد؛ وعلى هذه القاعدة سار المسلمون؛ واعترفوا بجميع الأديان؛ ولم يجبروا أحداً على تغيير دينه. وقال في صفحة (٢٧): والمسلمون عندما اعترفوا بجميع الأديان؛ واعتبروها؛ لم يَقْصُرُوا ذلك على اليهود والنصارى وحدهم، بل عمَّمُوا ذلك في جميع الأديان؛ وذلك بناءً على أمر الرسول؛ وعلى ما جاء في القرآن.

ونقول: أمَّا الإكراه في الدين؛ فلا إكراه؛ ولكن لنصوع الآيات وظهور البراهين: ﴿..قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]؛ فما بين الإنسان والإسلام إلّا نظرة؛ ثم تهجم العبرة، ولذا اعتبر صلح الحديبية (كما أسلفنا) فتحاً مبيناً، لأنَّ المسلمين اختلطوا بالمشركين؛ فوصفوه لهم؛ فألفَوْا فيه ضالتهم المنشودة؛ وصار نشر كفرهم إلى الطي؛ وتبين لهم الرشد من الغي؛ فاعتنقه الكثير منهم. ثم إن كلام المؤلف هذا؛ مؤكِّدٌ لما سبق من إصراره؛ على أن اتفاق أهل الكتاب معنا؛ على الإيمان بالله وحده واليوم الآخر مع العمل الصالح؛ هو الدينُ كُلُّه؛ وإن لم يغيِّروا شيئاً من فروع دينهم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

وفيه بعد هذا شيئان؛ لا ندري أيُّهما أشدُّ نكارةً وفحشاً من الثاني؛ وهما: إنكار الجهاد، وإنكار النسخ. فأما عن الأول؛ فما زال الله يأمر نبيَّه وأصحابه؛ بالصبر والعفو والغضِّ والإعراض؛ حتَّى استقرت قدمه بالمدينة؛ وأيَّده الله بعباده المؤمنين؛ وألَّف بين قلوبهم؛ بعدما كانوا عليه من الأحقاد والتراث؛ فبذلوا أنفسهم دونه؛ وقدَّموا محبَّته على محبَّة الآباء والأبناء والأزواج. ولمَّا كان ذلك؛ رمتهم العرب واليهود عن قوس العداوة؛ وشمَّرُوا لهم عن ساق الحرب؛ وصاحوا بهم من كل جانب؛ فكان أول ما أذِنَ لهم به الله من الجهاد؛ قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[1] ثم فرض عليهم قتال من قاتلهم؛ بقوله جل ذكره: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[2].

ثم لما نزلت سورة براءة؛ في سنة ثمان؛ أمروا بقتال من لم يسلم من العرب كافة؛ إلّا من عاهد؛ ولم ينقض شيئاً من عهده. ثم فرض عليهم الجهاد عامة؛ كما في قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[3]؛ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾[4] وقوله في سورة التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٤) سورة الصف، الآيات: ١٠ ـ ١٣.

﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١] وقال فيها أيضاً: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٢]. وقد أسلفنا هذه الآية مع بعض ما يتعلق بها في الفصل الثاني؛ وإنما أعدناها؛ لئلا يدَّعي مُدَّعٍ خصوصية الجهاد بالمشركين؛ لا عمومه لأهل الكتاب؛ فيدفع في صدورهم هذا النصل القاطع؛ ويلجمهم الحجر.

أما مثال قوله جلّ ذكره: ﴿... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣]؛ فقال بعضٌ: أنها منسوخة بآيات الجهاد؛ وقال آخرون: بل معناها أن الله لم يجر أمر الإيمان بالقسر؛ ولكن وكلهم على الاختيار. وقلّما يبقى الجحود عند تبيُّن الرشد الواضح المنار؛ الظاهر الآثار؛ بل لا يُتَصَوَّرْ الإكراه أصلاً في الإيمان؛ لأنه من أعمال القلوب. وإنما يتصور في الإسلام، لأنه من الأعمال الظاهرة، وقد ثبت أنه ﷺ أخذ الجزية من أهل آيلة[٤]؛ وهم من نصارى العرب، ومن أهل دومة الجندل[٥]؛ ومن المجوس؛ ومن يهود اليمن. وثبت أنه أنذر نصارى نجران بحرب؛ وكان وادي نجران مسيرة يوم للراكب؛ وفيه ثلاث وسبعون قرية؛ تضم مائة وعشرين ألف مقاتل. ولما قدم وفدهم عليه؛ سألوه عن عيسى؛ فقال: ما عندي فيه شيء يومي هذا؛ فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي فيه؛ فأصبح الغد وقد نزل عليه قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٤) أيلة مدينة إسلامية أنشئت على أنقاض أيلة الرومانية وأسسها الخليفة عثمان بن عفان وتقع أطلالها حالياً شمال غرب مدينة العقبة بالأردن.

(٥) تقع دومة الجندل حالياً في منطقة الجوف بالمملكة العربية السعودية شمال غرب مدينة سكاكا وكان لها تاريخ وقامت بها حضارات من قبل الميلاد وبها آثار تشهد بذلك منها قلعة مارد.

ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١] فأبوا أن يُقِرُّوا بذلك؛ فغدا عليهم رسول الله ﷺ من اليوم الثالث؛ مشتملاً في خميل له على الحسن والحسين؛ وفاطمة تمشي عند ظهره؛ للمباهلة؛ وله يومئذٍ تسعُ نسوة لم يَدْعُ واحدةً مِنْهُنَّ؛ فلمَّا رآه أسقف النصارى؛ (الذي لا راد بأمره؛ ولا معقِّب في نجران لحكمه)؛ أحجم عن المباهلة؛ ورضي بدفع الجزية، وهي أموال طائلة مُنَجَّمة في كل رجب وفي كل صفر.

والقصة ثابتة؛ لم يتركها أحد من المفسرِّين ولا من المؤرِّخين؛ وألفاظهم متقاربة في ذلك؛ وأنا أستعين حال رقم هذا؛ بزاد المعاد للعلامة ابن القيِّم، وهو لم يذكر علي بن أبي طالب؛ ولا يَضُرُّهُ عدم ذكره[٢]، لأن وجوده خامس الخمسة؛ ثابت عند غيره؛ ومنهم مسلم بن الحجاج. وقد أخذ العلامة ابن القيم؛ منه ومن أمثاله؛ أنَّ إقرار الكتابي لرسول الله ﷺ؛ بأنه نبي؛ لا يدخله الإسلام؛ ما لم يلتزم طاعته ومتابعته؛ فإذا تمسَّك بدينه بعد هذا الإقرار؛ لا يكون رِدَّة منه؛ لأنَّه لم يخرج عنه بمجرد ذلك الاعتراف. ونظيره أن حبرين[٣] سألاه عن ثلاث مسائل؛ فلما أجابهما؛ قالا: نشهد أنك نبي! قال: فما يمنعكما من اتِّبَاعِي؟ قالا: نخاف أن تقتلنا اليهود. فلم يَلْزَمْهُمْ الإسلام بمجرد تلك الشهادة.

أقول: وقد جرى مثل ذلك لهرقل، فقد صدَّقه كما في الصحيح[٤]؛ ولما

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٥٩ ـ ٦١.

(٢) يدل هذا الكلام على تسامح الإمام وعدم تعصبه وطلبه الحقيقة عند من يجدها عنده من العلماء دون التعليق على معتقده.

(٣) الحَبْرُ: العالِم وهو لقب يُطلق على عالم الدين وخاصة لغير المسلمين، مثل رئيس الكهنة عند اليهود، والبَطْرَك عند النَّصارى، وحَبْر الأمَّة: عالمها (وهو لقب ابن عباس ﷺ).

(٤) أي صحيح البخاري.

حاص أصحابه حيصة حُمُرُ الوحش؛ احتال ليثبت مركزه عندهم؛ ويؤيِّد سلطانه عليهم؛ بقوله: إنما أردت أن أختبر شدَّتكم في دينكم. قال ابن القيِّم: ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة؛ من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له بالرسالة؛ وأنه صادق؛ فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمرٌ وراء ذلك؛ وليس المعرفة فقط؛ ولا الإقرار فقط. بل المعرفة والانقياد؛ والتزام طاعته ودينه؛ ظاهراً وباطناً. وقال: ومن فوائد هذه القصَّة: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم؛ بل وجوب ذلك إذا ظهرت المصلحة؛ ولا يهرب من مجادلتهم؛ إلّا عاجز عن إقامة الحُجَّة؛ فليترك ذلك لأهله؛ وليُخْلِ بين المطيِّ وحاديها؛ والقوس وباريها؛ ولولا خشية الإطالة؛ لذكرنا من الحجج التي تلزم أهل الكتابين الإقرار؛ بما في كتبهم؛ وبما يعتقدونه منها؛ ما لا يمكنهم دفعه؛ ما يزيد على مائة طريق. ونرجو من الله إفرادها بمصنَّف مستقل.

ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك؛ فقلت له في أثناء الكلام: لا يتم لكم القدح في نبوَّة محمد إلّا بالقدح في الرب، ووجه ذلك: أنه إذا لم يكن محمد صادقاً؛ بل كان على ما تزعمونه؛ ملكاً ظالماً؛ والله يؤيده على الكذب والتحليل والتحريم؛ وفرض الفرائض ونسخ الملل؛ وضرب الرقاب وقتل اتباع الرسل؛ وسبي نسائهم وأولادهم؛ وغنم أموالهم وديارهم؛ ثلاثاً وعشرين سنة؛ ويهلك أعداءه؛ ويجيب دعاءه؛ وهو أحكم الحاكمين؛ وأرحم الراحمين. فقال: معاذ الله أن نقول إنه كاذب أو ظالم؛ ولكن لم يُرْسَلْ إلينا. فقلت: لا بدَّ من الاعتراف برسالته إليكم؛ إذ قد تواترت عنه الأخبار؛ بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين؛ أمِّيهم وكتابيِّهم؛ وقد دعا أهل الكتاب إلى دينه؛ وقاتل من لم يدخل منهم فيه؛ حتى أقرُّوا بالجزية والصغار؛ فبُهِتْ (اهـ مختصر بمعناه).

وقد حاك في نفسي شيء؛ مما كان من جنكيز خان؛ وحافده[1] هولاكو؛ وما سلَّطهم به الله على المسلمين؛ ولكن ابن القيِّم تنبَّه لمثل ذلك بقوله في

(١) حافده أي ولد الولد مثل الحفيد وقد ظننتها غلطة مطبعية.

المناظرة: ونحن لا ننكر أنَّ كثيراً من الكذابين قام في الوجود؛ وظهرت له شوكة؛ لكن لم يتم أمره؛ فلم تطل مدته؛ بل انمحق أثره وانقطع دابره اهـ.

ولكن بقي عليه أن يقول؛ بعد قوله: ثلاثاً وعشرين سنة: ثم بقي أتباعه؛ وانتشر أمرهم؛ ولا يزالون في زيادة من التكاثر والتزايد؛ مع توفر الدواعي لخنق دعوتهم؛ وحصد نبتتهم، فإنَّ الحُجَّة لا تتم إلّا بهذه؛ وقد أشار إليه بقوله: بل انمحق أثره إلخ. ولكنه مما لا تكفي الإشارة إليه؛ بل يتعيَّن الإصراح به، إذ هو ركن الحُجَّة الركين[١]. ولقد صدق وبرَّ في ذلك؛ إذ جاء التتار ليبيدوا الإسلام؛ فأخرج الله من أصلابهم من يتولاه؛ ولو لم يكن في نقضنا لأباطيل المؤلف وأضاليله في ذلك (الكتَيِّب)؛ سوى ما في هذا الفصل لكفى. كيف ولم نأت بما فيه من كلام ابن القيم؛ إلّا داية وقهرمانة[٢]؛ لتلك العرائس المَجْلُوَّة؛ والآيات المَتْلُوَّة.

ثم إن في استنكاره مشروعية الجهاد؛ مكابرة في المحسوس وإنكاراً للملموس، ومن ذا الذي ينكر ما كان من جهاده ﷺ؛ وجهاد أصحابه؛ للفرس والروم والعرب واليهود والنصارى، وفتح بلادهم، وغنم أموالهم؛ وأسر رجالهم؛ وإجبارهم إيَّاهم على أحد الأمرين: إما الإسلام وإما دفع الجزية. غير أنَّ ذلك الإجبار؛ وإن كان ثابتاً بالتواتر؛ فإنه لا يسمى إكراهاً؛ كما قررته في كتابي «صوب الركام في تحقيق الأحكام» لأنَّ الإكراه إنما يكون على شيء مُعَيَّن؛ بخلافه على التخيير، وهو في قضيتنا: ادفع الجزية؛ أو أسلم؛ وإلّا ضربت عنقك، فإن هذا لا يسمَّى إكراهاً؛ حتَّى لو قال اللصوص لرجل: ادفع لنا مائة أو

---

(١) نلاحظ في كتب الإمام وفي كثير من الأحايين توضيح الإمام ابن عبيد الله لبعض الأمور التي خفيت على كبار الأئمة والعلماء فقد رأيناه في بلابل التغريد يناقش الإمام الغزالي في بعض مفاهيمه ويعارض بعض آراء وتصرفات الإمام ابن حجر الهيتمي وغيره من الكبار ونراه هنا يوضح ما كان لا بدَّ أن يقوله ابن القيِّم ولم يقله.

(٢) الداية: المرضعة أو الحاضنة أو المولدة والقهرمانة: مدبرة شؤون البيت.

طلق امرأتك؛ وإلّا فعلنا بك كيت وكيت؛ فطَلَّق؛ نفذ طلاقه؛ لأنه لم يكره؛ وإنما خُيِّر فاختار، وهذه دقيقة يجهلها كثير من الناس[١]. وقد ألَّف العلامة ابن حجر الهيتمي رسالة فضفاضة في ذلك وسماها بـ «الانتباه لعويص مسائل الإكراه» وقال القاضي عياض في الشفاء؛ بعد أن ذكر جماعة أسلموا من أهل الكتاب؛ وقد قرع إسماع اليهود والنصارى؛ بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه؛ واحتجَّ عليهم بما انطوت صحفهم من ذلك عليه؛ وذمهم بتحريفه وكتمانه وليِّهم ألسنتهم ببيانه؛ ودعاهم إلى المباهلة؛ ليجعل لعنة الله على الكاذبين؛ فما منهم إلّا من فرَّ عن معارضته؛ ولو وجدوا خلاف قوله؛ لكان إظهاره أهون عليهم من بذل الأموال والنفوس اهـ.

وأخرى؛ وهي أنَّ فيه دسيسة نصرانية؛ فإنَّ النصارى يقولون: إنَّ الإسلام شرع القتال؛ الذي لم يشرعه الدين المسيحي؛ ويعيبون الإسلام بالشدَّة؛ ويثنون على دينهم بالتسامح.. ويقولون إنَّ من وصايا المسيح: (من ضربك على خدِّك الأيسر؛ فأدر له خدَّك الأيمن، ومن سخرك ميلاً فسر معه ميلين).

■ ونقول في الجواب:

أما أولاً: فلو لم يكن في المسيحية السلمية على ما يزعمون؛ إلّا ما يأتي من البوائق في الفصل التاسع؛ لكفى تفضيل الإسلام عليها؛ وإنْ رَمَوْه بكلّ قسوة؛ وحاشاه من ذلك.

وأما ثانياً: فقد نقل الشيخ محمد الطيبي عن الشيخ زيادة (الذي أكرمه الله باعتناق الإسلام؛ وألَّف في الرَّدِّ على النصارى؛ عن خبرة بدخيلة أمرهم) أنه قال: أما قتله الألوف في مغازيه الشريفة؛ فإنما كان للعاصين المتمردين؛ المعرضين عما فيه خيرهم وصلاحهم؛ ونجاتهم وسعادتهم في الدارين؛ من

---

(١) هذه من الدرر الفقهية والنفائس العلمية التي ينثرها الإمام في كتبه بين الحين والآخر والتي يسافر لمثلها طلبة العلم للأصقاع البعيدة والديار الغريبة.

شريعته الغراء؛ وقد كان يعظهم وينصحهم ويقيم عليهم الحُجَّة قبل القتال؛ ليردُّهم عن كفرهم إلى دينه المتين؛ فعندما يصرون على عدم قبول قوله؛ ويختارون الكفر والضلال؛ كانت الآيات تنزل على مقتضى الحال؛ تارة بمعاملتهم بالرفق؛ وتارة بأخذ الجزية؛ وتارة بالقتال؛ وأخرى بالإغلاظ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾[1].

وقد كان سيِّدنا موسى الكليم؛ والسيد يوشع بن نون؛ ومن بعده؛ يقتلون الألوف الكثيرة؛ مع أنهم لم يبتدئوا بالشر؛ كما تشهد به التوراة؛ ولم يُنْذَروا قبل القتال؛ حتَّى يتحقق منهم العصيان فيستوجبوا القتال؛ بل لمَّا سمعوا بقدوم بني إسرائيل؛ ليأخذوا تلك الأرض منهم ويستعبدوهم؛ نهضوا إلى المحاماة عن أنفسهم وأوطانهم؛ فكان سيدنا موسى ونوابه؛ يقتلون منهم الرجال والنساء والأطفال؛ ويحرقون بعضهم وبعض بلدانهم وحيواناتهم وكامل أمتعتهم؛ ومع ذلك لم يناف نبوَّتهم عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه كان بأمر الله. فلا يقارن بما فعله نبينا ﷺ بأمر الله أيضاً؛ بعد أن حذَّر وأنذر؛ وكان يقتصر على أقل مجزئ من قتل الرجال فقط (اهـ بتصرف يسير وزيادة قليلة).

وأما ثالثاً: فلا ينكر اشتمال الحكمة العالية على الأمر بالجهاد؛ إذ لا يخفى على أحد؛ امتلاء العالم؛ لعهد ابتعاثه ﷺ؛ بالظلم والجور؛ واضطهاد القوي للضعيف؛ وتَحَكُّم الرؤساء الدينيين من أهل الكتاب؛ في أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم؛ فجاء لتوطيد العدل وبث مكارم الأخلاق؛ كما في سورة النحل الجامعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[2]. وهل في الإمكان تدعيم هذه الأركان وقضاء هذه الحاجة بغير السيف؛ وقد قال أبو الطيب:

مَن اقتَضَى بِسَوَى الهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ ... أجَابَ كُلَّ سُؤالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

وشهد القرآن؛ بأنَّ اليهود كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ كما في سورة المائدة؛ حسبما سبق في الفصل الثاني؛ من قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[١]. أفليس من رحمة الله بهم خاصة؛ وبالعالم أجمع؛ أن يُطَهِّر تلك اللعنة؛ ويقيم الأوَدْ؛ ويثقف العوج؛ ويأمر بالمعروف وينكر المنكر؟ فإن قيل: بلى؛ فلا بدَّ للاستعانة على ذلك؛ من الصفيح الأبلج؛ والقويم الأملج[٢]. فما كان الجهاد للإكراه في الدين؛ إذ لا يُتَصَوَّرْ الإكراه على أعمال القلوب؛ وإنما كان الجهاد لتأييد العدل؛ ودفع الظلم المتعذر بدون ذلك. أما تلك الآية المأثورة عن عيسى عليه السلام؛ فلا تشرِّف دينه؛ وإن ورد في آي الكتاب العزيز؛ من الحلم والصفح وكظم الغيظ؛ ما يغمرها. لكن المقام يقتضي التفصيل؛ كما أشار إليه القرآن؛ بأمثال قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[٣]؛ وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٤]؛ وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٥].

فالعفو إنما يحسن مع الكرام؛ لأنه يقتلهم؛ بخلافه مع اللئام. وقد أكثرت في منظومي ومنثوري؛ من الفرق بين ما عامل به النبي ﷺ قريشاً يوم الفتح؛ وما عامل به قريضة؛ يوم نزلوا على حكم سعد بن معاذ وقلت في نهج البردة[٦]:

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩. (٢) كناية عن السيوف.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٤١.

(٦) قصيدة نسج البردة للإمام ابن عبيد الله عارض فيها قصيدة البردة للإمام البوصيري وجاءت في حوالي المائة والثمانين بيتاً وتميزت بالألفاظ الجزلة والمعاني القوية؛ وقد اعتاد الإمام قراءتها صباح كل جمعة في مجلس يحضره أولاده وزواره ومحبوه؛ واستمرت قراءتها بمنزله بسيئون إلى اليوم؛ يقوم بذلك أحفاده وتنتهي الجلسة قبل الجمعة بساعة؛ ويشكر على استمراريتها أحفاده الذين أنشؤوا مركز ابن عبيد الله الثقافي ويديره منهم محمد بن حسن السقاف.

والـعـفـوُ مَـعْـدِنُـهُ الـهَـادِي أَلَـمْ تَـرَهُ ... فِي الـفَـتْـحِ مِـنْ وِرَاشِ الـقـومِ بِـالـنِّـعَـمِ

وَفِي قُـرَيْـضَـةَ لَـم يـأتِ الـعـشَـيِّ لـهُـمْ ... إلا وَقَـدْ غُـودِرُوا لـحْـمـاً عَـلَـى وَضَـمِ

أَمَضَى النَّبِيُّ عَليهِمْ مَا قَضَاهُ لَهُمْ ... سَـعْـدٌ فـأعْـدَمَ مـنـهـم كُـلَّ مُـحْـتَـلِـمِ

وأشْـكَـلَ الـحَـالُ بـيـن الـبَـاحِـثِـينَ ولا ... إشْـكَـالَ لـلـفـرقِ بـيـن الـلـؤمِ والـكَـرَمِ

فـالـعـفـوُ أقـتـلُ شَـيءٍ لـلـكـريـمِ كَـمَـا ... لَـمْ يَـشْـفِ دَاءَ لـئـيـمٍ غـيـرَ سَـفْـكِ دَمِ

فـالأمـرُ مُـفْـتَـرِقٌ لـونـاً وَمُـتَّـفِـقٌ ... إذْ كَـانَ لـلـفِـرْقَـتَـيـنِ الـقَـتْـلُ عَـنْ أَمَـمِ

فليست تلك الآية المأثورة عن المسيح؛ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم؛ بالتي تميِّز شريعته؛ إذ لا يصلح أن يتأسَّس بها دين؛ ينزل الناس منازلهم؛ ويضع الحقوق مواضعها؛ وينصف المظلوم من الظالم. فليست بدعامة عز؛ ولا بقاعدة إنصاف؛ وغاية ما تمكن أن تكون؛ بذرة تصوف؛ وغراس فلسفة؛ يأخذ بها قوم تجرَّدوا عن العواطف؛ ولم يبق عندهم قدر للدنيا؛ ولا محلَّ للخلق. ولو تأثَّر الناس في ذلك؛ لأفضى إلى الخراب؛ وانتهى إلى الانقراض.

وقد اشتدَّت الديانة المسيحية في منابذة الغنى والأغنياء؛ وجاء في الإصحاح السادس من إنجيل متَّى: لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. وقال في الإصحاح العاشر منه: لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم؛ ولا مزوداً للطريق؛ ولا ثوبين؛ ولا أحذية ولا عُصِي. وقال في التاسع عشر منه: الحق أقول لكم؛ إنه يعسر أن يدخل غني في ملكوت الله؛ وأقول لكم أيضاً: إنَّ مرور جمل من ثقب إبرة؛ أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله.

أما الدين الإسلامي فإنه دين العز والشرف والمجد والأنَفْ[1]؛ ولله العزة

---

(١) وقد بسط المحقق في الفصل ٥٥ من كتابه الزاد إلى بلد خير العباد؛ بسط القول في تأثير الإسلام على العرب والعالم وتحدث عن مستقبل الإسلام ومما جاء في هذا الفصل: ولقد أدرك الغربيون المتأخرون حقيقة الإسلام وتأثيره على البشر ومن ذلك ما قاله الباحث الإنجليزي، لايتنر، في معرض كلامه عن رسول الله ﷺ: ولقد صار دينه الواسطة =

ولرسوله وللمؤمنين؛ فرجاله كما قال شاعر المعرَّة:

كانت تَضُمُ رِجَالاً بينَ أعْيُنِهِمْ   مَعَاطِسٌ لَمْ تُذَلِّلْ عِزَّهَا الخُطَمُ

إلّا أنهم كانوا أعِزَّةً على الكافرين؛ أذِلَّةً على المؤمنين؛ أشِدَّاءَ على الكفار؛ رُحَمَاءُ بينهم. وهو دين العمران والحضارة؛ يأمر بعمارة الدنيا كما يأمر بعمارة الدين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾[1]؛ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2]؛ وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3]؛ وما قال: لا

= لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام. (انتهى). هذا وقد شمل الاعتراف بفضل الإسلام كل المفكرين العالميين وليس الأوروبيين فقط، فهذا مثلاً الزعيم الهندي جواهر لال نهرو الذي يقول: والمدهش حقاً أن نلاحظ أن هذا الشعب العربي الذي ظل منسياً أجيالاً عديدة، بعيداً عما يجري حوله، قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأساً على عقب، إنَّ قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وإفريقيا، والحضارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم، هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ! إن الإسلام هو الباعث الفكرة لهذه اليقظة العربية بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط. ويقول نهرو: كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين، وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين، وهكذا ولد في العالم مبدأ ديموقراطي جديد، وإنك إذ تقارن رسالة الأخوة الإسلامية هذه بحالة النصرانية المنحلة، تعرف مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها، لا على العرب وحدهم، ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب. (انتهى). ويقول الكاتب السويسري روجيه دوباسكويه عن الإسلام: الإسلام تصديق للرسالات السابقة، وخلاصة الإنعام الإلهي على البشرية، وهذا ما يعطيه قدرته المدهشة، على دمج المؤمنين من مختلف الأصول العرقية، في مجتمع واحد، مع احترامه لخصوصياتهم. وبيَّن باسكويه كيف انتشر الإسلام في بلاد البلقان، دون إكراه، وكيف أسلمت أندونيسيا وماليزيا وغيرها من البلاد، بواسطة التجار المسلمين، بعكس ما فعله الإسبان عند احتلالهم الفلبين مثلاً، حيث حاربوا الإسلام، كما حاربوه من قبل في إسبانيا، وفي شمال إفريقيا، وعملوا على إضعافه ومحاربة نفوذه.

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.   (٢) سورة الجمعة، الآية: ١٠.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٧.

يبيعون ولا يتَّجِرُون. وفي ذلك كثرة من الأمثال. وإنما أطنب في التزهيد؛ وقَلَّلَ من هذا؛ وُكُولاً إلى الداعية. وقد صرَّح الفقهاء بأن الحِرَفْ والصنائع من فروض الكفايات. وقال إمام الحرمين: إنَّ الاشتغال بفرض الكفاية؛ أفضل من الاشتغال بفرض العين. ومع ذلك؛ قالوا: لا يجب أمر الناس بذلك؛ لأنَّ سائق الضمير أبلغ من غيره، ولكن إذا قَصَّرَ أهلُ بلدٍ في شيءٍ منها؛ افترض جهادهم.

أما ما يزعمه النصارى من التسامح في دينهم[1]؛ فهيهات هيهات، وتأمَّل فرق ما بين آيات إنجيل[2] لوقا ١٤ و٢٥ و٢٦ وهي: وقال لهم يسوع: إن كان

---

(١) خصص المحقق الفصل ٥٣ من كتابه الزاد إلى بلد خير العباد للحديث عن التسامح في الإسلام وبسط القول فيه وأورد كلام المستشرقين ومما جاء في هذا الفصل: وقد عرف العالم كله، قديمه وحديثه، روح التسامح الإسلامية والأخلاق الإسلامية السامية، في السلم والحرب، وأشادوا بها، فقد قال المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون ما يلي: وكان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم.. فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم. ويقول لوبون أيضاً: ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم.

(٢) يتكوّن الكتاب المقدس لليهود والنصارى من قسمين رئيسيين يسمى الأول بالعهد القديم وهو التوراة وقد كتب بالعبرية والقسم الثاني سمي بالعهد الجديد أو الإنجيل ومنه أربعة كتب رئيسية كتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا وعرفت بأسمائهم؛ وكتبت باللغة اليونانية. ويعتقد المسيحيون أنها كتبت بإلهام الروح القدس وليست من تأليف بشر. وهناك عدد آخر من الأناجيل. وفي بحث للدكتورة سارة العبادي نشرته في كتاب عنوانه التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة عن دار طيبة الخضراء استوفت فيه البحث عن تاريخ الإنجيل وبيّنت أسباب التحريف ومواقع التناقض. كما نشر ملحق الرسالة لجريدة المدينة الجمعة ١٦ شعبان ١٤٣٠ استعراضاً للكتاب المهم (المسيح مفسراً)، والذي ألفه البروفسور بارت =

أحدٌ يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه؛ وامرأته وإخوته وأخواته؛ حتى نفسه أيضاً؛ فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً. وما في الباب ١٩ منه: أمَّا أعدائي؛ أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم؛ فأتوا بهم إليَّ هنا؛ واذبحوهم قدَّامي. وما في الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى ونصه: لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض؛ ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً؛ فإنِّي جئت لأفرِّق الإنسان ضدَّ أبيه؛ والابنة ضدَّ أمها؛ والكنَّة[١] ضد حماتها.

تأمل الفرق بين هذه الآيات؛ وبين قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]. وقوله في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٣]. وقوله في المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[٤].

لهذا فأنا في شك من نسبة تلك الآيات إلى عيسى عليه السلام؛ ولا سيّما مع التعارض؛ فلعلها مما دخله التحريف الثابت في الكتابين؛ حتَّى بإقرار اليهود

= إيهرمان، أستاذ الدراسات الدينية بجامعة (نورث كارولينا) الأمريكية، وكشف فيه بمنهجية علمية، أن معظم أجزاء العهد الجديد في الإنجيل، الموجود بين أيدي الطوائف المسيحية، مزورة، وفسر المؤلف حرصه على تأليف كتابه، رغم أنه كان في شبابه أصولياً مسيحياً، يعتقد أن الإنجيل كلمة الله المعصومة، ويحفظ أجزاء منه، بأن رؤيته لتصرفات بعض المتدينين غير الإيجابية، وانتشار التعاسة والعذاب في العالم المسيحي، شككه بمعتقدات، يردد القساوسة أنها من كلمات الله في الإنجيل. (انتهى النقل).

(١) الكنة: امرأة الابن.

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨.

والنصارى؛ كما حققه الشيخ زيادة؛ والشيخ رحمة الله الهندي وغيرهم. إلا أنَّ النصارى؛ على اعترافهم بوقوع التحريف الفاحش في كتابهم؛ لا يسمونه باسمه غالباً؛ وقد يقرون به بالاسم الصريح؛ ولكن يزعمون أنه في مواضع قليلة. ومما أكد شكّي في آيات الإنجيل المشار إليها؛ وصف أتباع المسيح ﷺ؛ بجملة من الأوصاف الممدوحة في القرآن؛ كقوله في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[١]؛ ولو لم يكن في دفع زعمه إيمان اليهود والنصارى[٢]؛ سوى هذه الآية؛ لكفت؛ إذ كيف تلتئم عداوتهم للمؤمنين؛ وهم في زعمه[٣]؛ منهم؟ نعوذ بالله من الخذلان. وقوله في سورة الحديد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[٤].

وأما عن الثاني: (وهو إنكار النسخ)؛ فإنما تبع فيه أهل الكتاب؛ حيث منعوه؛ قالوا: لاقتضائه البداء[٥] على الله جل شأنه؛ وهو محال. والردُّ عليهم؛ وفي ضمنه الرَّدُّ عليه؛ لأن كلامهم وإياه في هذا؛ واحدٌ من جهتين: **الأولى**: أنهم اعترفوا بوجود النسخ عندهم؛ بالمعنى الذي يتنزَّه عنه الباري عز وجل؛ كما ستعرفه مما يأتي، **والثانية**: ليس معنى النسخ أن الله تعالى أمر أو نهى؛ وما كان يعلم عاقبة ذلك؛ ثم بدا له رأي نسخ الأول؛ تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) الخطاب هنا موجه لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٣) الضمير يعود لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٥) البَدَاءُ استصواب شيءٍ عُلِمَ بعد أنْ لم يُعْلَم.

وإنما النسخ في اصطلاح المسلمين: بيان مدة انتهاء الحكم العملي. فالله يعلم من قبل الحكم الأول؛ بأنه يبقى معمولاً به إلى الوقت الفلاني؛ ثم يعقبه حكمٌ آخر؛ يغايره أو يناقضه للحكمة؛ فكما أنَّ لله حكماً في تبديل مواسم الزمان؛ من صيف وخريف؛ وشتاء وربيع؛ وليل ونهار؛ كذلك له حكمة بالغة في نسخ الأحكام؛ إمَّا جليَّة وإما خفيَّة؛ نظراً إلى أحوال المكلفين والزمان والمكان. وقد أطال الغزالي الكلام في المستصفى على النسخ؛ إلّا أنه لم يذكر الحكمة فيه؛ مع أنه من القائلين بها[١]؛ حسبما قدمنا في الفصل الثالث. وقد كذَّب الله اليهود في قولهم: بمنع النسخ واستحالته؛ حيث يقول في آل عمران: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٢]. ومعلوم أنَّ بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم؛ فإذا كان كُلُّ الطعام حِلًّا له؛ فحرَّمت بعضه التوراة؛ فهو النسخ بعينه، قرره العلامة ابن القيِّم في صفحة ٤٠٠ من «إغاثة اللهفان». وأيضاً؛ فقد كان يعقوب عليه السلام متزوجاً بأختين: ليا وراحيل، وهما بنتا خاله لأبان[٣]؛ وقد جاء في التوراة؛ تحريم الجمع بين الأختين؛ فإما أن يكون نسخاً لما كان عليه إسرائيل؛ وإما أن يكون على الحرام، وحاشاه من ذلك. أما النصارى فقد اضطرب كلامهم في المسألة. وجاء في الآية (١٨) من الباب ٥ من إنجيل متَّى: أنَّ المسيح عليه السلام يقول في حق التوراة: فإنِّي الحق أقول لكم؛ إلى أن تزول السماء والأرض؛ لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل. وقد نسخ الحواريون بعد المشاورة التامة؛ جميع الأحكام العلمية للتوراة؛ حتَّى لم يبق إلّا أربعة وهي:

---

(١) أشرنا فيما سبق ما استدركه الإمام على ابن القيم وهو يعود هنا فيستدرك على الغزالي.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥.

(٣) لابان بن بيوتويل هو خال النبي يعقوب وزوج بنتيه ليا وراحيل.

حرمة قرابين الأوثان؛ والدم؛ والمخنوق؛ والزنا. بل لم يبق إلّا حرمة الزنا فقط.

وكان تحريم السبت أبدياً في شريعة موسى عليه السلام؛ وقد جاء في الآية (١٦) من الباب الخامس من إنجيل متّى: ومن أجل ذلك طرد اليهود عيسى وطلبوا قتله؛ لأنَّه كان قد فعل تلك الأشياء يوم السبت؛ وقال بولس[١] في الباب الثامن من رسالته إلى أهل فولاسايس: فلا يدينكم أحد بالمأكول أو المشروب؛ أو بالنظر إلى الأعياد أو الأهلة والسبوت؛ فإن هذه الأشياء ضلال. فنسخ السبت وغيره. وكان الختان أبدياً في شريعة موسى؛ فنسخه الحواريون[٢] في عهدهم؛ كما هو مشروح في الباب (١٥) من أعمالهم، بل شدَّد مُقَدّسهُمْ بولس في نسخه تشديداً بليغاً. وقال في الباب الخامس من رسالته إلى أهل غلاطية: وها أنا بولس؛ إنكم إذا اختتنتم لن ينفعكم المسيح بشيء؛ لأنِّي أشهد أن كل مختون يُلْزَمْ بإقامة جميع أحكام الناموس، إنَّكم إن تزكيتم بالناموس؛ فلا فائدة لكم من المسيح؛ وسقطتم عن نيل النعمة؛ فإنَّ الختانة لا منفعة لها في المسيح؛ ولا للقلفة[٣]؛ بل الإيمان الذي يعمل بالمحبَّة. وفي الآية ١٢ من الباب الرابع من الرسالة العبرانية: لأنَّ الكهانة لما بُدِّلَتْ؛ بُدِّل الناموس[٤] أيضاً بالضرورة.

فالنسخ موجود عند أهل الكتابين؛ بالمعنى الفاحش؛ الذي يتنزَّه عنه الباري جل وعلا؛ وهو البداء؛ بشهادة الآية ١٨ من الباب الرابع من الرسالة العبرانية وهي: لأنَّ نسخ ما تقدم من الحكم قد عرض؛ لما فيه من الضعف وعدم الفائدة.

---

(١) بولس الطرسوسي هو أعظم شخصية عند النصارى بعد المسيح ويسمونه بولس الرسول وله رسائل يعتبرونها مقدسة.

(٢) الحواريون هم تلاميذ عيسى عليه السلام وقيل إنهم اثنا عشر من بني إسرائيل.

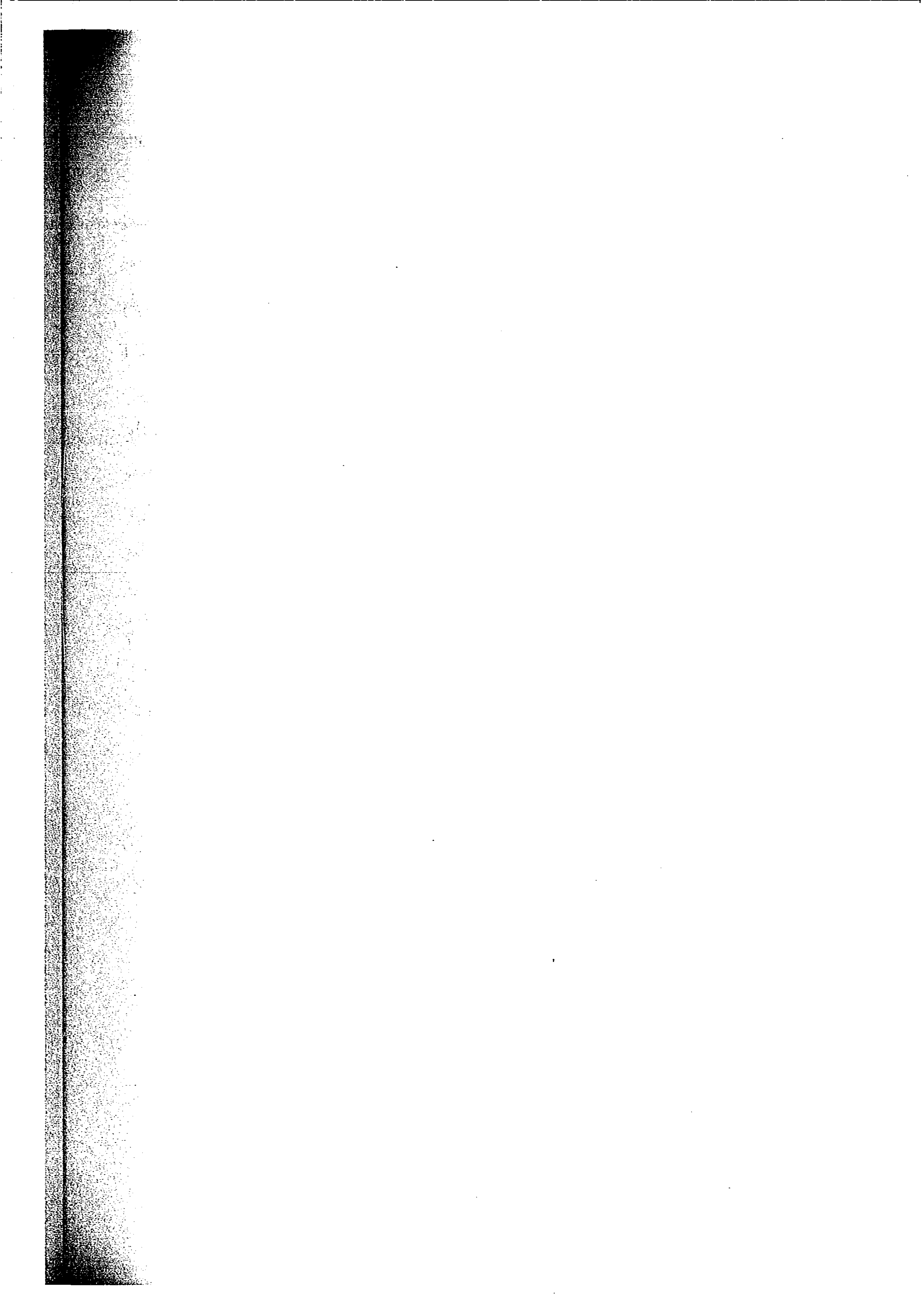
(٣) القلفة رقيق فضفاض خالٍ من الشعر وغني بالألياف العضلية يغطي جزءاً من رأس القضيب وهي بمعظمها خصائص تسمح لها بأن تستجيب لتغيير طول القضيب أثناءها ويتم إزالتها في عملية.

(٤) الناموس: يقصد به الوحي أو الشريعة.

فقوله من الضعف إلى آخره . . ؛ هو الأمر الفاحش القبيح. أما عندنا؛ فالنسخ موجود؛ والفائدة موجودة من الابتداء إلى الانتهاء؛ ولا يجوز عدمها ولا ضعفها في حال من الأحوال؛ حسبما سبق في تفسير النسخ.

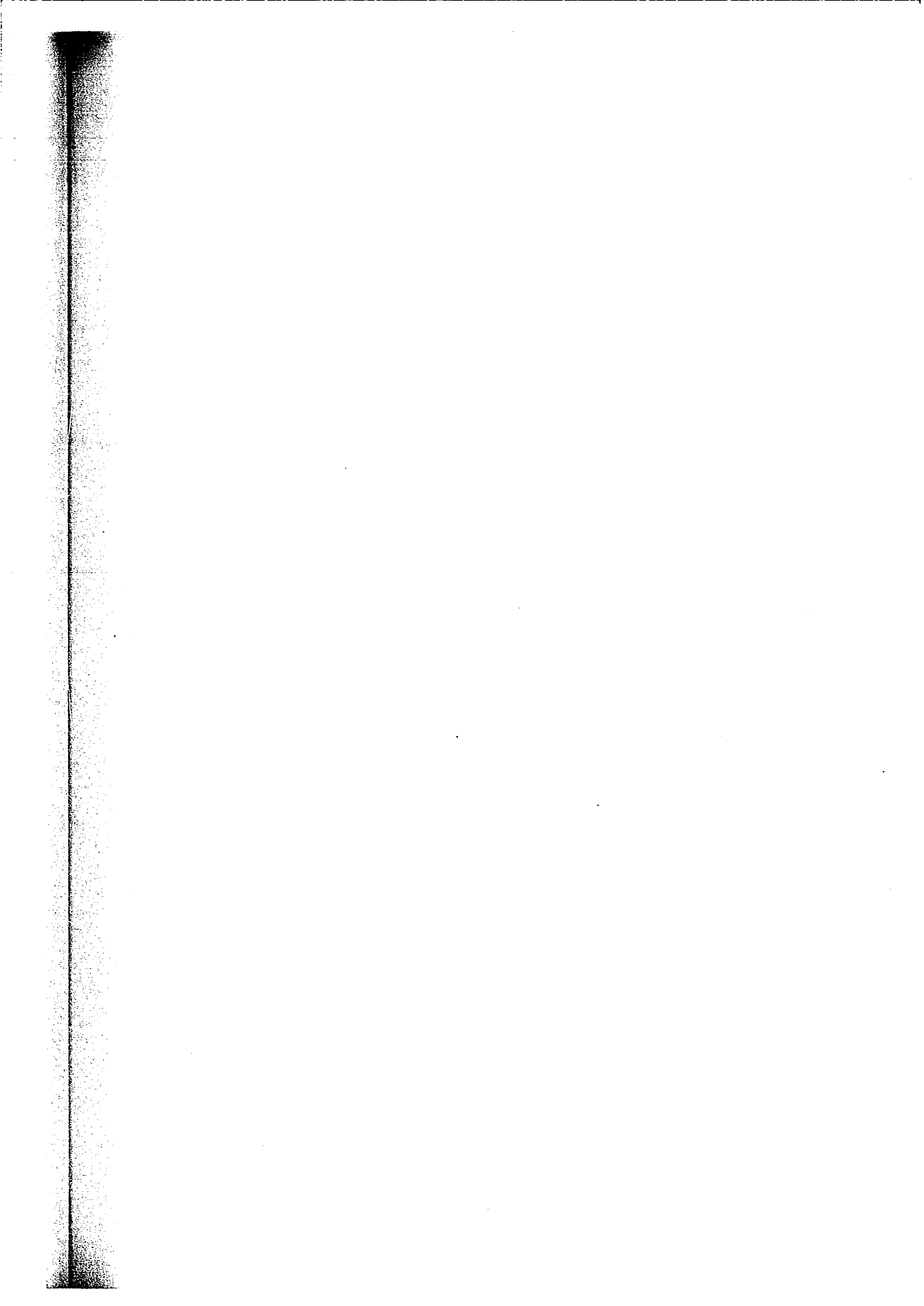
ومن جراء هذا تعرف سقوط استدلال المؤلف بما ذكره في صفحة ١٩ من قول الإنجيل: ما جئت لأنقض الناموس بل لأجدده. لأن غرضه منه إنكار النسخ، وقد تبيَّن لك بالأدلة الكثيرة؛ وجوده عند أهل الكتابين. ومن رجع إلى كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي وكتاب «البحث الصريح» للشيخ زيادة الذي أكرمه الله بالإسلام؛ عن تروٍّ وبصيرة؛ في القرن الحادي عشر؛ وجد ما يبرد الغليل ويشفي العليل.







الفصل الثامن



الفصل الثامن

قد تقرر اندفاع أهل الكتاب عن الإيمان بالله والدار الآخرة؛ ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ ويعزِّروه وينصروه ويتبعوا النور الذي أنزل معه؛ بما لا يحتاج إلى مزيد؛ إلّا حيث يحتاج وجود النهار إلى دليل. ولكنا نقول للمؤلف: فهل تؤمن بما بين أيدي اليهود اليوم من التوراة؛ وفيها أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه؛ وحملتا بالزنا من الأب؟ كما هو مُصَرَّحٌ به في الباب التاسع من سفر التكوين؟ وأنَّ يهودا بن يعقوب عليهما السلام؛ زنى بثامار؛ وهي زوجة ابنه؛ وحملت منه بالزنا؛ وولدت توأماً؛ هما فارض وزارح؛ كما هو مُصرَّحٌ به في الباب الثامن والثلاثين من السفر المذكور؟ والحال أن داود وسليمان وعيسى عليهم السلام؛ كلهم من أولاد فارض؛ كما هو مُصَرَّحٌ به في الباب الأول من إنجيل متَّى. وأنَّ داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا؛ وحملت منه بالزنا؛ فأهلك زوجها بالمكر؛ وأخذها زوجة له؛ كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني. وأنَّ سليمان بن داود عليهما السلام ارتَدَّ في آخر عمره؛ وصار يعبد الأصنام؛ ويبني لها المعابد؛ كما هو مصرَّحٌ به في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول؟ وأنَّ هارون عليه السلام بنى معبداً للعجل؛ وأمر بني إسرائيل بعبادته؛ كما هو مصرَّحٌ به في الباب الثاني والثلاثين من سفر الخروج؟

فإن آمنت بها[1]؛ فقد كذَّبت بما أنزل على محمد ﷺ؛ من براءة هؤلاء

(١) الخطاب لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم؛ في كتابه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

أما نحن فلا نعتقد في الأنبياء إلّا ما يؤثر عن الإمام الغالب من قوله في وصفهم: فاستودعهم أفضل مستودع؛ وأقرَّهم خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب؛ إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف؛ قام بدين الله خلف؛ حتى أفضت كرامة الله إلى محمد ﷺ؛ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً؛ وأعز الأرومات مغرساً. وهل تصدق بقول الله في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

ومتى صدَّقت بهذا[2]؛ فهل يمكن إصرارك على القول بإيمانهم ونجاتهم معه؟ ثم هل تؤمن بما بين أيدي النصارى اليوم من الإنجيل؛ الذي هو مجموع كتب العهد الجديد؛ بما فيها من الابن والأب والتثليث؛ الذي لا نجاة لأحد عندهم بدون اعتقاده نبياً كان أو غير نبي. قال المقريزي: والنصارى فرق كثيرة، وكلهم متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم اهـ.

فإن صدقتهم في ذلك؛ فشأنك ونفسك؛ وقد قال الباري جل شأنه في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3]. وإن لم تصدِّقهم؛ فاعلم أنهم لم يؤمنوا بعيسى؛ فضلاً عن محمد. ولو آمنوا بعيسى

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) الخطاب لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

لآمنوا بمحمد؛ لأننا نحن المسلمون؛ لم نؤمن بأولئك الأنبياء؛ إلّا كما أخبرنا بهم محمد صلى الله عليه وعليهم؛ فهو عليهم شهيد؛ ونحن عليه شهداء:

شَهَادَةٌ عَنْ يَقِينٍ إذْ دَلائِلُهَا مَحْسُوسَةٌ لَمْ نَهِمْ فِيهَا ولَمْ نَضَمِ[1]

وقد رُوِيَ أنَّ أحد النصارى قام يجادل المسلمين؛ ويقول لهم: قد اتفقنا نحن وأنتم على الاعتراف بعيسى؛ ولكننا لا نُقِرُّ بمحمد؛ فَمَنِ الأولى؟ المتفق عليه؛ أو المختلف فيه؟ فكاد أن ينقطع بعضهم؛ حتى انتصب إليه تلميذ صغير؛ فقال له: أعِدْ عليَّ ما قلت؛ فقال له: هل تؤمن بعيسى؟ فقال: إن كان الذي أخبرنا به محمد؛ وأنه مُبَشِّرٌ بِهِ؛ فنعم؛ وإلّا فلا. فانقطع النصراني.

وقال الإمام الرازي في الفصل الثاني من كتابه المسمي بـ «المطالب العالية»: وأما دعوة عيسى عليه السلام؛ فكأنَّه لم يظهر لها تأثير إلّا في القليل؛ وذلك لأنا نقطع؛ بأنه ما دعا إلى الدين الذي يقول به هؤلاء النصارى؛ لأن القول بالأب والابن والتثليث؛ أقبح أنواع الكفر؛ وأفحش أقسام الجهل. ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس؛ فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم؛ فعلمنا أنه ما كانت دعوته البتَّة إلى هذا الدين الخبيث؛ وإنما كانت دعوته في التوحيد والتنزيه. ثم إن تلك الدعوة ما ظهرت البتَّة؛ بل بقيت مطويَّة غير مرويَّة؛ فثبت أنه لم يظهر لدعوته إلى الحق أثر البتة. اهـ.

وقال الإمام القرطبي في الباب الثالث من كتابه: «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»: إنَّ الكتاب الذي بيد النصارى؛ الذي يسمونه الإنجيل؛ ليس هو الذي قال الله فيه على لسان رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2]. وأطال في الاستدلال على ذلك؛ إلى أن قال: فظهر من هذا البحث؛ أنَّ الإنجيل المُدَّعَى لم ينقل متواتراً؛ ولم يقم دليل على عصمة

(١) من قصيدة نهج البردة للإمام ابن عبيد الله.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٣ ـ ٤.

ناقليه؛ فإذاً يجوز السهو والغلط عليهم، وهذا كافٍ في رَدِّه؛ ولكنا مع ذلك نعمد إلى مواضع منه؛ يتبين فيها تهافت نقلته؛ ووقوع الغلط في نقله، ثم نقل تلك المواضع. وقوله لم ينقل متواتراً؛ فيه تنازل وإرخاء العنان للخصم؛ بل لا إسناد لهم فيه البتة؛ لا بتواتر ولا آحاد. وقد كان إسناد التوراة منقطعاً قبل زمان يوشيا بن أمون، والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة؛ لا اعتماد عليها يقيناً؛ ومع ذلك فقد ضاعت قبل حادثة بختنصر[١]؛ وفي حادثته انعدمت التوراة؛ وسائر كتب العهد الوثيق عن العالم رأساً. ولما كتب عزرا هذه الكتب؛ على زعمهم؛ ضاعت نسخها وأكثر نقولها في حادثة أنتيوكس[٢]. ومن رأى الكتاب ٤٥ و٥٦ من كتاب حزقيال[٣] رأى كثرة اختلاف الأحكام بينه وبين سفر العدد. وحزقيال من أتباع التوراة؛ فلو كانت التوراة التي في زمانه موافقة للتوراة الصحيحة لما خالفها. وفي مواضع من التوراة؛ أنَّ الأبناء تؤخذ بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال. وفي الآية ٢٠ من الباب ١٨ من كتاب حزقيال ما نصه: الابن لا يحمل إثم الأب؛ والأب لا يحمل إثم الابن؛ وعدل العادل يكون عليه؛ ونفاق المنافق يكون عليه. وهذا هو الحق الذي نزل القرآن بموافقته. وقال أحد فضلاء المسيحيين؛ وهو دكتر سكندر كيدس: ثبت لي بظهور الأدلّة الخفية ثلاثة أمور جزماً: **الأول**: أنَّ التوراة الموجودة ليست من تصنيف موسى، **والثاني**: أنها كتبت في كنعان أو أورشليم، **والثالث**: لا يثبت تأليفها قبل سلطنة داود؛ ولا بعد زمان حزقيال؛ بل نسب تأليفها إلى زمان

---

(١) نبوخذ نصر أو بختنصر (٦٠٥ ـ ٥٦٣ق.م) أشهر ملوك الدولة البابلية الحديثة قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة على منطقة بلاد الشام ودمّر عدة ممالك منها مملكة يهوذا، وسبى الكثيرين من اليهود إلى بابل، وقام ببناء الجنائن المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا السبع.

(٢) أنتيوكس هو ملك ملوك الفرنج الذي فتح أورشليم.

(٣) سفر حزقيال هو أحد أسفار العهد القديم. وهو السفر الرابع من القسم الرابع المسمى (الأنبياء).

سليمان عليه السلام؛ يعني قبل ألف سنة من ميلاد المسيح؛ أو إلى زمان قريب منه؛ في الزمان الذي كان فيه هومر الشاعر[١]. فالحاصل أن تأليفها بعد خمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام اهـ. وجاء في الباب الأول من سفر العدد: أنَّ الصالحين للقتال من أبناء عشرين فما فوقها؛ من غير اللاويين[٢] كانوا أكثر من ستمائة ألف رجل. فإذا ضُمَّ إليهم اللاويون؛ والإناث والذكور الذين لم يبلغوا العشرين؛ من جميع الأسباط؛ لم يقلوا عن ألفي ألف وخمسمائة ألف[٣]. وهذا غير صحيح لأمور كثيرة؛ منها: أنَّ عدد بني إسرائيل حينما دخلوا مصر؛ كان سبعين فقط بين ذكر وأنثى؛ كما في سفر التكوين وسفر الخروج وسفر الاستثناء. وقد اتفق مؤرخوهم ومفسروهم؛ على أنَّ مدة إقامة بني إسرائيل بمصر؛ كانت مائتين وخمس عشرة سنة. فهل تعقل كثرة التناسل من سبعين؛ إلى هذا الحد؟ مع الاضطهاد وقتل الأبناء؟ هذا ما لا يكون. فتعيَّن افتراء تلك الآية وأمثالها. وقد أنكر ابن خلدون هذه الأعداد الهائلة في مقدمة تاريخه؛ وقال: إنَّ الذي بين موسى وإسرائيل[٤]؛ إنما هو ثلاثة آباء؛ على ما ذكره المحققون؛ ويَبعُدْ أن يتشعَّب النسل في أربعة أجيال إلى مثل ذلك العدد اهـ. ثم أيَّةُ أرضٍ تضُمُّهم؛ وأيُّ زادٍ يكفيهم بعد مخرجهم من البحر؟

وقال المقريزي في المجلد الأول من خططه: تزعم اليهود أنَّ توراتهم بعيدة عن التخليط، وتزعم النصارى أن توراة السبعين[٥] التي بأيديهم لم يقع فيها

(١) هوميروس شاعر ملحمي إغريقي يعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإلياذة والأوذيسة عاش في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

(٢) مفرده لاوي وهو أحد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر وقد عهد إلى هذا السبط شؤون الخدمة الكهنوتية في المجتمع اليهودي. وسفر اللاويين أحد الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة ويشكل جزءاً من التوراة.

(٣) يعني مليونين وخمسمائة ألف.

(٤) إسرائيل هو يعقوب عليه السلام.

(٥) وهي التوراة التي ترجمها سبعون شيخاً لبطليموس واتفق عليها اثنان وسبعون حبراً من أحبارهم.

تحريف ولا تبديل، وتقول اليهود فيها خلاف ذلك. وتقول السامرية[1]: إنَّ توراتهم هي الحق؛ وما عداها باطل. وليس في اختلافهم ما يزيل الشك؛ بل ما يقوّي الجالبة له. وهذا الاختلاف بعينه؛ واقع بين النصارى في الإنجيل. وذلك أن له عند النصارى أربع نسخ؛ مجموعة في مصحف واحد؛ أحدها إنجيل متَّى؛ والثاني لمرقس؛ والثالث للوقا؛ والرابع ليوحنا. قد ألف كلّ من هؤلاء الأربعة إنجيلاً على حسب دعوته في بلاده؛ وهي مختلفة اختلافاً كثيراً؛ حتَّى في صفات المسيح ﷺ؛ وأيام دعوته؛ ووقت الصلب الذي يزعمونه في نسبه أيضاً. وهذا الاختلاف لا يُحْتَمَلْ مثله؛ ومع هذا فعند كلّ من أصحاب مرقبون؛ وأصحاب ابن ديصان؛ إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل. ولأصحاب ماني إنجيل على حدة؛ يخالف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره؛ ويزعمون أنه الصحيح وما عداه باطل. ولهم أيضاً إنجيل يُسَمَّى إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس؛ والنصارى وغيرهم ينكرونه. وإذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب؛ كما قد رأيت؛ ولم يكن للقياس والرأي مدخل في تمييز حَقِّ ذلك من باطله؛ امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم؛ ولم يُعَوَّل على شيء من أقوالهم فيه. اهـ.

وقال صاحب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: إنَّ هذه التوراة التي بأيدي اليهود؛ فيها من الزيادة والتحريف والنقصان؛ ما لا يخفى على الراسخين في العلم؛ وهم يعلمون قطعاً أنَّ ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله على موسى؛ ولا في الإنجيل الذي أنزله على المسيح. وكيف يكون في الإنجيل الذي أنزله على المسيح؛ قصة صلبه؛ وما جرى له؛ وأنه أصابه كذا وكذا؛ وأنه قام من القبر بعد ثلاث؛ وغير ذلك؛ مما هو من كلام شيوخ النصارى. وقد ذكر غير واحد من علماء الإسلام ما بينها من التفاوت والزيادة والنقصان والتناقض؛ لمن أراد الوقوف عليه. ولولا الإطالة وقصد ما هو أهم منه؛ لذكرنا طرفاً كبيراً اهـ بلفظه.

---

(١) مجموعة عرقية دينية تنتسب إلى اليهود وتختلف عنهم حيث إنهم يتبعون الديانة المناقضة ويعتمدون أن توراتهم غير محرفة وأن ديانتهم هي ديانة بني إسرائيل الحقيقية.

فإن قيل: قد ورد في القرآن مدح النصارى والإنجيل؛ وأن فيه هدىً ونوراً؛ وأن التوراة يحكم بها النبيُّون، **أجيب**: بأن ذلك المدح منصرف إلى الإنجيل السالم من التحريف؛ والنصارى المنعقدة آراؤهم على ذلك الإنجيل الصحيح، وهو مفقود من زمان قديم. أما المخالفون؛ فلم يرد فيهم إلّا أمثال قوله جلَّ وعلا في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]. وكذلك يقال في التوراة؛ وكله قبل النسخ؛ أما بعده؛ فلا اعتبار لغير التوحيد والمواعظ.

وإذا تقرر لديك ما يوجد في الكتابين من التحريف والتخليط ضربة لازب[٢]؛ سقطت الثقة لا محالة بها؛ وكيف يصحُّ إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم على ما تقرَّرَ فيها. وقد أخرج البخاري في عدة مواضع من صحيحه بألفاظ متقاربة عن ابن عباس: كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ؛ أحدث؛ تقرأونه غضاً؛ وقد حدثكم أنَّ أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيّروه؛ وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله؛ وما هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم. لا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم؛ فأنتم بالطريق الأولى أن لا تسألوهم.

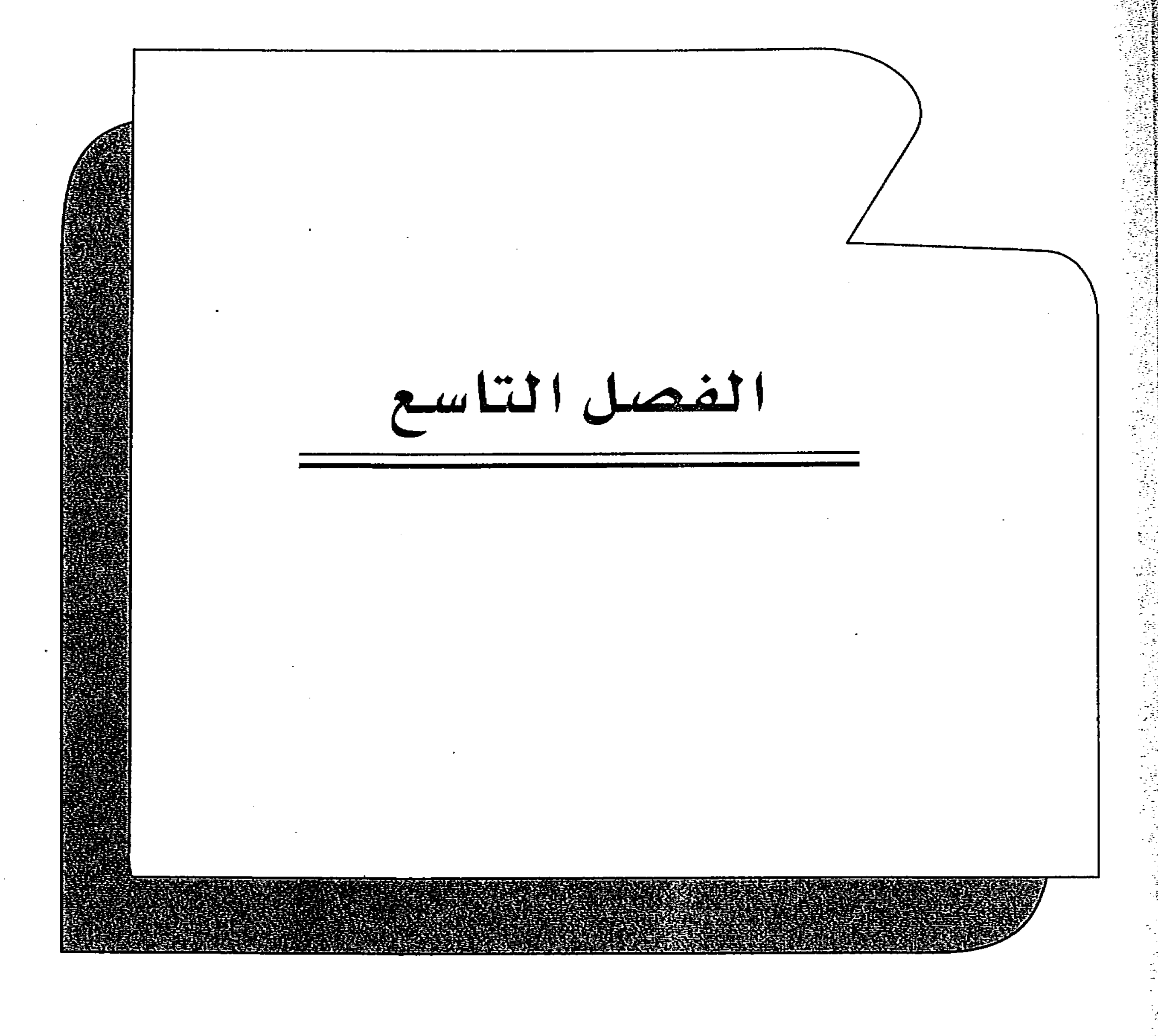
وفي كتاب الاعتصام من الصحيح: أنَّ معاوية يقول في حقِّ كعب الأحبار: إنَّه كان من أصدق هؤلاء المحدثين؛ الذين يحدثون عن أهل الكتاب؛ وإنْ كُنَّا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. ومع هذا فقد أخرج له البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود. وقد استعنت في هذا الفصل بـ (إظهار الحق) وبما نقله الطيبي عن كتاب الشيخ زيادة. ومن أحبَّ التزيُّد فليرجع إليهما؛ فإنَّ فيهما ما تنشرح به الصدور؛ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. ثم إن كثيراً من متقدمي النصارى لا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

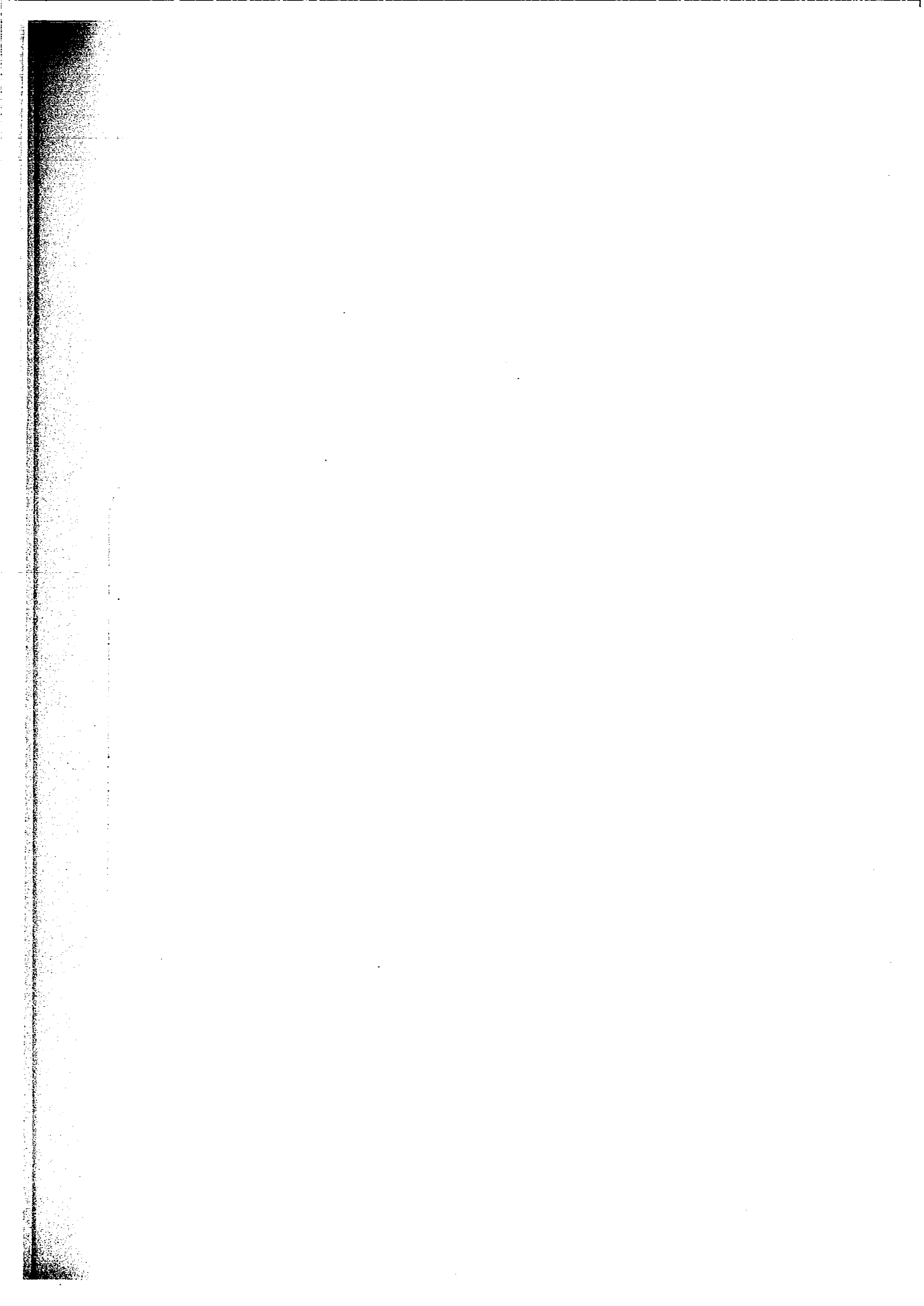
(٢) أي لازماً أو مؤكداً.

يقولون بالتثليث؛ ويؤولون ما جاء من الأب والابن في الإنجيل؛ بأنَّها أوصاف جاءت للتبجيل؛ كما يقال عند الاحترام: هذا أبي أو روحي؛ وعند المحبة: هذا ابني؛ فإذا قيل لهم: قد نصَّ الإنجيل على أن عيسى إله؟ قال المحققون منهم: لقد سُمي موسى في الإصحاح السابع؛ إلهاً؛ ولم يطلق عليه ذلك؛ والله أعلم.





الفصل التاسع



الفصل التاسع

قال المؤلف في صفحة (١١): إن القرآن قد فتح باباً جديداً للرقي العقلي والعلمي؛ ودعا إلى البحث والفكر والعلم؛ والحكم بطريق الحُجَّة والبرهان. وهو بذلك أثبت أن الدين نصير العلم؛ في حين كان الناس يظنون ويعتقدون؛ أنَّ العلم والدين لا يجتمعان؛ وأنهما عدوّان لدودان إلخ. ونقول: لقد علَّمك هذا الكلام من هو أشد لحياً منه؛ وقد قارن الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده[1]؛ بين أصول النصرانية وأصول الإسلام؛ فقال: أصل الأصول عند عامة المسيحيين؛ لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت؛ أنَّ الإيمان منحة لا دخل فيها للعقل؛ وأنَّ من الدِّين الذي يجب الإيمان به؛ ما يناقض أحكام العقل؛ وأنه لا يسوغ التفَهُّم في الدين؛ إلّا من رؤساء الكنيسة؛ وأنَّ من خطر له ما يعارض أمور الإيمان المقررة؛ وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر؛ ولم تجر في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة؛ حتَّى لقد تقرر في نفوس المسيحيين؛ أنَّ السلامة في التسليم، وتقرر لديهم: أنَّ الجهالة أمُّ التقوى، بينما أصل الإسلام

---

(١) الإمام محمد عبده من رواد الإصلاح والتجديد الإسلامي في مصر وهو تلميذ جمال الدين الأفغاني رافقه في مصر وزامله في إقامته بباريس وأسس معه مجلة العروة الوثقى ثم افترق عنه وعاش بلبنان حتى عفا عنه الخديوي عباس حلمي فعاد لمصر وعيّن كأول مفتٍ لمصر مستقل عن مشيخة الأزهر واستمر على منصب الإفتاء حتى وفاته سنة ١٣٢٣هـ له مجموعة فتاوى وشرح لنهج البلاغة وكتاب الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية وغيرها من الكتب.

الأول؛ النظر العقلي؛ حتى لقد اتفق أهل المِلَّة الإسلامية؛ إلّا قليلاً ممن لا يُنْظَرْ إليه؛ على أنه إذا تعارض العقل والنقل؛ أخذ بما دلَّ عليه العقل. وكان في النقل طريقان؛ إما التفويض في علمه إلى الله؛ وإمَّا التأويل؛ مع المحافظة على قوانين اللغة؛ حتي يتفق معناه مع ما يقرر العقل. أما النصارى فقد كانوا أعداءً للعلم. ولما خافوا ظهور العلم والفلسفة بسعي تلاميذ ابن رشد؛ ولا سيَّما في جنوب فرنسا وإيطاليا، أنشأوا محكمة التفتيش القاسية؛ وكان من وسائل التحقيق عندها؛ أن يُعَذَّب المتهم بأنواع العذاب؛ إلى أن يعترف بشيء من العلم الذي تلقاه؛ فيصدر الحكم الغاشم عليه. وقد أحرقت في مدة ثماني عشرة سنة؛ أولها سنة ١٤٨١م؛ عشرة ألف ومائتين وعشرين شخصاً بالنار؛ وهم أحياء. وحكمت على ستة آلاف وثمانمائة وستين شخصاً بالشنق بعد التشهير. وحكمت على سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بالعقوبات المختلفة. ولكن كان المنع إغراء؛ فهاجت الأفكار لتلَمُّس آثار ابن رشد؛ وإنارة العقول بها؛ وكل من وقعت عليه تهمة بشيء من تلك الأفكار؛ رفع إلى تلك المحكمة؛ حتى وقع الرعب في قلوب أهل أوروبا؛ وقال بعضهم لكثرة من يرد حياض المنايا منهم: يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه. وقد انتهى عدد من أحرق بالنار حياً إلى سنة ١٨٠٨م نحواً من مائتي ألف؛ عدا من شنق أو عوقب بأفانين العقاب. وصدر الأمر في سنة ١٤٩٢م بأنَّ كلَّ يهودي لم يقبل المعمودية؛ في أي سن كان؛ وعلى أيِّ حال كان؛ أن يترك بلاد إسبانيا قبل شهر تموز؛ ومن رجع عوقب بالقتل والمصادرة. وفي فبراير سنة ١٥٠٢م صدر الأمر بطرد من لم يقبل المعمودية من المسلمين؛ بشرط أن لا يسلك طريقاً يؤدِّي إلى بلاد إسلامية؛ فكان النفي إلى القتل؛ أو الموت بالتعب والعُرِيِّ والجوع. ومن مساوي آل عثمان على كثرة محاسنهم؛ أنَّ السلطان محمد الفاتح؛ لم يصخ سمعاً لصراخ المسلمين؛ مما يلاقون من إسبانيا في الأندلس؛ بل قيل إنه اتفق مع ملكها فرديناند؛ ثم مع زوجته إيزابيلا؛ على تمكينها من إزالة بني الأحمر؛ آخر الدول العربية بالأندلس؛ إزاء ما قامت له به رومية؛ من خذلان الإمبراطورية الشرقية؛ عند مهاجمته

لمقدونيا ثم القسطنطينية؛ فلم يكن ثمنها بالرخيص؛ ولكن بضياع ألوف الألوف من مسلمي الأندلس؛ قتلاً وتنصيراً. وعند هذا يقام ميزان المصالح؛ الذي أشبعت القول فيه بـ «بضائع التابوت»[١]. ظهر القول بكروية الأرض؛ في أول خلافة بني العباس؛ فلم تتحرك له شعرة في بدن. ولكنه أحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية؛ لا يتسع لما وقع بسببه من الحوادث المحال. وفي سنة ١٨٦٤م نشر البابا منشوراً؛ فيه لعن كلّ من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية؛ أو جواز أنْ يُفَسِّر أحدٌ شيئاً من الكتب المقدسة؛ على خلاف ما ترى الكنيسة؛ أو يعتقد أحدٌ بأنَّ المرءَ حرٌّ فيما يعتقد ويدين به ربَّه. وفي سنة ١٨٧١م غضب البابا على أستاذ في إحدى الكليات؛ لرأيٍ ارتآه لا يروق للحزب الكاثوليكي[٢]؛ فحَرَمَهُ وطلب عزله؛ لولا أنَّ عزيمة بسمارك[٣] كانت أشد؛ فلم يُنفِّذ أمر البابا؛ وأبقى الأستاذ على حاله. وكان البابا مرةً ألزم إمبراطور ألمانيا؛ بأن يقف ثلاثة أيام حافياً أمام قصره؛ في أيام الشتاء؛ يطلب منه الغفران. ورفس البابا برجله مرةً تاج ملك جرمانيا؛ وهو جاثٍ بين يديه في طلب الغفران. وربما يزعم زاعم؛ تخصيص هذا التَعَنُّت القاسي بالكنيسة الكاثوليكية. وجوابه: إن البروتستانت[٤] أنفسهم ذكروا في تاريخ الإصلاح؛ أنَّ عقوبة الإعدام استمرت

---

(١) بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت كتاب موسع في أربعة مجلدات ضخمة وما زال مخطوطاً.

(٢) المسيحية الكاثوليكية هي أكبر طوائف المسيحية ومركزها الفاتيكان مقر بابا الكاثوليك، وتتبعها الكنيسة الأرمنية والمارونية والقبطية وغيرها.

(٣) أوتو فون بسمارك (١٨١٥ ـ ١٨٩٨) رجل دولة بروسي كان داهية في السياسة وقام بتوحيد الولايات الألمانية وإنشاء الإمبراطورية الألمانية ثم عزله الإمبراطور فيلهلم ويلقب بالمستشار الحديدي.

(٤) البروتستانتية هي أحد مذاهب المسيحية. نشأت على يد مارتن لوثر في ألمانيا وقد انشقت الكنيسة البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، وتتفرع منها من ٢٨ ـ ٤٠ إلى كنيسة ومذهب. والبروتستانتية مذهب عدد من الدول الأوروبية مثل الدانمارك وبريطانيا والنرويج والسويد.

على من يخالف معتقد الطائفة البروتستانية؛ وقد أمر الزعيم الثاني؛ واسمه كالفان بإحراق سيرفيت في جنيف[١]؛ لأنه كان يعتقد أنَّ الدين المسيحي دخل عليه شيء من الابتداع؛ فكان جزاؤه أنْ شُوِيَ وهو حيٌّ بالنار. (انتهى بلفظ من كلام الأستاذ الحكيم مع زيادات كثيرة).

وإنه لطشة من غدير؛ مما نقله عنهم الشيخ؛ رحمه الله؛ في كتابه؛ إظهار الحق. ومنها القوانين التي سنها البروتستانت ضد الكاثوليك. (١) أن يرث الكاثوليكي تركة أبوية (٢) لا يشتري أرضاً بعد ما يجاوز عمره ١٨ سنة؛ إلّا أن يرجع إلى مذهبهم (٣) لا يكون لهم مكتب (٤) لا يشتغل بالتعليم وإلّا حُبِسَ مؤبداً (٥) على كلٍّ منهم مضاعفة الخراج (٦) من صلَّى من قِسِّهم فعليه ٣٣٠ روبية؛ ومن صلَّى؛ وهو غير قسيس فعليه ٧٠٠ روبية؛ وسجن سنة (٧) من أرسل ولده إلى خارج إنكلترا للتعليم؛ يقتل هو وولده وينهب ماله (٨) لا يُعطى لهم منصب في الدولة (٩) من لم يحضر يوم الأحد أو العيد في كنيسة البروتستانت؛ تؤخذ منه ٢٠٠ روبية شهرياً (١٠) من ذهب منهم عن لندن خمسة أميال؛ يؤخذ منه ١٠٠٠ روبية (١١) لا تنفذ عقودهم إلّا على طريقة كنيسة إنكلترا (١٢) لا تسمع استغاثة أحد منهم عند الحكام.. إلى آخر ذلك القانون المظلم؛ الذي لا أصدق بمثله؛ لولا أنَّ الراوي ثقة؛ فالعهدة عليه. وقد استغرق في أمثال هذه الموبقات؛ نحواً من ثمان صفحات؛ أولها صفحة ٢٠٤ من الجزء الثاني. ولئن كان البحث خاصاً بما كان من قطع طريق العلم؛ فإنَّ هذا لا يخلو عنه؛ واستطرد القلم بما سواه.

ثم قال الأستاذ الحكيم[٢]: وربما يقولون إن البروتستانت قاموا يطالبون

---

(١) ميغيل سيرفيت طبيب وعالم دين إسباني؛ لم يقبل عقيدة الثالوث المقدس في شخص واحد، فكتب وجهات نظره، فألقت محاكم التفتيش بإسبانيا القبض عليه، ثم هرب ثم قبض عليه وأعدم في جنيف بسويسرا بتهمة الهرطقة.

(٢) أي الإمام محمد عبده.

بالحرية؛ في فهم الكتب المقدسة؛ وبإبطال سلطة البابوات على غفران الذنوب؛ والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية، فيقال: لكنهم لم يبطلوا شيئاً من أصولهم؛ سوى الكف من غُلُوِّ الرؤساء وسلطتهم؛ التي أكدت لهم الآيتان ١٦ و١٩ من إنجيل متَّى وهما: أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات؛ فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تُحِلُّه على الأرض يكون محلولاً في السماء. وقوله: من الحق أقول لكم؛ كل ما تربطونه على الأرض؛ يكون مربوطاً في السماء؛ وكل ما تحلونه على الأرض؛ يكون محلولاً في السماء. فكان الرئيس الكهنوتي يقول للشخص: لست بمسيحي؛ فيصير كذلك. بينما القرآن العزيز يقول للنبيِّ ﷺ؛ لمَّا قال في يومِ أُحدٍ؛ وهو يسلت الدم عن وجهه: «**كيف يفلح قوم دموا وجهَ نبيِّهم؛ وهو يدعوهم إلى الله؟**»: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

وما زالت المسيحية محرومة من التقَدُّم؛ حتى فصلت السلطة الملكية عن السلطة الدينية شيئاً فشيئاً؛ ومعناه أنَّ الحرب استمرَّ بين السلطتين تفيئة الحروب الصليبية؛ ولم تهزم الثانية تماماً إلّا في سنة ١٢٨٨ هجرية؛ لكنها بمجرد ما ضعفت؛ تقذف الأوروبيون على العلم والاختراع؛ مشياً على القاعدة المطَّردة في قوله:

مُنِعتُ شيئاً فأكثرتُ الوُلوعَ بِهِ   أحبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ مَا مُنِعَا

منذ ذلك اطمأن العالم؛ وانتشر العمران؛ وتقدمت أسواق المدينة؛ برغم معاطس البابوات؛ الذين لم يتسامح لهم الملوك بعدها؛ إلّا بما تحت أيديهم من الكنائس؛ وما لفَّها مما يجري مجراها، ولا يزال أولئك البابوات يحرقون الأرم من الغيظ؛ ولكنه غيظ الأسير على القد، أو غضب الخيل على اللجم. فالنصرانية لم تتقدم في العلم؛ إلّا بعد أن سرت لثام الدين وكشفت قناعه؛ وكسرت قيوده

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

وأغلاله؛ وعادت لا دين لها[1]؛ إلّا أنها اندفعت بحردٍ شديد؛ وشوق هائل إلى العلوم؛ بما كانت محرومة منها آباداً طويلة؛ وبما أراقت في سبيل الوصول إليها من الدماء الغزيرة؛ بخلاف المسلمين؛ فإنَّهم لمَّا كان العلم حلالاً لهم من أول وهلة؛ اطَّرحوه؛ وضيَّعوا ما تركه آباؤهم لهم من التراث الضخم الهنيء فيه؛ وتخاذلوا بالأغلب عنه؛ لأنهم لم يذوقوا حرارة الشغف به والشوق إليه، والمبذول مملول؛ ولكن لا غرابة أن يعودوا إليه؛ لا بصفة أن دينهم يحثهم عليه؛ بل لتهافتهم على الاقتداء بالأوروبيين؛ في كل جليل وحقير، وأحرَّ بهم إذا احتذوا مثالهم؛ أن لايدلوهم إلّا على التافه والقشور؛ وأن لا يعطوه رخيصاً؛ بل بنفس الثمن الذي بذلوه؛ وهو الانسلاخ من الدين[2].

فما زال رجال العلم وحماة المدنية الأوروبية يتسلَّلون عن الدين؛ حتى لقد صارت الأمة الفرنسية من أشدِّ الناس عليه؛ مع أنها كانت تُدْعَى بنت الكنيسة. وقال أحد رؤساء البروتستانت في خطبة ألقاها سنة ١٩٠١م: إذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً؛ سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني)؛ أو الكثلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي)؛ فالقرن الموفي للعشرين (يعني الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً. وقد جاء في كلام هذا الخطيب؛ ما يصرِّح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنىً آخر؛ ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين؛ فإن وُفِّق للنجاح؛ زال الخلاف إن شاء الله بين العلم والدين؛ بل بين المسيحية والإسلام[3]. وقد أخذت أكثر هذا باللفظ تارة؛ وبالمعنى أخرى؛ بلفظ

---

(١) ربما نجد في كلام الإمام محمد عبده هنا حجة لمنتقديه الذين ادعوا بأنه كان جسراً لنقل الأفكار الأوروبية إلى المسلمين وإضعاف الشريعة الإسلامية والجرأة على أحكامها وقد قرأت أثناء تصفحي للإنترنت مقالات كثيرة في هذا الشأن مدعمة بنقد لمقالات الشيخ وفتاويه وآرائه التي كتبها وبيان ما فيها؛ وهو شيء كثير؛ مع هجومه المتكرر على الأزهر. ولعل الإمام ابن عبيد الله لم يطلع إلّا على الجانب المضيء من القمر.

(٢) وهذه الرؤية صائبة استشفت المستقبل من زمن بعيد وقد رأيناها تحدث في عصرنا الحديث.

(٣) هذا الكلام النفيس بدأت بشائره تظهر بكثرة الداخلين للإسلام من الأوروبيين كما توقع =

من مقالات الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده؛ في الموازنة بين النصرانية والإسلام؛ وهو موجود بإسهاب في إظهار الحق؛ ولكن كانت عبارة الأستاذ أعذب[١]؛ فلخصتها ونظمتها في سياقة واحدة. ومن تَذَوَّقَهَا؛ عرف حقَّ المعرفة؛ أنها هي التي يدندن حولها المؤلف؛ وعليها يحوم.

وَلَكِنْ بَيْنَ مَا يَصْطَادُ بَازٌ وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّنْبُورُ فَرْقُ

وتخيلها: أنَّ المتمدنين من الأوروبيين اليوم؛ انسلُّوا من النصرانية؛ انسلال الشعرة من العجين؛ ورضوا بأن يكون ابن المُقَفَّع[٢] أحزم منهم وأركن، فلقد ذكر ابن خلكان في صفحة (١٥٠) الجزء الأول من تاريخه[٣]: أنه جاء إلى عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس؛ وقال له: إنَّ الإسلام قد دخل قلبي؛ وأريد أن أسلم على يدك؛ فقال: ليكن ذاك بمحضر من القُوَّاد ووجوه الناس؛ فإذا كان الغد فاحضر! ثم حضر طعام عيسى عشِيَةَ يومه؛ فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس[٤]؛ فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت على غير دين[٥]. وفي رضا عيسى بتأخير الإسلام؛ ما لا يحتاج إلى إنكاره؛ لأنه معلوم.

= الإمام ابن عبيد الله في بلابل التغريد دخول إحدى الأمم الأوروبية الكبرى الإسلام فينتشر بواسطتها انتشاراً كبيراً كما أوردت في كتابي الزاد لبلد خير العباد في الفصل رقم ٥٥ بحثاً موسعاً عن مستقبل الإسلام موثقاً بقول كثير من كبار المستشرقين والعلماء الأوروبيين.

(١) تتميز كتابات الشيخ محمد عبده بجمال الأسلوب وقوة العبارة ويشابهه في ذلك شيخه جمال الدين الأفغاني وقد استمتعت لذلك بمقالاتهم المختارة من صحيفة العروة الوثقى في كتاب لا أذكر عنوانه الآن.

(٢) عبد الله بن المقفع من الأدباء المميزين عاصر الدولة الأموية والعباسية وكان مجوسياً فأسلم نقل إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وله الأدب الصغير والأدب الكبير وقتل سنة ١٤٢هـ.

(٣) هذه الأرقام تعود للنسخة التي اعتمدها الإمام ولا شك أنها قديمة أو ربما مخطوطة ولا أدري موقعها في الطبعات الجديدة.

(٤) صوت المجوس عند أكلهم دون تحريك لسانهم أو شفاههم.

(٥) كأنما ابن المقفع أراد استعجال الإسلام وعرف أن تصرف عيسى فيه مخالفة.

لكن المؤلف[١] يجعلهم؛ بالرغم من اعترافهم؛ كما سمعت من خطبة الخطيب البروتستاني؛ مؤمنين بالله واليوم الآخر، فلا أجد له مثلاً؛ إلّا ذلك الشاهد؛ الذي أُرْضِيَ على أن يشهد بديك؛ فشهد بتيس؛ لأنه أكبر، والآخر الذي رُشِيَ على أن يشهد بشعير؛ فشهد بـ.. بُرْ؛ فلما راجعه المُدَّعِي؛ لمناقضة الشهادة لدعواه؛ وقال له: تَذَكَّرْ؛ فإنَّما المشهود به شعير! قال له: البُرُّ خيرٌ لك. وقال صاحب إظهار الحق؛ (لا أدري أناقل؛ أم من عند نفسه؛ فإنِّي لم أتمعَّن): لكن العجب من عقلاء كاثلك؛ ومن تبعهم؛ أنهم يبطلون حكم الحسِّ والعقل معاً؛ ويحكمون أنَّ الخبز والخمر؛ اللذين حدثا بين أعيننا؛ بعد مدة أزيد من ألف وثمانمائة سنة من عروج عيسى عليه السلام؛ يتحولان في العشاء الربَّاني؛ إلى لحمه ودمه؛ فيعبدونهما ويسجدون لهما. وتارة يبطلون العقل والبداهة؛ ويقولون بإمكان التثليث والتوحيد الحقيقيين في شخص واحد؛ في زمانٍ واحد؛ من جهةٍ واحدة. والعجب من فرقة بروتستانت؛ أنَّهم خالفوهم في الأولى دون الثانية. كما أن أهل التثليث يغالون في شأن المسيح؛ ويوصلونه إلى درجة الألوهية. فكذلك يفرطون ويعتقدون أنه لُعِنْ؛ وأنه نزل جهنم ثلاثة أيام؛ بعدما مات. وكان أحد المسيحيين واسمه سيل[٢]؛ حصَّل بعض العلوم الإسلامية؛ وترجم القرآن؛ وأوصى قومه بما هذا حاصل ترجمته: لا تُعَلِّمُوا المسلمين المسائل التي هي مخالفة للعقل؛ لأنهم ليسوا حمقاء؛ كعبادة الصنم؛ والعشاء الربَّاني. وكل كنيسة فيها هذه المسائل؛ لا تقدر أن تجذبهم إلى نفسها. اهـ. باختصار.

وأصل هذا؛ ما نقله الطيبي عن الشيخ زيادة: أنَّ بعض النصارى يعتقد ما

---

(١) مؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٢) جورج سيل (١٠٩١ ـ ١١٤٩هـ) محامي إنجليزي وعضو بجمعية تعزيز المعرفة بالمسيحية تعلم اللغات الشرقية وقيل إنه أمضى بجزيرة العرب ٢٥ سنة وقيل إنه لم يغادر بريطانيا. عمل ترجمة لمعاني القرآن الكريم رغم عدائه للإسلام؛ وقد أعيدت طباعة ترجمته في العصر الحديث وفي سنة ٢٠٠٧ أقسم أول عضو مسلم منتخب في الكونغرس الأمريكي على نسخة قديمة من ترجمة سيل للقرآن.

قاله بولس؛ من أنَّ جميع البشر هالكون بخطيئة جدِّهم آدم عليه السلام؛ حتى إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام؛ وأنهم جميعاً في الأسر؛ تحت يَدِ إبليس وسلطانه؛ مفتقرون إلى إله يُخَلِّصُهُمْ، وبسبب اعتناء الله بالبشر؛ ألجأَهُ الحال إلى أن ينزل ابنه من السماء؛ ويسكنه في رحم السيدة مريم تسعة أشهر؛ ثم أخرجه منها؛ وألبسه ناسوتاً من دم السيدة مريم؛ فصلب فيه ومات؛ ونزل إلى جهنَّم؛ حتَّى يُخَلِّص إبراهيم وموسى؛ وبقية الأنبياء؛ والبشر الهالكين بالخطيئة. وكَأَنَّ الخلاص لا يمكن إلّا بهذه الكيفية؛ لأنَّ عيسى هو ابن الله؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. اهـ.

تتمتان:

الأولى: على ما ذكر الأستاذ الحكيم؛ من إرخاء العنان للعقل؛ وتفويض الحاكمية المطلقة إليه؛ نذكر بعض ما تجاذبت حباله أراكين العلم في المسألة. فلقد اختلف الأشاعرة والماتريدية الحنفية[١]؛ في تكليف العقل قبل البعثة بمعرفته تعالى؛ فأنكره الأولون؛ وجزم أكثرهم بنجاة أهل الفترة[٢] على الإطلاق. وأثبته الآخرون؛ وقالوا: بتعذيب من لم يُوَحِّد الله من أهل الفترة، إذ لا عذر له مع

---

(١) الأشاعرة والماتريدية هما المكونان الأساسيان لأهل السُّنة والجماعة وقد نشأتا للرد على المعتزلة وغيرهم في مسائل العقيدة باستخدام نفس الأساليب نفسها التي لم يتقنها قبل أهل السُّنة حتى جاء أبو الحسن الأشعري وقد كان قبل مع المعتزلة واستخدم أساليب المعتزلة الكلامية كالمنطق والقياس في تدعيم مذهب أهل السُّنة في مواجهة المعتزلة وتوضيح بعض المسائل كخلق القرآن والقضاء والقدر. وكثير من كبار أئمة أهل السُّنة لأشعريين مثل النووي والغزالي والبيهقي والسيوطي وابن عساكر وابن حجر العسقلاني وغيرهم. ولا تختلف الماتريدية عن الأشعرية إلّا في بعض الفروع البسيطة حيث أغلب علماء الماتريدية من الأحناف بينما علماء الأشعرية أكثرهم من الشافعية والمالكية وأشهر كتب الماتريدية كتاب العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي الحنفي.

(٢) أهل الفترة هو مصطلح يطلقه الباحثون في شأن العقيدة الإسلامية على الناس الذين لم ينزل إليهم رسول ولا نبي ولم يتبعوا أحد الأديان السماوية.

ظهور الآيات الكونية الباهرة. ونقل السيوطي في صفحة ٢٠٩ ج٢ من الحاوي[١]؛ عن الأبي؛ أنَّ أهل الفترة على أقسام ثلاثة: **الأول**: من أدرك التوحيد ببصيرته؛ كقس بن ساعدة[٢]؛ وزيد بن عمرو بن نفيل[٣]؛ فكُلٌّ منهم ناجٍ؛ يبعثه الله أمَّةً وحده. **والثاني**: من بقي على حالِ غفلةٍ بدون إشراك؛ وهؤلاء هم أهل الفترة الناجون بالحقيقة. **والثالث**: من بدَّل وغيَّر وأشرك؛ ولم يُوَحِّد؛ وحلَّلَ وحرَّم؛ كعمرو بن لحي[٤]؛ فهؤلاء معذَّبون. وهذا هو الأنسب بما جاء في شرح مسلم للإمام النووي؛ من قوله: إنَّ من مات في الفترة؛ على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان؛ فهو في النار.

واتَّفق الأكثرون على استقلال العقل بإثبات الوحدانية؛ واختلفوا في الدليل النقلي؛ فقيل: يستقل بإثباتها؛ وهو رأي الفخر الرازي ومن وافقه، وقيل: لا؛ وعليه أكثر المحققين. إلّا أن بعضهم اشتَطَّ في تحكيم العقل إلى غاية بعيدة؛ حتى لقد زعموا أن العقل إذا خلا بنفسه؛ أدرك الأحكام الشرعية؛ لأنَّ ما أُدْرِكَ حسنه؛ إن كان الحسن فيه عظيماً؛ فهو واجب، أو غير عظيم؛ فمندوب. وما أدرك قبحه؛ إن كان قبحه شديداً؛ فحرام، أو غير شديد؛ فمكروه. أو؛ لا ذا؛ ولا ذاك؛ فمباح. ويقولون: إنما بُعِثَتْ الرسل تأكيداً للعقل. هذا ما يُنْقَل عن

---

(١) كتاب الحاوي للفتاوي للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ مطبوع حالياً في جزءين (والأرقام التي أوردها الإمام هي من نسخته القديمة) وقال في مقدمة الحاوي: استخرت الله في جمع نبذ من مهمات الفتاوي التي أفتيت بها على كثرتها مقتصراً على المهم والعويص وبدأت بالفقهيات مرتبة على الأبواب ثم بالتفسير ثم بالحديث ثم بالأصول ثم بالنحو والإعراب ثم بسائر الفنون؛ إفادة للطلاب؛ وسميته الحاوي للفتاوي.

(٢) من حكماء العرب في الجاهلية وخطبائهم المشهورين كان موحداً ومات قبل الهجرة بست وعشرين سنة.

(٣) نبذ عبادة الأصنام في الجاهلية ولم يقتنع بالنصرانية ولا اليهودية وبقي على الحنيفية وارتحل يبحث عن الإسلام ومات قبل البعثة.

(٤) كان من سادات العرب وأول من بدل الحنيفية الموحدة بإدخال الأصنام لتعبد في جزيرة العرب.

المعتزلة[١]. ومعاذ الله أن يجعلوا العقل حاكماً؛ وهم من أنصار الإسلام وينابيع العلم، وغاية ما يمكن أن يقولوا: إنَّ العقل مُدْرِكٌ للأحكام الشرعية[٢]. قال البناني: إنَّ المعتزلة لا يجعلون العقل هو الحاكم؛ بل يوافقوننا على أن الحاكم هو الله تعالى. بل جزم في فواتح الرحموت[٣]؛ أنَّ الخلف لفظي، فتقرب الشقة إذاً؛ بينه وبين ما طفحت به كتب أهل المذاهب؛ من إرداف الدليل بالتعليل؛ وما بنى عليه عز الدين بن عبد السلام كتابه[٤]؛ القواعد من المناسبات. وذلك هو الركن الركين للقياس؛ بل لقد استغنى المالكية بالعلَّة؛ على انفرادها؛ وهو القول بالمصالح المرسلة.

---

(١) المعتزلة فرقة من أهل السُّنة أسسها واصل بن عطاء واعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل وقالوا بأن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي وقد ظهر المعتزلة في أواخر الدولة الأموية وتقووا في العصر العباسي ومن أشهر المعتزلة الجاحظ والخليفة المأمون والزمخشري صاحب التفسير.

(٢) كتب الإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف في معجم بلاد حضرموت طبعة مكتبة الإرشاد صفحة ٢٣٧ ـ ٢٣٨: ولقد شهدت اجتماع الحموم بالشحر في سنة ١٣٣٣هـ متنازعين لدى السيد حسين بن حامد المحضار في كثير من القضايا المهمة؛ ولما تحير في تفصيلها قال له رئيسهم حبريش: ردها لي يا بن حامد وأنا أحكم فيها على شرطين أحدهما: أن تجعل لي ألف ريال؛ والثاني: أن أضع أنا ألف ريال؛ فإن نقض حكمي شرع أو عُرْف؛ كنت في حل من ألفي. قال ابن عبيد الله: فامتد عنقي لذلك البدوي الأغبر الذي لم أعرفه من قبل؛ وأكبرت تحدِّيه للشرع؛ وقلت له: هبك آمنت النقض من جهة العرف والعادة؛ لإتقانك لهما؛ فمن لك بالأمان من جهة الشرع؛ أفتعرفه؟ فقال: لا؛ ولكنني سأحكم بالعدل؛ والعدل لا يتغير؛ ولا يمكن نقضه بحال؛ فأكبرت ما في طي تلك الأسمال البالية؛ وتحت تلك اللحية الشعثة من الحكمة؛ التي ابتعدت عن مجالس القضاة اليوم (الحموم قبائل قوية بحضرموت والسيد حسين بن حامد هو وزير الدولة القعيطية المطلق الصلاحية وهو من أعاظم الرجال علماً وحكمة ودهاء).

(٣) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت كتاب جامع للأصول العقلية والنقلية ومشتملاً على الفروع الفقهية ألفه ابن نظام الدين الأنصاري الهندي.

(٤) من أئمة الفقه الشافعي (٥٥٧ ـ ٦٦٠هـ) مصري الولادة والوفاة يلقب بسلطان العلماء لترفعه عن الحكام والملوك؛ شحذ الهمم لمواجهة غزو التتار لبلاد المسلمين.

وقال القرافي: إذا تتبعت فروع سائر المذاهب؛ وجدتهم قائلين بذلك؛ لأنهم يستغنون بالمناسبة في إثبات كثير من تلك التفاريع؛ ولا تتسع مسافة الخلف؛ لمن تدبر بينه وبين أمثال قول أبي مظفر السمعاني: إنَّ العقل لا يُوجِبُ شيئاً ولا يحرِّمه؛ ولا حظَّ له في شيء من ذلك؛ ولو لم يرد الشرع بحكم؛ ما وجب على أحد شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]؛ ونحو ذلك من الآيات. فمن زعم أن دعوة رسل الله؛ عليهم الصلاة والسلام؛ إنما كانت لبيان الفروع؛ لزمه أن يجعل العقل هو الداعي إلى الله دون الرسول. ويلزمه أنَّ وجود الرسل وعدمه؛ بالنسبة إلى الدعوة إلى الله؛ سواء؛ وكفى بهذا إضلالاً.

ونحن لا ننكر أن العقل يرشد إلى التوحيد، وإنما ننكر أن يستقل بإيجاب ذلك؛ حتى لا يصح إسلام إلّا بَطَرِيقِهْ؛ مع قطع النظر عن السمعيات؛ لكون ذلك خلاف ما دلَّت عليه آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة التي تواترت بطريق المعنى. (اهـ مختصراً). وهو كالصريح في مخالفة ما سبق؛ من استقلال الدليل العقلي بالتوحيد، ولكنه الأنسب بأمثال قوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]؛ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[4]؛ مع ما تقرر في الأصول؛ من امتناع تكليف الغافل. والملجأ والكلام في الموضوع طويل؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أما ما أشار إليه الأستاذ الحكيم[5] بقوله: إلّا قليلاً ممن لا يُنْظَرْ إليه؛ فإن أراد بهم الحنابلة؛ فقد جازف عليهم بما هم براءٌ منه؛ إذ لا بدَّ وأن يُؤولوا المعيَّة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٤) سورة يس، الآية: ٦.

(٥) يقصد الإمام محمد عبده.

بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[٢].

وقال الغزالي في التفرقة: سمعت الثقاة من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون: إنَّ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ؛ صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط: **أحدها**: (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) **والثاني**: (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) **والثالث**: (إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين)؛ وإنما اقتصر عليها؛ لأنه لم يمعن في النظر العقلي. ولهذا تجاوزه الأشعري والمعتزلي لإمعانهم النظر فيه؛ وكانت المعتزلة أشدَّ توغلاً في التأويلات؛ أما الأشعري فأقرب إلى الحنابلة؛ ولا سيَّما في أمور الآخرة؛ إلّا أنهم اضطروا إلى تأويل وزن الأعمال؛ فذهبوا إلى المجاز؛ وقالوا: توزن صحائفها، وجعله المعتزلة كناية عن السبب الذي ينكشف به لكل واحد مقدار عمله، وهو أبعد عن التعسف في التأويل. فَكلٌّ مضطر إلى التأويل؛ إلّا أن يجاوز الحدَّ في الغباوة؛ فيقول: إنَّ الحجر الأسود يمين الله حقيقةً. (اهـ. بمعناه وأكثر لفظه مع الاختصار). والجزء الأخير منه؛ هو الذي ينطبق عليه وحده قول الأستاذ.

وقد صرح ابن حجر الهيتمي في ص ١١١ من فتاويه الحديثية[٣]: بأن السلف والخلف على اتفاق؛ في صرف النصوص الموهمة عن ظواهرها؛ وإنما الخلاف في التأويل التفصيلي. فالسلف يرون الإمساك عنه؛ والخلف يرجِّحون أولويته؛ لاحتياج زمانهم إليه اهـ. وقد قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤. (٢) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(٣) هذه الأرقام من النسخة التي قرأها الإمام ولم أبحث عن موقعها في الطبعات الجديدة.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

على أنَّ للعلامة ابن تيمية كلاماً جميلاً؛ منه: أنه لا يجوز تعارض دليلين قطعيين؛ سواء كانا سمعيين أو عقليين؛ أو أحدهما سمعي؛ والآخر عقلي. وأما إذا كان أحدهما قطعياً والآخر ظَنيّاً؛ فتقديم القطعي لازم. وكذلك تقديم الأرجح من الظَّنَّيْن أيًّا كان. فإذا رجح الدليل العقلي؛ فليس لأنَّ العقل هو الأصل؛ ولكن من جهة القطع أو الرجحان (اهـ. بمعناه) وهو جَدٌّ نفيس؛ ولولا أن طوله يبعد بنا عن المقصود؛ لاستوفيناه. وما أظن الشيخ محمد عبده اطَّلع عليه؛ وإلّا؛ لارعوى عما قال.

والثانية: على ما ذكره الأستاذ من كروية الأرض. بينما أنا أتلو سورة الرحمن في الوقت القريب؛ وقفت هنيهة على قوله تعالى فيها: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] وتذكرت أن المفسرين قالوا: إنَّ المراد مشرقا الشتاء والصيف؛ ومغرباهما؛ فلم أرتض ذلك؛ ورأيت أنه يكفي عنه قوله: (برب المشارق والمغارب). وظهر لي في وضوح؛ لا يحتمل التأويل؛ أنَّ كلًّا من الجهتين الغربية والشرقية؛ يقال لها مشرق ومغرب؛ إذ لا مشرق ولا مغرب من كروية الأرض؛ إلّا في رأي العين فقط. لأنَّ الشمس لا تشرق من جهة على قوم؛ إلّا وهي تغرب عند آخرين، فأفادنا القرآن العزيز الذي لا تنفد عجائبه؛ بكروية الأرض في هذا الأسلوب العذب الدقيق؛ بصفة تلوح سافرة اللثام للناظرين؛ بدون أن تحدث تشويشاً في سابق الزمان على أفكار الأميين. وقد تأكد اشتقاقي من هذا المعنى؛ بقوله جل ذكره في سورة الزخرف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[2].

إذ لا مجال للقول بالتغليب مع إشراق الحقيقة؛ إذ كُلٌّ من الجهتين بشهادة الحس والعيان؛ مشرقٌ ومغرب معاً. وقد أمرت رادَّتي[3] بالكشف عنه؛ في غيبة

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

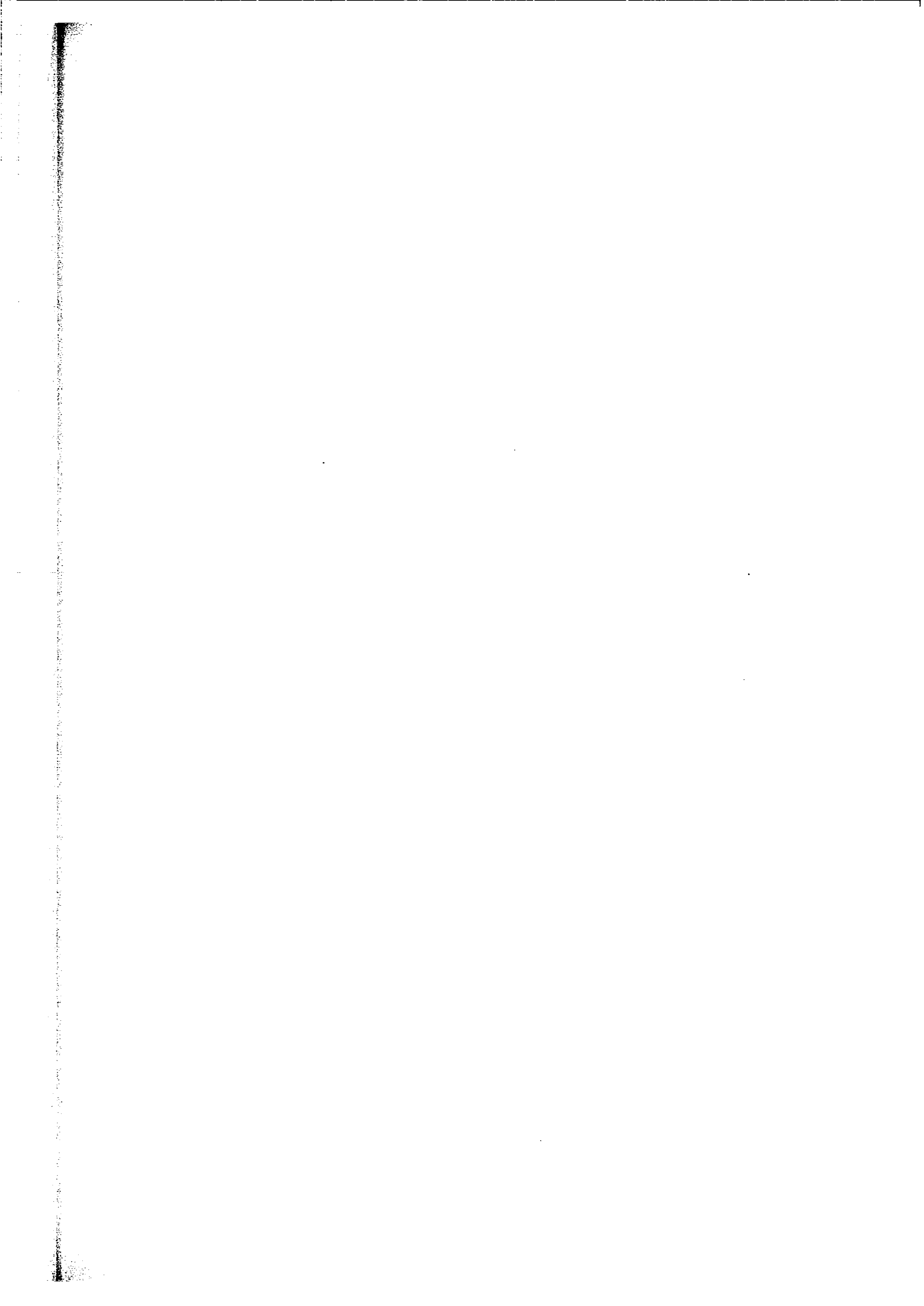
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٨.

(٣) أي الطوافين أو الزائرين لي.

أمثاله من المعاني؛ وهو تفسير طنطاوي جوهري؛ لأحمد الله على الموافقة؛ إن وُجِدَتْ؛ وأغتبط بجميل الاستنباط؛ إن لم توجد. فلم ينهض لذلك إلّا الفاضل الشيخ مبارك باحريش (قاضي سيئون الآن)؛ فلم يجدها في الموضعين؛ فكدت أن أخرج عن جلدي من الفرح؛ بما ترك لي من الخبء العظيم؛ والكنز الثمين؛ الذي لا يوجد نظيره؛ في التدليل على هذه النظرية؛ من التنزيل. والحمد لله الذي هدانا لهذا؛ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله[١].

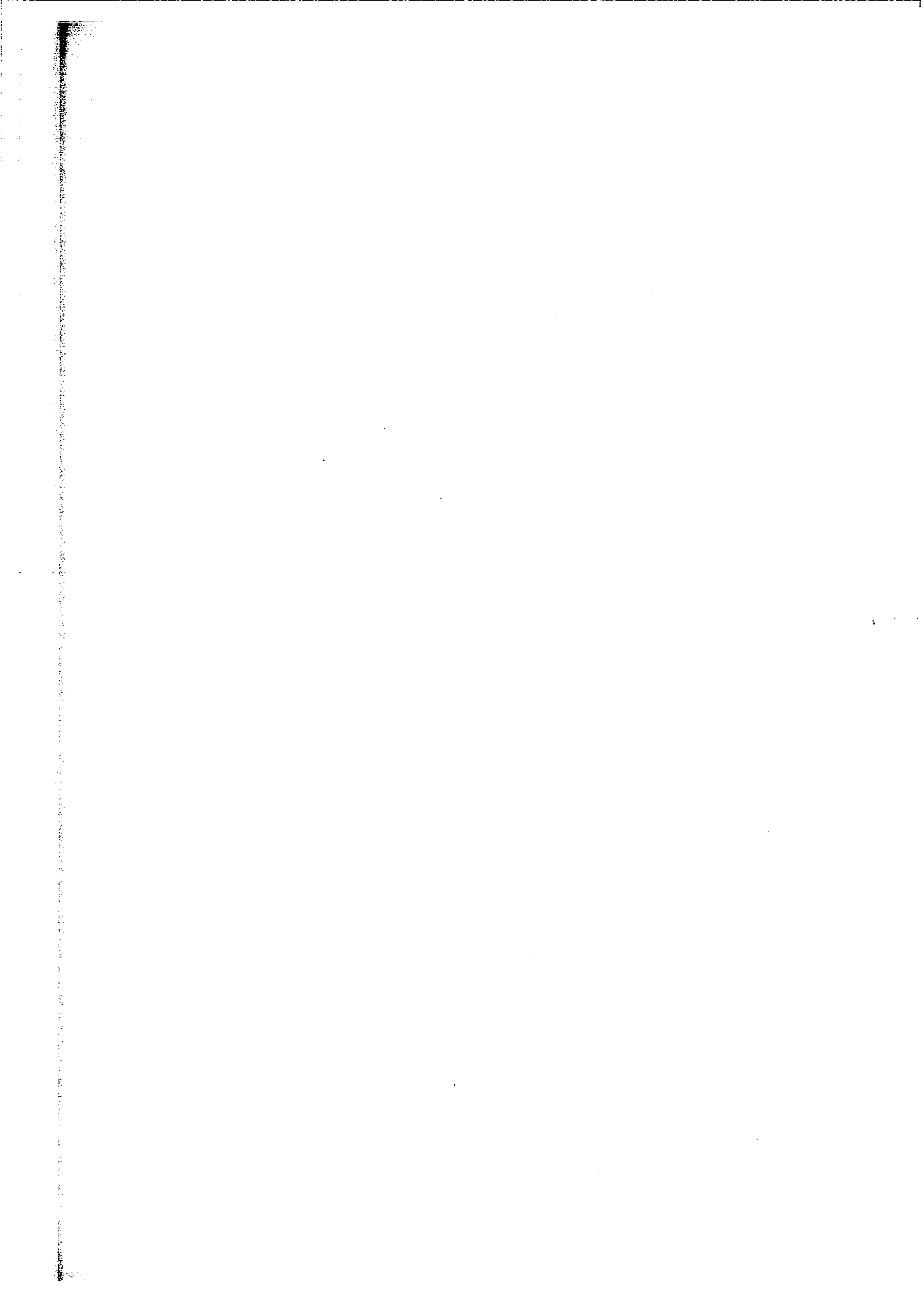


(١) أي أنه لم يجد أحداً سبقه إلى هذا التفسير.





الفصل العاشر



الفصل العاشر

مرّ بك في الفصل الفائت؛ قول الأستاذ الحكيم في تعليقه على كلام الخطيب البروتستانتي، وقال في موضع آخر: لا بدَّ أن ينتهي أمد العالم إلى تآخي العلم والدين؛ على سنّة القرآن والذكر الحكيم. ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صحَّ معناه: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله**»، وعند ذلك يكون الله قد أتمَّ نوره ولو كره الكافرون، وليس بينك وبين ما أعدك به؛ إلّا الزمان الذي لا بدَّ منه؛ في تنبيه الغافل؛ وتعليم الجاهل؛ وتوضيح المنهج وتقويم الأعوج؛ وهو ما تقتضيه السُّنة الإلهية في التدريج ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾[1] إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً اهـ.

ولا شك أن المؤلف اطلع عليه؛ وعلى أمثاله الموجودة بكثرة في منشآت الأستاذ الحكيم؛ فأحبَّ أن يتعلق بأذيالها؛ وتمنَّى أن لو كان له مثلها، فأخطأ الشاكلة، وحاد عن الرَّمْيَة؛ وأخروط به الطريق، ولم يصاحبه رفيق يقال له التوفيق. وشتَّان بين ما يقول الأستاذ الحكيم؛ وبين ما يمضغه المؤلف؛ مضغ العجائز الكرش؛ فإن الأستاذ؛ يتفرس ويرتجي، والمؤلف يُمَوِّه الحقائق ويَدَّعي. وقد قلت أنا في الفائدة الأولى من كتابي «بلابل التغريد» إذ تكلمت على حديث مسلم بن الحجاج: «**بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**» إلخ، إن له معنيين:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

أحدهما المتبادر، والثاني أن ظهور الدين بادياً كان بسرعة مدهشة لم يعهد لها نظير في تاريخ انتشار الأديان ولم يسبق لها مثيل في حوادث انقلابات الأكوان، ثم جنى عليه أبناؤه وتلاعب به المتمسكون بأهدابه؛ واطَّرَحَهُ المنسوبون إليه؛ وانتهكه حماته، وأضاعه رعاته؛ وخذله أنصاره؛ خذلة القائد للأعمى؛ في أثناء الطريق المُضِلَّة؛ فجاء هذا الحديث؛ يَعِدْ بأنَّ له كرَّةً أخرى إلى الظهور والانتشار؛ بطريقة غريبة؛ وسرعة عجيبة؛ تعيده سيرته الأولى، إلى آخر مما أطلت فيه من ذلك، وقد خرج هذا عنِّي قبل أكثر من عشرين عاماً؛ وما اطلعت على مقالات الأستاذ الحكيم؛ إلّا منذ زمن قريب لا يزيد عن سنتين، وكذلك كان قولي في نهج البردة؛ التي كنت أنشأتها في سنة ١٣٦٠هـ:

وَمَا بِغَيرِ الذِي تقْضَى شَريعَتُهُ ... لِلنَاسِّ مَنْجَى مِنَ الأرْزَاءِ والغمَمِ

إذْ لا يوازيه دينٌ في عدالته ... ولم يكُنْ مع إصلاحٍ بِمُصْطَدِمِ

أمَّا شريعةُ عيسى فالنجاةُ بها ... مَعَ التَّمَدُّنِ شيءٌ غيرُ مُلْتَئِمِ

وَلا سِيَاجَ لنُعْمَى السلم يحفظها ... إلّا تعاليمُهُ من صمَّةِ الصَّمَمِ

وعن قريبٍ تُرُدُّ الناسَ قاطبةً ... لهُ الحروبَ التي يُمْطِرنَ بِالنِّقَمِ

وَلَو أرادوا كما قالوا النظامَ لَمَا ... حادُوا عن الدِّينِ فهو الطِّبُّ للسَّقَمِ

ولكن تنشب شيصة[1] في اللهاة؛ إزاء هذه الأماني العذبة، وتلك هو ما ثبت في الصحاح: أنَّ الزمان إلى تراذل؛ فقد أخرج البخاري والترمذي من حديث أنس بن مالك؛ وقد شكا إليه ما لقي الناس من الحجَّاج، فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان؛ إلّا الذي بعده شرٌّ منه؛ حتى تلقوا ربكم؛ سمعته من نبيكم ﷺ. وقد اسْتُشْكِل هذا الإطلاق؛ مع أنَّ بعض الأزمنة تكون أقلَّ شراً من التي قبلها، ولو لم يكن إلّا زمان عمر بن عبدالعزيز بعد زمان الحجاج.

---

(١) شيصة: تمر رديء لم ينضج واللهاة اللحمة المشرفة على الحلق والمعنى أنها تنحشر في الحلق وكذلك الكلام الذي لا يقبل معناه.

وقد حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، وقال بعضهم: إنَّ المراد تفضيل مجموع العصر على مجموع ما بعده؛ وقد كان زمان الحجاج أفضل بكثرة من فيه من الصحابة، وقد انقرضوا في أيام ابن عبد العزيز؛ والزمان الذي فيه الأصحاب؛ خيرٌ من الزمان الذي بعده؛ لقوله ﷺ: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم**» وهو في الصحيحين؛ وقوله: «**أصحابي أَمَنَةٌ لأمَّتِي فإذا ذَهَبَ أصحَابِي أتى أمتي ما يوعدون**» أخرجه مسلم.

قال الحافظ ابن حجر: ثم وجدت التصريح بالمراد عن ابن مسعود؛ فيما أخرجه ابنُ أبي شيبة عن زيد بن وهب؛ قال سمعت ابن مسعود يقول: «لا يأتي عليكم يوم؛ إلّا وهو شرٌّ من اليوم الذي كان قبله؛ حتى تقوم الساعة؛ لست أعني رخاءً من العيش يصيبه؛ ولا مالاً يفيده؛ ولكن لا يأتي عليكم يوم؛ إلّا وهو أقلُّ علماً من اليوم الذي مضى؛ فإذا ذهب العلماء؛ استوى الناس؛ فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ فعند ذلك تهلكون». وأخرج مسلم والحاكم وصححه؛ عن عبد الله بن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال فيلبث في أمتي أربعين؛ ثم يبعث الله عيسى فيطلبه حتى يهلكه؛ ثم يبقى الناس بعده سبع سنين؛ ليس بين اثنين عداوة؛ ثم يبعث الله ريحاً باردة؛ تجيء من قبل الشام؛ فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ إلّا قبضت روحه؛ حتى لو أنَّ أحدكم في كبد جبل؛ لدخلت عليه حتى تقبضه، ثم يبقى شرار الناس؛ فيجيئهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان؛ فيعبدونها**».

والأخبار والآثار في تأخر الدِّين مع تقادم الأيام؛ كثيرة؛ لا تقصر عن التواتر المعنوي، ولكن لا يذهب ما تفرسه الأستاذ الحكيم ضياعاً؛ لأن الآيات السابقة في غُرَّة هذه الرسالة[1]؛ وفي هذا الفصل؛ إنما يُنْذِرَان بِتَقَلُّل الأخيار؛ وتكاثر الأشرار. وأما تَقَدُّم العمران والحضارة؛ التي لا بدَّ لها من العدل؛ فلا يبعد أن تتهافت الأمم عليه؛ لأنَّ فيه نجاتها من المظالم والحروب، وأن تجيء بما يقرب

(١) أي في بداية هذا الكتاب الذي سماه رسالة لقصره.

من قواعد الدين الإسلامي. وحسب الأستاذ أن نأول كلامه حتى يتفق مع النصوص؛ إذ لا يمكن العكس؛ كما قال صاحب روح المعاني[١] في قريب منه.

وقد رأيت فيما لا أذكر اسمه الآن من المجلات: أنَّ نابليون بونابرت الفرنساوي؛ الذي قيل إنه أسلم؛ وإنْ لَمْ؛ فقد كاد؛ كان يهتم بتأليف قانون؛ يتكفل بحفظ العدالة؛ ويضم سائر الأحكام، وبينا هو يُفَكِّر في جمع الاخصاء له من شرق الأرض وغربها؛ ويقدر له مئات الألوف من الدنانير؛ إذ ورد مصر؛ واختلط بالعلماء؛ وأظهر التملق لرئيسهم إذ ذاك في ظاهر الأمر؛ وعمل ما يسقط حرمته؛ ويغض من شرفه في الخفاء؛ كما رأيته منذ زمن طويل في تاريخ؛ آنقني كثيراً؛ للصحافي القديم حافظ عوض؛ صاحب المنبر الأغر؛ ولما احتك بالعلماء؛ وثاقهم بالكنالة؛ أعجب بما رآه من مذهب الإمام مالك؛ فأمر بترجمته إلى الفرنساوية بيسير من التصرف؛ فكان هو القانون المعمول به في القارة الأوروبية بأسرها[٢]؛ إلّا أنهم لا يزالون يتعقبونه بالتحوير والتعديل شيئاً فشيئاً، وإلّا فالأصل من مذهب مالك، كذا رأيته. وقد أكثرت من ذكره؛ والافتخار به في كلامي؛ نظماً ونثراً، ومنه قولي في نهج البردة:

لكنهم أخَذُوا من دِينِنَا نُتَفَاً ... كَانَتْ لِنَهضَتِهِمْ من أشرفِ الخَدَمِ

فَمَا قَوانِينُهُم إلّا مُتَرجَمَةً ... عَنْ مَذْهَبِ النَّجمِ مُفتِي النَّاسِ بِالحَرَمِ

---

(١) يقصد الألوسي صاحب تفسير روح المعاني واسمه محمود الألوسي عراقي مؤرخ وعالم بالأدب والدين (١٢٧٣ ـ ١٣٤٥هـ).

(٢) أمر نابليون عام ١٢١٤هـ بوضع قانون مدني واحد لفرنسا أي بعد غزوه مصر سنة ١٢١٣هـ وبقائه بها ثلاث سنوات. ويؤيد كلام الإمام ابن عبيد الله أن أحد علماء الأزهر واسمه سيد عبد الله حسين ذهب لدراسة القانون في فرنسا فراعه التشابه الشديد في كثير من الأحكام بين مذهب الإمام مالك وبين القانون الفرنسي الذي وضعه نابليون والذي يعتبر إلى اليوم من أعظم أعماله؛ وقام هذا العالم الأزهري بتأليف كتاب للمقارنة بين مذهب الإمام مالك وبين القانون الفرنسي سماه (المقارنات التشريعية) وطبع سنة ١٣٦٦هـ. وقال في مقدمته: إنه من هذه الحوادث التاريخية القاطعة يتبيّن أنه كان للشريعة الإسلامية عموماً ولمذهب الإمام مالك خصوصاً دخل في التشريع الوضعي بأوروبا.

وبلغني أن بعضهم أنكر ذلك عليَّ بظهر الغيب؛ فاشتدَّ أسفي لعدم ضبط المرجع الذي حفظت عنه ذلك؛ ولكنني لا أزال على ثقتي به، وقد اطلعت بعد ذلك على جملة شواهد عليه؛ في تفسير طنطاوي جوهري رحمه الله. فكانت الخلاصة أنَّ الأوروبيين تقيَّضُوا آثار الإسلام؛ واستنهجوا طريقة في الأحكام كلها؛ أو أكثرها؛ حسبما تفرسه الأستاذ الحكيم؛ وستضطرهم أيامى الحرب؛ إلى تعدد الزوجات؛ شاؤوا أم أبوا؛ وإلّا وقعوا في الخراب؛ وآلوا إلى الدمار.

وإنا لنرجو أن تعتنق الإسلام أمة ذات حول وطول؛ فتعود به سيرته الأولى من النصاعة؛ والسلامة من البدع والمحدثات؛ فيتم ظهوره على الدِّين كلِّه[١].

أما اجتماع الأمم على الدخول فيه؛ والتلزُّم به تماماً؛ فلا يقع إلّا في أيام نزول عيسى عليه السلام، فالأستاذ محمد عبده بارٌّ في كلامه؛ ولا سيما لمَّا أشار بالآيتين؛ وهما قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٢]؛ لأنهما من سورة المعارج عن يوم القيامة. ونزول عيسى من أشراطها؛ فهو على غاية الاتفاق مع سورة الحج (٥٥)؛ السابقة في الفصل الثاني؛ ومع ما قررنا في هذا الفصل من الأدلة؛ وما سبق في فاتحة هذه الرسالة؛ وما سيأتي من التعليق على القصيدة الآتية في الفصل الثاني عشر.

---

(١) من أقوال نابليون حول مصر:

١ ـ لو حكمت مصر لن أضيع قطرة واحدة من ماء النيل، وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة، ولقمت بتوحيد العالم ويسود العالم السلام الفرنسي.

٢ ـ في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغيّر التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغيّر التاريخ.

٣ ـ لو لم أكن حاكماً على مصر لما أصبحت إمبراطوراً على فرنسا.

٤ ـ بنى محمد ﷺ من لا شيء ومن شعب جاهل؛ بنى أمة واسعة ومن الصحاري القفار بنى أعظم إمبراطورية في التاريخ.

٥ ـ حلمي تجسد في مصر بينما كاد يتحول إلى كابوس في الغرب.

(٢) سورة المعارج، الآيتان: ٦ ـ ٧.

ومن المعلوم أن اليهود والنصارى؛ عجزوا عن تنفيذ ما بقي بأيديهم من أحكام كتابيهم؛ فإنَّ اليهود لا يقتلون الزاني؛ ولا من شتم أباه؛ ولا من أحلَّ السبت. وعجزت النصارى عن تحويل الخدّ الأيسر لمن ضرب منهم الخدّ الأيمن؛ وأبَوْا إلى القصاص؛ بل أكثر منه. وأكبر من ذلك انضراجهم على الزهادة المفروضة عليهم؛ وتكسير أغلالها؛ وفك قيودها؛ والتخلص من أثقالها؛ التي تتفسح منها الأقدام؛ فلجأوا إلى قانون الإسلام وحوَّرُوه؛ واعترف كثير من علمائهم بفضله عليهم. ولئن جحده الكثير؛ فالمثبت مُقَدَّم على النافي؛ وأشعة العلوم الزاهية لم تنتشر في ربوعهم؛ إلّا من إشراق ضيائها بين المسلمين في الأندلس؛ وعدالة الأحكام لم تتمهد في بلادهم؛ إلّا بما اقتبسوه عن مذهب النجم الهادي؛ حسبما قررناه.

ورأيت بعض الباحثين يستشكل رجم الزاني؛ وقطع يد السارق في الإسلام، وقد تحيَّر فيه المعرِّي فقال:

يَدٌ بِخَمسِ مئينٍ عسجدٍ وُدِيَتْ ... ما بالها قُطِعَتْ في رُبعِ دينارِ

تَنَاقُضٌ ما لنا إلّا السكوتَ لَهُ ... وَأَنْ نَعُوذَ بمولانا من النارِ

فأجابه صديقه القاضي عبد الوهاب المالكي؛ بقوله:

عِزُّ الأمانَةِ أغلاها؛ وأرْخَصَها ... ذُلُّ الخيانة؛ فافهم حِكْمَةَ البَارِي

ومع هذا فليهدأ بالهم؛ وليفرخ روعهم، فإنَّ في قوله ﷺ: «**ادرؤوا الحدود بالشبهات**» ما يحل العقدة؛ ويكشف الحيرة، إذ لا يُمْكِنْ الرجم ولا القطع؛ إلّا باختيار الفاعل؛ وإقراره المُكُرَّرْ المُفَصَّلْ. ولا إشكال فيمن يرضى على نفسه، أما من لا يُحِبُّ ذلك؛ فلا يلزم عليه؛ لسقوطه بأدنى شبهة. حتى لو زعم السارق أنَّ المسروق ملكه؛ سقط القطع للشبهة؛ وإن كان كاذباً. وكذلك الزاني؛ وإن ثبت زناه بالبيِّنة. على أنه لم يثبت زِناً قط ببيِّنة في الإسلام، وناهيك بما اشتهر من زنا المغيرة بن شعبة بأمِّ جميل؛ فقد شهد عليه ثلاثة من عدول الصحابة؛ بأنهم رأوا ذكره داخلاً فيها؛ كالميل في المكحلة، واندرأ عنه الحد، لقول

الرابع؛ وهو زياد ابن أبيه: رأيته يتفخَّذها وكأنِّي أنظر إلى تشرين جدري بفخذها؛ ورأيت إسْتاً؛ تنبو؛ ونَفَساً يعلو؛ ورجلين كأنهما أذني حمار؛ وليس عندي ما أحقَّ القوم؛ من سلوك ذكره في فرجها. فسقط عنه الحد؛ بهذه الشبهة المؤكّدة للواقع في الجملة. ولقد كان المغيرة واثقاً من السلامة؛ حتى لقد كان رخِيَّ البال؛ ساكن الجأش، وهل يمكن لخائف من الرجم؛ أن يتزوَّج في أثناء قدومه على عمر؛ لولا معرفته بسماحة الدين الإسلامي؛ ويقينه من النجاة. فالإشكال من هذه الناحية؛ مدفوعٌ من أصله. على أنَّ الزناة بمثابة الكلاب العاقرة؛ ومن ذا الذي يرثى لها من الرجم؛ وما بُعِثَتْ الرسل؛ وأنزلت الكتب؛ إلّا لحفظ الكُلِيَّات الخمس؛ وهي: الدين؛ والعرض؛ والروح؛ والمال؛ والعقل. فما يعرض في سبيل ذلك؛ لا بدَّ من إزالته أيًّا كان.

أما القصاص فلا حياة للأمم بدونه؛ كما في تلك الآية؛ التي خرَّت البلغاء سجوداً؛ من أخذها بآفاق البلاغة والبيان، إذ قد اتفقوا على أنها أفضل من قولهم: «القتل أنفى للقتل». وقال الطائي:

وأخافَكُم كَيْ تُغْمِدُوا أسيافكم أنَّ الدَّمَ المُغْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ

ولذا ترى القتل يكون بكثرة فاحشة في البلاد التي استبدلته بالحبس المؤقت، فأدَّى ذلك إلى اضطراب الأمن وتمرُّد العصاة. إذاً؛ فالقصاص من أفضل محاسن الشرائع، قال في تحفة ابن حجر: روى البيهقي عن مجاهد وغيره: أنَّ شريعة موسى عليه السلام تُحَتِّم القَوْد[1]، وعيسى عليه السلام تحتم الدِّيَة، فخفف الله عن هذه الأمة وخيَّرهم بينهما اهـ.

وقد جزمت في بضائع التابوت[2] بلزوم القَوْد من المسلم للذِّمي، وقررت

---

(١) القود: هو القصاص وقتل القاتل بدل القتيل.

(٢) بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت كتاب تاريخي للإمام في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير وما زال مخطوطاً.

ما ذهب إليه أبو حنيفة من ذلك؛ بما يشفي ويكفي، لأنَّ العهود بالاعتبار الأول عند صاحب الشريعة الإسلامية. وقد ورد احترامها في بضع وعشرين آية؛ كما يقوله قتادة السدودس؛ من الذكر الحكيم. أما قول الأستاذ الحكيم في أول هذا الفصل: وعند ذلك يكون الله قد أتَمَّ نوره.. إلخ؛ فعليه شمَّة أنَّ ذلك لم يقع بعد. ولكن ذهب كثير من العلماء إلى وقوعه فيما سلف؛ وتَوَقُّع عوده؛ حسبما تفرس الأستاذ؛ فيما يأتي، وأنَّى يُنكَرْ وقوعه؛ وقد دخل الناس أفواجاً في هذا الدين القويم؛ وتحقق التمكين الموعود به في قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾[1]. وقد حصل؛ كما قال الشيخ رحمه الله الهندي؛ أنْ سَلَّط الله المسلمين في حياته ﷺ؛ على مكة وخيبر والبحرين ومملكة اليمن؛ وأكثر ديار العرب. وصار إقليم الحبشة دار إسلام؛ بدخول النجاشي في هذا الدين الحنيف. وكان ناس من هَجَر وبعض المسيحيين قبلوا الطاعة وأدّوا الجزية. وفي أيام أبي بكر؛ تَسَلَّط المسلمون على بصرى ودمشق؛ وبعض الديار الأخرى من الشام؛ وعلى بعض ديار فارس. وزاد التمكين في أيام عمر؛ فأخذوا سائر بلاد الشام؛ وجميع مملكة مصر؛ وأكثر ديار فارس. وامتد سلطانهم في أيام عثمان؛ إلى أقصى الأندلس والقيروان غرباً؛ وإلى جدار الصين شرقاً؛ فلم يبعد الطائي عن الصدق في قوله:

فالصِّين منظومٌ بأنْدُلُسٍ إلى ... حِيطَانِ رُومِيةَ فَمُلْكُ ذِمَارِ

وسيظهر الوفاء الكامل للوعد؛ في قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] من قريبٍ على ما هو المرجُو إن شاء الله. لكن ربما يكون الوعد منوطاً بِصِحةِ الإيمان؛ الذي تبيَّن تقصير الأمَّة

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

فيه؛ وإلّا فقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)؛ ولكنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢)؛ فكان مشروطاً بعدم التنازع؛ ولو كان لأحدٍ أن ينصره الله معه؛ لكان أولى الناس بذلك أصحاب رسول الله ﷺ.

ولمَّا حصل عندهم نوع منه في يوم أُحدْ؛ دارت الدائرة عليهم؛ مع أنَّ الوحي ينزل؛ والملائكة في الجناحين؛ وسيد المرسلين ﷺ في الطليعة. ولكن هذا دين التأديب والتهذيب؛ وربط المُسَبَّبات بالأسباب؛ ولو شاء الله عز وجل؛ أن يحمل أعداءَ نبيِّه على خافية من خوافي جبريل عليه السلام؛ لفعل. ولو فعل لخفَّت المحنة؛ وسقطت الحِكْمَة؛ واتَّكلَ الناس. فلم يكن الخير إلّا فيما كان. ولله درُّ أبي تمام في قوله:

فَقَسَا لِيَزدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيَقْس أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

ومن قصيدة لي؛ أرُدُّ بها على بعض الملحدين؛ أقول:

إنَّما التكليفُ ألطافٌ أتَتْ ... لِبَنِي الإنسان مِنَ رِبٍّ شفيق

عِندَه سُبحَانَهُ فِي طَيِّهَا ... حِكْمةٌ تَعْلو عَلَى الفَهْمِ الدَّقِيقْ

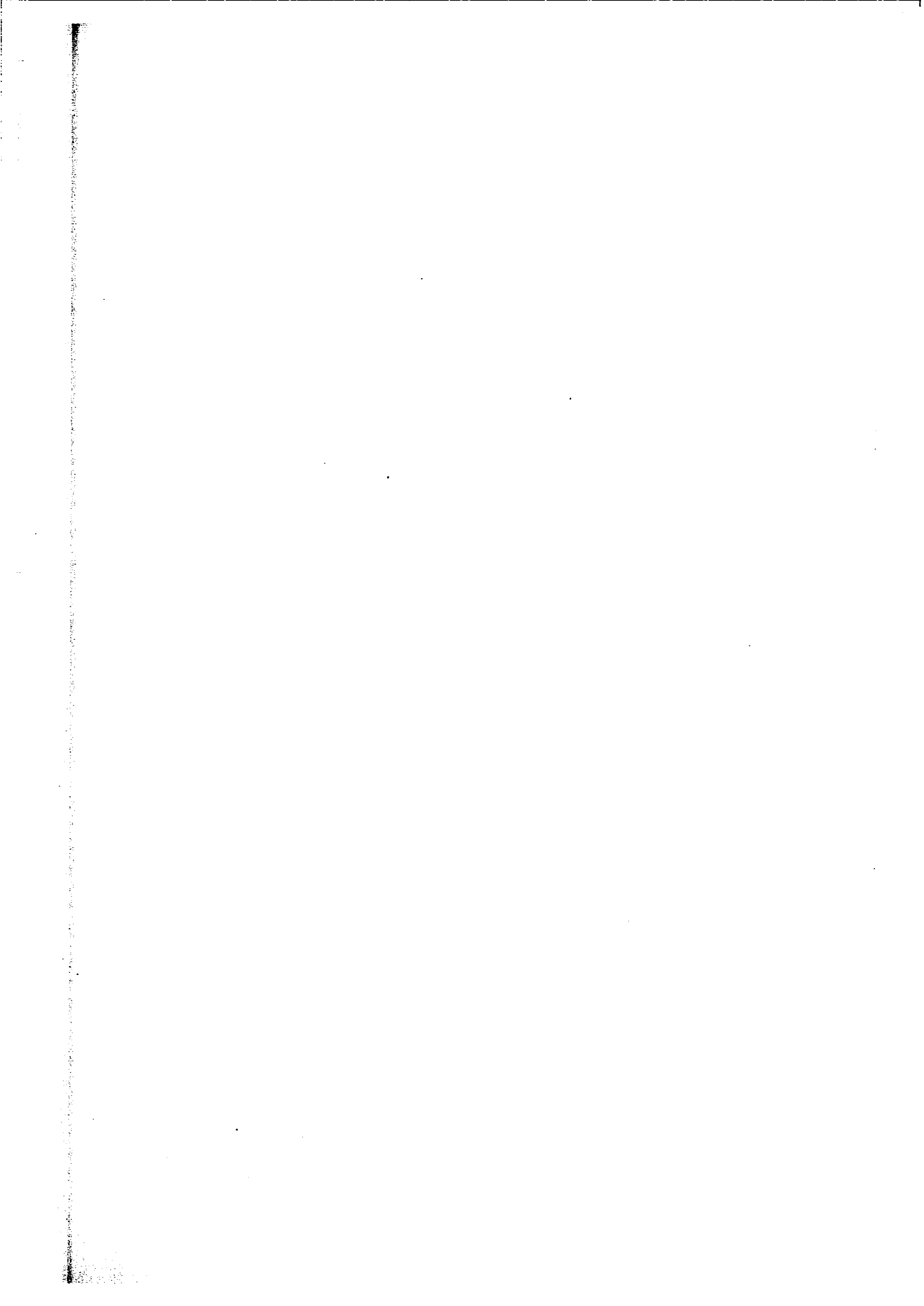
والذي يظهرُ مِنْهَا سَوقُهُمْ ... لِسَبيلِ الفَوزِ بِالسَّوْقِ الدَّفِيقْ

وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ سَائِرَهُم ... وَمِنَ الرَّحْمَةِ إعْدادُ الحَرِيق

وقد أطنبت في الموضوع بغير هذا الكتاب. وإنَّ في هذا لذكرى لأولي الألباب.

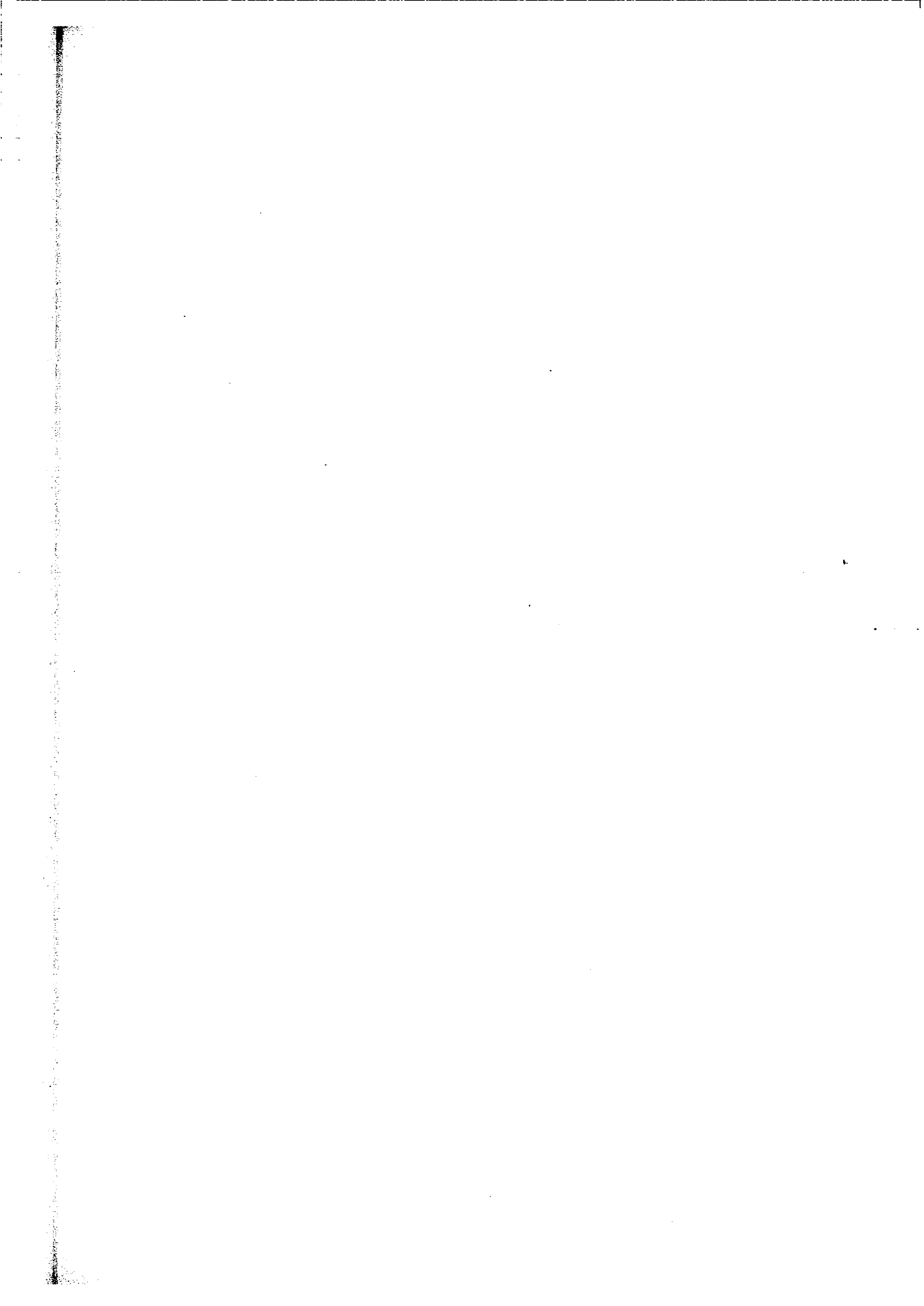
* * *

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.



الفصل الحادي عشر

في البشائر الموجودة في الكتب المقدسة ببعثة نبينا محمد ﷺ



الفصل الحادي عشر: في البشائر الموجودة في الكتب المقدسة ببعثة نبينا محمد ﷺ

البشارة الأولى:

جاء في الجزء ١٤ من دساتير؛ وهو أحد الكتابين المقدسين عند الفرس؛ المقرون باسم ساسان الأول؛ بعد ذكر ما يكون في فارس من اختلال النظام وفساد الأحوال؛ ما نص ترجمته هذا: إذا انحط أهل فارس في الآداب (يعني الأخلاق) يولد رجل في بلاد التازيين (يعني العرب) يقلب أتباعه عرشهم (يعني أهل الفرس) ومملكتهم ودينهم؛ وكل شيء؛ وصناديد الفرس وأبطالهم سيغلِبون، والبيت الذي بُنِي (يعني الكعبة التي بناها إبراهيم) وُوضعَتْ فيها أصنام كثيرة؛ سَينظَّفْ من الأصنام؛ وتستقبله الأمة في صلواتها. وأتباعه سيفتحون مدن فارس وطوس وبلخ؛ ومواضع أخرى عظام حولها، وتقع هوشات واضطرابات في الناس. وحكماء الناس من أهل فارس وغيرهم سيكونون من أتباعه اهـ.

فهذه البشارة صريحة لا تحتمل صرفاً ولا تأويلاً؛ وقد كان متَّى ماهراً في تحريف النصوص من الكتب المقدسة؛ فيحرِّفها؛ ويُلْبِسُهَا معانٍ يخترعها من عنده؛ حتى يجعلها مناسبة لعيسى عليه السلام. وما كاد يسمع بهذه البشارة؛ حتى صاغ أسطورة على عادته، وعبثاً حاول صرفها عن محمد ﷺ؛ فلم يحصل إلّا على الأفن والتكذيب؛ حتَّى من قومه النصارى؛ فتركوها له وحده؛ ولم يشاركه فيها

أحدٌ منهم قط. وكتاب الفارسيين هذا؛ لم يزل في أيديهم يتداولونه؛ جيلاً بعد جيل؛ وقد انتظروا بعثة هذا النبي العربي آلافاً من السنين؛ حتى حقق الله هذه البشارة تماماً؛ بما لا حاجة إلى وصفه؛ لأنَّ ما بين العينين لا يوصف. وقد اعتنى بخدمة الإسلام كثير من الفارسيين؛ ظهر بهم مصداق قوله ﷺ: «**لو كان الإسلام بالثريا لناله رجال من فارس**». وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1]؛ أنَّ البدل من فارس.

■ البشارة الثانية:

في الباب الأول من سفر الاستثناء: فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا؛ وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بني إخوتهم؛ وأجعل كلامي في فمه؛ ويكلمهم بكل شيء آمره به؛ ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي؛ فأنا أكون المنتقم من ذلك.

فهذه البشارة متوجهة إلى نبيِّنا ﷺ. وزعم بعض اليهود أنها بيوشع، وزعم البروتستانت أنها بعيسى. وذلك مردود لوجوهٍ كثيرة، لأن يوشع وعيسى من بني إسرائيل؛ ولا يمكن أن يقوم أحدٌ فيهم مثل موسى؛ لما جاء في الآية العاشرة من الباب ٣٤ من سفر الاستثناء وهي هكذا: ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى؛ يعرفه الرب وجهاً لوجه (اهـ.). فإذا قام أحدٌ مثل موسى بعده من بني إسرائيل؛ لزم تكذيب هذه الآية.

ثم لا مماثلة بين موسى ويوشع، إذ لا شريعة ليوشع؛ وإنما هو خادمٌ لموسى؛ وعلى شريعته. ولا مماثلة بين موسى وعيسى، لأن الثاني لم يكن عبداً؛ بل إلهاً في زعمهم. وفي شريعة موسى: الحدود؛ والتعزيرات؛ وأحكام الغسل؛

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

والطهارة؛ والمحرمات. ولم يكن في إنجيل عيسى شيء من ذلك. وكانت شريعته موسى عدلية، وشريعة عيسى فضلية، وإنذار موسى بالغنى وحسن الحال؛ وإنذار عيسى بالزهد والتبتُّل. وكان لموسى سيف؛ ولم يكن لعيسى سيف، فلا مماثلة أصلاً. وهذا لا ينافي ما سبق من آيات الإنجيل السابقة؛ في الفصل السابع؛ لأنَّ السيف الذي يريد عيسى عليه السلام أن يلقيه؛ لم يقع في أيامه.

وإنما تتحقق المماثلة بين موسى ومحمد صلى الله عليهم؛ فكُلٌّ منهما (١) عبد الله ورسوله (٢) وذو والدين (٣) وذو نكاح وأولاد (٤) وشريعة كُلٌّ مستقلة؛ ومشتملة على السياسة المدنية (٥) وكون كل منهما مأموراً بالجهاد (٦) واشتراط الطهارة (٧) ووجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء (٨) واشتمال شريعة كُلّ على العبادات البدنية والرياضات الجسمية (٩) وتحريم الربا (١٠) والأمر بالتوحيد الخالص (١١) والموت على الفراش (١٢) والدفن (١٣) والسلامة من الصلب واللعنة؛ ودخول جهنم لأجل الشفاعة[(١)]؛ وغير ذلك. ولذا جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾[(٢)].

وكان من إخوة بني إسرائيل؛ لأنه من بني إسماعيل؛ وأنزل عليه الكتاب؛ وكان أميّاً فجعل الله كلامه في فمه؛ فنطق بالوحي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[(٣)]. وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش؛ ومن الأكاسرة والقياصرة وغيرهم.

وقد جاء في هذه البشارة في الآية ٢٠ منه: فأما النبي الذي يجتري بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم آمره بأنه يقوله؛ أم باسم آلهةً غيري؛ فليقتل. وهذا تصريح بأن النبيَّ الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره به؛ يُقْتَلْ. ولم يُقْتَل

---

(١) أي والسلامة من دخول جهنم لأجل الشفاعة كما سبق من قول النصارى ذلك عن عيسى عليه السلام.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٥.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

محمد؛ بل عصمه الله من الناس؛ بشهادة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[١]. ولا قال على الله ما لم يأمره؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[٢].

ولو كانت هذه البشارة منصرفة إلى عيسى عليه السلام؛ لدلَّت على أنه كان نبيّاً كاذباً؛ كما زعمته اليهود؛ لأنه قتل وصلب؛ كما تزعمه النصارى؛ وهو مُنَزَّهٌ من جميع ذلك. وقد اعترف اليهود بأنه مُبَشَّرٌ بِهِ في التوراة[٣]؛ ولذا أسلم بعضهم؛ وأصرَّ الباقون على الكفر والعناد.

■ البشارة الثالثة:

جاء في الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء ما نصه: هم أغاروني بغير الله؛ وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة؛ وأنا أيضاً أغيِّرهم بغير شعب؛ وبشعب جاهل أغيظهم. وكان اليهود يحتقرون العرب؛ لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال؛ ولأنهم من أولاد هاجر؛ وهي أَمَةٌ مملوكة، فمعنى الآية: أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة؛ فأغَيِّرهم باصطفاء المحتقرين الجاهلين؛ فبعث فيهم هذا النبي الكريم؛ كما قال في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٤].

■ البشارة الرابعة:

جاء في الباب ٣٣ من سفر الاستثناء؛ ما نص ترجمته: وقال جاء الرب من سيناء؛ وأشرق لنا من ساعير؛ واستعلن من جبل فاران؛ ومعه ألوف الأطهار. في

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

(٣) أي نبينا محمد ﷺ.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

يمينه سنة من نار. فمجيئه من سيناء؛ إنزاله التوراة على موسى؛ وإشراقه من ساعير؛ إنزاله الإنجيل على عيسى؛ واستعلانه من جبل فاران؛ إنزاله القرآن. لأنَّ فاران جبل من جبال مكة؛ وقد اعترفوا بأن المراد بمجيئه من سيناء؛ الوحي؛ فلزم مثله في ساعير وفاران.

■ البشارة الخامسة:

جاء في الآية (٢٠) من الباب السابع من سفر التكوين؛ ما نصُّ ترجمته: وعلى إسماعيل استجيب لك؛ هُوَ ذَا؛ أباركه؛ وأكبره؛ وأكثره جداً؛ فسيلد اثني عشر رئيساً؛ وأجعله لشعب كبير. ولم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير سوى محمد ﷺ، وقد قصَّ الله علينا من دعاء إبراهيم وإسماعيل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١]. وقد ظهر تصديق هذه الآية في الحس، فإن العرب اليوم يزيدون عن ثمانين مليوناً[٢]؛ ويكثرون اليهود بخمسة أضعاف.

■ البشارة السادسة:

جاء في الآية العاشرة من الباب ٤٩ من سفر التكوين ما هذه ترجمته: فلا يزول القضيب من يهوذا؛ والمدبر من فخذه؛ حتى يجيء الذي له الكل؛ وإيَّاه تنتظر الأمم. وقد حصل اختلاف في ترجمة هذه الآية بمعان متفقة وألفاظ متقاربة. ووجه التبشير من هذه الآية: أنَّ اليهود ما زالوا ممتازين محترمين في أقطار العرب؛ وكانوا مستقلين؛ أولي أملاك وحصون؛ كما في خيبر وغيرها؛ إلى أن بُعِثَ محمد ﷺ؛ فأخذ منهم القضيب والمدبر؛ وضُرِبَتْ عليهم الذِّلة والمسكنة؛ واجتمعت الشعوب على محمد ﷺ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٢) بلغ عدد سكان الوطن العربي الكبير في عام ٢٠٠٧: ٣٣٨,٦٢١,٤٦٩ نسمة بينما يوجد في العالم كله حوالي ١٤ مليون يهودياً.

■ البشارة السابعة:

جاء في الزبور ٤٥؛ عدة آيات؛ يُسَلِّم أهل الكتاب أنها بشارة بنبي يأتي بعد زمانه؛ ويَدَّعي علماء بروتستانت أنه عيسى. ويقول المسلمون إنه محمد، لأن الصفات المذكورة في آيات الزبور تنطبق عليه؛ وهي: (١) كونه جميلاً (٢) كونه أفضل البشر (٣) كون النعمة منسكبة على شفتيه (٤) كونه مباركاً إلى آخر الدهر (٥) كونه متقلداً بالسيف (٦) كونه قوياً (٧) كونه ذا حق ودعة وصدق (٨) كون نُبْلُهُ مسنونة (٩) سقوط الشعب تحته (١٠) كونه محباً للبر مُبْغِضاً للإثم (١١) خدمة بنات الملوك له (١٢) إتيان الهدايا إليه (١٣) انقياد أغنياء الشعب له (١٤) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم (١٥) كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل (١٦) مدح الشعوب له إلى دهر الداهرين.

وقد اجتمعت هذه الصفات في رسول الله ﷺ؛ على أكمل وجه؛ وأوضح بيان. ولولا خشية الإطالة لذكرنا شواهدها؛ ولكن الحق واضح؛ ولا يطلب على وجود النهار دليل.

■ البشارة الثامنة:

جاء في الزبور ١٤٩ عدة آيات تُبَشِّر بملك يطيعه الأبرار؛ ويشرفهم الله بالخلاص؛ لأنهم متواضعون؛ ولأنهم يفتخرون بالمجد. يحملون السيوف وينتقمون من الأمم؛ ويأسرون الملوك ويصفدونهم بالأغلال والقيود. وهذه الأوصاف لا تنطبق إلّا على محمد ﷺ؛ وعلى أصحابه رضوان الله عليهم.

■ البشارة التاسعة:

جاء في الباب ٤٢ من كتاب أشعيا؛ عدة آيات تشير إلى عبادته على المنهج الجديد في شريعته؛ وإلى عموم رسالته؛ وإلى أنه من ولد قيدار بن إسماعيل؛ وإلى صياح أمته بالتلبية في الحج من رؤوس الجبال؛ وإلى الأذان الذي ينتشر في أقطار العالم بالجهر في الأوقات الخمسة؛ وغير ذلك.

■ البشارة العاشرة:

جاء في الباب ٥٤ من كتاب أشعياء ١٧؛ آية تشير على مكة المشرفة؛ بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر؛ على ما فضَّلها الله به من أولاد هاجر؛ وشرَّفهم على أولاد سارة؛ ببعثة نبيٍّ منهم؛ خلق لإهلاك المشركين؛ وبما جعل فيها من المعبد الذي لا نظير له في العالم؛ وبشرَّها بالرحمة الأبدية؛ وأنه لا يغضب عليها؛ وأنَّ زرعها يرث الأمم ويعمر المدن؛ وغير ذلك مما ظهرت آثاره بمحمد ﷺ.

■ البشارة الحادية عشرة:

جاء في الباب الثاني من المشاهدات: ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية؛ فسأُعْطِيه سلطاناً على الأمم؛ فيرعاهم بقضيب من حديد؛ كما تكسر آنية من خزف؛ كما أخذت أيضاً من عند أبي؛ وأعطيه كوكب الصبح من أذن له؛ فليسمع ما يقول الروح بالكنائس.

فهذا الغالب الذي أعطي سلطاناً على الأمم؛ فهو يرعاهم بالقضيب، إنما هو محمد ﷺ؛ وقد سماه سطيح الكاهن: صاحب الهراوة. وقال الفاضل عباس علي الجاجموي[١]: قلت للقسِّيسين عند المناظرة: إن صاحب هذا القضيب؛ هو محمد ﷺ؛ وقالا: إنه عيسى بالكنيسة المشار إليها في البشارة؛ فلا بدّ أن يكون ظهور الشخص الموعود به في تلك الناحية. قلت لهم: أيُّ ناحية هي؟ قالوا بعد المراجعة: هي في أرض الروم قريبة من استانبول! قلت: لقد وضح الدليل، إذ قد راح أصحاب محمد ﷺ إلى تلك البلاد وفتحوها؛ ثم تسلَّط عليها المسلمون بعد ذلك، وما زالت القسطنطينية تحت سلاطين آل عثمان إلى الآن. فهذا الخبر صريح في حقِّ محمد ﷺ.

---

(١) من الهند وله كتاب في الرد على النصارى اسمه صولة الضرغم على أعداء ابن مريم. وهو يشبه عندي الشيخ ديدات الهندي الذي اشتهر في العصر الحالي بمناظرة النصارى.

■ البشارة الثانية عشرة:

وهي في آخر أبواب إنجيل يوحنا؛ في الباب ١٤ منه: إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي؛ وأنا أطلب من الأب؛ فيعطيكم فارقليطاً آخر ليثبت معكم إلى الأبد؛ والفارقليط؛ روح القدس الذي يرسله الأب باسمي؛ وهو يُعَلِّمكُم كل شيء؛ وهو يذَكِّركُمْ كل ما قلته لكم، وإذا جاء روح الحق ذاك؛ فهو يعلمكم جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده؛ بل يتكلم بكل ما يسمع؛ ويخبركم بما سيأتي.

وقد نقلت هذه البشائر ما عدا الأولى؛ من كتاب إظهار الحق؛ للعلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن؛ بغاية الاختصار. ومن أراد التزيُّد فليرجع إليه؛ فإن فيه ما يلزم الحُجَّة؛ ويوضح المحَجَّة؛ ويدفع الشبهات؛ ويكشف الظلمات. وقد أطال على البشارة الأخيرة الكلام؛ وذكر أنَّ الفارقليط؛ هو اسم محمد؛ وأحمد؛ وأنَّ عيسى ﷺ كان يتكلم بالعبرانية؛ وقد ترجم النصارى كلامه إلى اليونانية؛ ثم تُرْجِم إلى العربية؛ فإن حصل نوع اشتباه؛ فإنما هو بواسطة الترجمة؛ وإلّا فالبشارة صريحة بمحمد ﷺ.

وكان اليهود والنصارى لِعَهْدِ بَعْثِهْ؛ على قريب من الإجماع في انتظار نبيٍّ يُبْعَثْ؛ ولما وصل كتابه للنجاشي وهو نصراني؛ قال في جوابه: أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً؛ وقد بايعتك وبايعت ابن عمك؛ وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وقال المقوقس ملك القبط في جوابه لرسول الله ﷺ: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط؛ سلامٌ عليك؛ أما بعد فقد قرأت كتابك؛ وفهمت ما ذكرت فيه؛ وما تدعو إليه؛ وقد علمت أنَّ نبيًّا بَقِي؛ وكنت أظن أن يخرج بالشام؛ وقد أكرمت رسولك.

وكان الجارود بن العلاء نصرانياً من علمائهم؛ فجاء في قومه على رسول الله ﷺ وقال: والله لقد جِئْتَ بالحقِّ؛ ونطقت بالصدق. والذي بعثك نبياً؛ لقد وجدتُ وصفك في الإنجيل؛ وبَشَّر بك ابن البتول فطول؛ التحيَّة لك؛ والشكر

لمن أكرمك؛ لا أثر بعد عين؛ ولا شك بعد يقين؛ مُدَّ يدك؛ فأنا أشهد أن لا إله إلّا الله؛ وأنك محمد رسول الله؛ ثم أسلم وقومه.

أما البشارة الأولى فقد أخذتها من مقال لمحمد تقي الدين الهلالي[١]؛ نشرته جريدة الفتح الصادرة بالقاهرة في عددها ٣٧٣ بتاريخ ١٢ شعبان من سنة ١٣٥٢ عن مجلة مسلم رفايفل.

■ البشارة الثالثة عشرة:

قال الطيبي؛ ناقلاً عن كتاب البحث الصريح للشيخ زيادة: مما يشهد له ﷺ؛ ما ذكر في تثنية الاشتراع؛ في الإصحاح الثامن عشر؛ والعدد الخامس؛ مِنْ أنَّ سيِّدنا موسى عليه السلام؛ قال لقومه: إنَّ نبيّاً من بنيك ومن إخوتك؛ مثلي؛ يقيمه الرب، ويوضِّحها ما جاء في العدد الثامن منه؛ من قول موسى عليه السلام لقومه: إنَّ الرَّبَّ إلهكم؛ سيقيم نبياً من إخوتكم مثلي؛ فاسمعوا له؛ وكُلُّ نفسٍ لا تسمع لذاك النبي؛ ولا تطيعه؛ تُسْتَأصل تلك النفس من أصلها.

وهذه البشارة دالة على نبيِّنا ﷺ بالمطابقة؛ لأنه من ذرية إسماعيل؛ وهو وذريته؛ يُدْعَوْنَ إخوة لبني إبراهيم، ومعلوم أن إسحاق أبا إسرائيل؛ كان أخاً لإسماعيل؛ ولا مماثلة بين موسى ويوشع؛ ولا بينه وبين عيسى؛ كما سبق في البشارة الثانية.

■ البشارة الرابعة عشرة:

ما جاء في إنجيل يوحَنَّا في الإصحاح الأول والعدد ٢١ من قوله: وأرسل

---

(١) محمد تقي الدين الهلالي (١٣١١ ـ ١٤٠٧هـ) محدث وأديب وشاعر ورحالة مغربي تنقل للدراسة والعمل بين عدد من البلاد وتزوج بها شملت مصر والعراق والهند وفرنسا وألمانيا والسعودية؛ وأقنع هتلر بإذاعة عربية وأدارها له مع يونس بحري وساهم في تحرير بلاده من الاستعمار وفي ذلك يقول:

أعادي فرنسا ما حييتُ وإن أمت فأوصي أحبائي يعادونها بعدي

الفريسيون يسألون يوحنا المعمداني قائلين: أَنَبِيٌّ أنت؟ فأجابهم: كلا! فأجابوه: ما بالك تُعَمِّدُ؛ إن كنت لست المسيح؛ ولا إيلياء؛ ولا النبي؟ فدَلَّ كلام الفريسيين (وهم علماء اليهود)؛ بمنطوقه ومفهومه؛ أنهم في انتظار ثلاثة نفر عظام؛ بَشَّر الأنبياءُ السابقون بمجيئهم وهم: المسيح، وإيلياء[1]، والنبي عليهم الصلاة والسلام. فسقطت دعوى اليهود؛ بأنَّ المُبَشَّر به في كلام موسى؛ هو يوشع بن نون؛ لأنه لو كان صاحب البشارة؛ لم تنتظر علماء اليهود النبيَّ الموعود به إلى زمن عيسى؛ وتسأل المعمداني (وهو سيدنا يحيى) عنه، وسقطت دعوى النصارى بأنه المسيح؛ لأنَّ عطفه عليه صريح في المغايرة.

■ البشارة الخامسة عشرة:

ما قاله زكريا عليه السلام في الإصحاح الثامن؛ ومعناه بالعربية: يقول الله ربُّ الأجناد: في تلك الأيام يتجمعون عشرة رجال؛ من كل ألسنة الشعوب ويتمسكون بذيل رجل حميد؛ ويقولون: لنذهب معك لأننا سمعنا الله معك.

■ البشارة السادسة عشرة:

ما قاله أشعياء في الإصحاح التاسع؛ والعدد السادس؛ وهو: إنَّ ولداً يولد لنا أُعْطِي لنا؛ وتكون علامة سلطانه على كتفه؛ ويدعي اسمه عجيب؛ مشاوراً طائقاً؛ جبَّاراً؛ أبا الأخير؛ سيِّد السلام؛ ليكثر سلطانه؛ ولسلامه ليس قياس على كرسي داود وعلى مملكته؛ يجلس ليرتبها ويساعدها بالعدل والصدقة. قال الطيبي: إلى غير ذلك مما يدل على نبيِّنا ﷺ؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[2].

وفيما ذكرناه كفاية، إذ الذكي يدرك بالمقال الواحد؛ ما لا يدركه الغبي

(١) من أنبياء اليهود الذي ورد ذكره في كتبهم واعتقدوا أنه هو يحيى (يوحنا).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

بألف شاهد. ومن أراد الزيادة فعليه بكتاب «البحث الصريح» للشيخ زيادة رحمه الله[١]؛ فقد استقصي فيه ما يشفي الغليل؛ مع توضيح المعنى وبيان وجه مطابقة الدليل؛ فلا ينبغي إهماله سيّما والفضل للمتقدم اهـ.

وقد تركت كثيراً مما أورده الشيخ رحمه الله في «إظهار الحق»[٢] من البشائر لأنَّ عبارته لم تكن من الجودة؛ بمرتبة عبارة الطيبي والشيخ زيادة؛ فاطَّرَحتُ الكثير النافع بمعناه منها. ولو أنني استعنت في البشارة الثانية بكلام الطيبي لكان أوضح وأفصح؛ ولكن قد مضى الحال بما فيه، وأنا ألخص الآتي عن مقال للعلامة مصطفى الرفاعي اللبان؛ نشرته جريدة الفتح في عددها المشار إليه آنفاً.

■ البشارة السابعة عشرة:

جاء في سفر التكوين ١٢ : ٧: ظهر لإبرام وقال: لِنَسْلِكْ أُعْطِي هذه الأرض. وإبرام هو سيدنا إبراهيم ﷺ؛ والمشهور من أولاده: إسماعيل وإسحاق ﷺ؛ والأرض التي وعد بها نسل إبراهيم؛ هي أرض كنعان؛ التي عرفت بعد باسم فلسطين. وفي هذه الآية بشارة؛ بأنَّ أرض فلسطين ستعطى لنسل إبراهيم؛ فَلْنَرَ ما يقول التاريخ في ذلك:

خرج بنو إسرائيل من مصر إلى فلسطين؛ في عهد منفتاح بن رمسيس الأكبر؛ من الأسرة التاسعة عشرة؛ وذلك في نحو سنة ألف قبل الميلاد أو أكثر؛

---

(١) كتاب «الأجوبة الجلية لدحض الدعوات النصرانية» للشيخ زيادة بن يحيى وكان نصرانياً وأسلم في القرن الحادي عشر الهجري واختصره عبد الرحمن الطيبي وهو من أهل دمشق؛ تعلم بها وبمصر؛ وله إلمام بالهندسة والفرائض؛ ومعرفة بالفقه والأدب وتوفي سنة ١٣١٧هـ.

(٢) كتاب إظهار الحق من أهم الكتب في مقارنة الأديان ومؤلفه الشيخ رحمه الله الهندي الكيرواني؛ وقد رد فيه على مطاعن المستشرقين في الإسلام وقام في الهند بمناظرة المنصرين الإنجليز ومنهم القس فاندر وانتصر عليهم فأرادوا قتله فهاجر إلى مكة واستقر بها وأسس بها المدرسة الصولتية.

ولم يصيروا مالكين فعلاً؛ إلّا في زمن داود عليه السلام؛ واستمر ملكهم الحقيقي سبعين سنة؛ ثم ضعف ملكهم بعد موت سيدنا سليمان عليه السلام؛ وما زالوا في نزاع وخصام مع سكان البلاد الأصليين؛ وطالما أُخْرِجُوا وأُخِذُوا أسَارَى؛ وأفل نجمهم سريعاً؛ وأُجْلُوا أخيراً من ديارهم إجلاءً تاماً؛ وتشَتَّتُوا في أنحاء الأرض. فلم تكن لهم فلسطين إلّا فترة قليلة؛ لم يصح أن تسمّى ملكاً إلّا من قبيل التجاوز. وبأثر جلاء بني إسرائيل؛ صارت فلسطين رومانية عدة قرون؛ إلى أن فتحها العرب أبناء إسماعيل؛ وملكوها ملكاً حقيقياً ثلاثة عشر قرناً؛ لم تخرج عنهم فيها إلّا فترات قصيرة لا تذكر. ولا يزال نسل إسماعيل هو المالك عليها؛ رغم الانتداب البريطاني؛ وإقحام اليهود بالقوة الزائلة إن شاء الله تعالى.

فإن كان في هذه الآية جزء من البشارة لليهود؛ فللعرب أربعة عشر جزءاً؛ بنسبة زمان الملك، والعرب هم المسلمون الذين اتبعوا النبي الأمين ﷺ؛ فالآية بشارة صريحة به ﷺ. وهذا الكلام جيد؛ لا ألاحظ عليه؛ إلّا أنه سلك السلطنة العثمانية؛ التي امتدت قروناً؛ في سمط السلطنة العربية؛ بجامع الإسلام؛ الذي أشار إليه بالآخرة في قوله: والعرب هم المسلمون. ولولا بحث العرب عن حتفهم بأظلافهم؛ واختلافهم مع الترك؛ الذين كانت دولتهم أهون شراً؛ وأكثر خيراً بكثير من سابقاتها؛ لما نازلهم الانتداب؛ وها هم أولاء اليوم؛ يذوقون من جَرَّائه شديد العذاب[1].

البشارة الثامنة عشرة:

جاء في السفر نفسه (١٦ : ٩ وما بعدها): فقال لها (والضمير لهاجر):

(١) يبين الإمام هنا رأيه المعروف عنه في مناصرته الدولة العثمانية وعدائه لتدخل الأجانب في شؤون المسلمين وقد كان مناصراً للأتراك أثناء الحرب باغضاً لمن خالفهم؛ رغم بسط الإنكليز نفوذهم على بلده؛ وخطر ذلك عليه؛ حتى أنهم وضعوا جائزة لمن يغتاله؛ كما كان من المعارضين للثورة العربية التي قال عنها بأنها دسيسة أجنبية وقد بيّنت الأيام صحة رأيه.

ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك؛ واخضعي تحت يديها؛ وقال ملاك الرب: تكثيراً أكثر نسلك؛ فلا يعد من الكثرة؛ وقال ملاك الرب: ها أنتِ حُبْلَى فتلدين ابناً؛ وقد عيَّن اسمه إسماعيل؛ لأنَّ الربَّ قد سمع مَذلَّتِك؛ وأنه يكون إنساناً وحشياً؛ يده على كلّ واحد؛ ويد كل واحد عليه؛ وأمام جميع إخوته يسكن.

السيدة هاجر امرأة مصرية؛ أهداها فرعون إلى سيدنا إبراهيم؛ إكراماً له؛ وترضيةً عما اقترفه من التعرض لسارة؛ ولما رأت سارة عقم نفسها؛ أذنت للخليل أن يتسرَّاها؛ فلما حملت؛ عَوَّلَتْ على طردها؛ وقد بشرها الله بأنها تلد إسماعيل؛ وأنه يكثر نسله حتى لا يُعَدْ؛ وأنه يكون وحشياً؛ صاحب حرب وصيد وحزم وقوة؛ وأنه يسكن أمام إخوته. وقد أصهر إلى جُرْهُمْ[1] أمراء مكة المشرفة؛ وبقي نسله في منعةٍ وعزة؛ في الوقت الذي يلاقي فيه نسل إسحاق سائر المتاعب. وما طمع أحدٌ في أخذ استقلال الحجاز؛ حتى كان ختم ذلك مِسْكاً؛ برسالة محمد ﷺ؛ وامتد سلطانه حتى دخلت فيه فلسطين؛ التي طرد منها نسل إسحاق. فهذه الآية بشارة ناصعة بنبُوَّة محمد ﷺ. ويأتي هنا كل ما قيل في مدح البادية؛ وهو الشيء الكثير؛ ومنه قول ابن الرومي:

هَذَا أَبُو الصَّقرِ فَرْداً فِي مَحَاسِنِهِ ... مِنْ مِثل شَيبَان بينَ الضال والسلمِ

وقول المعرِّي:

المُوقِدُونَ بِنجدٍ نَارَ بَادِيَةٍ ... لا يَحْضُرُون وَفَقْدُ العِزِّ فِي الحَضَرِ

وقد أطلت القول عليه في (العود الهندي)؛ وذكرت ما تقول ألسنة الشرع من التفصيل.

البشارة التاسعة عشرة:

وفي السفر نفسه (١٧ : ٧ وما بعدها): وأقيم بيني وبينك عهداً أبدياً؛

(١) جرهم قبيلة يمنية قديمة من حمير وقيل من عاصرت النبي إسماعيل وقد تزوج منهم.

لأكون إلـهاً لك؛ ولنَسْلِكَ من بعد؛ وأعطي لك؛ ولنسلك من بعدك؛ أرض غربتك؛ كل أرض كنعان ملكاً أبدياً؛ وأكون إلههم.

وهذا العهد من الله؛ لأن يعطي إبراهيم ونسله أرض كنعان ملكاً أبدياً. وشرط الملك استطاعة التصرف في المملوك؛ ولن تكون البشارة صادقة؛ إلّا إذا شملت أبناء إسماعيل، وإلّا لم تكن البشارة صادقة؛ لأنَّ ملك بني إسرائيل لا يتجاوز سبعين عاماً؛ ثم كانت الاضطرابات مستمرة والخصومات دموية. فلا مفرَّ عن اعتبار البشارة عامة لأبناء إبراهيم؛ لأنها تصدق على العرب الذين ملكوا فلسطين؛ أكثر من عشرة قرون؛ لا على اليهود الذين لم يتحقق ملكهم عليها؛ أكثر من سبعين سنة؛ فعلى من البشارة أصدق؟ والمسلمون هم أتباع محمد ﷺ؛ فهي من جملة البشارات.

■ البشارة العشرون:

جاء في الإصحاح (٢١: ١٣): وابن الجارية أيضاً؛ سأجعله أمَّة لأنه نسلك. هذه البشارة شبيهة سابقاتها؛ ولا ينقص من قدر إسماعيل؛ كونه ابن جارية.

■ البشارة الحادية والعشرون:

ما جاء في الإصحاح نفسه الآية (١٧) وما بعدها: فسمع الله صوت الغلام؛ ونادى ملاك الله هاجر من السماء؛ وقال لها: ما لك يا هاجر لا تخافي؛ لأنَّ الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو؛ قومي احملي الغلام؛ وشدِّي يدك به؛ لأني سأجعله أمَّةً عظيمة.

وفي هذه الآية كالثامنة عشرة؛ مزية عظمى لهاجر؛ وتصريح بالوحي لها؛ مع أنه لم يُوحَ إلى سارة؛ فليس في ولادتها لسيدنا إسماعيل إلّا مزيد التشريف له.

هذه نبذة من البشائر؛ الموجودة إلى اليوم؛ في كتب أهل الكتاب؛ ولولا أنهم عَمُوا عما فيها من الحق الصريح؛ لأتْبَعُوهَا؛ بما كتموه من أخواتها التي لا

تحصى بالمئات. وقد جاء في التوراة التصريح؛ بماد ماد؛ وهو اسم محمد ﷺ؛ كما صرَّح به القاضي عياض في الشفاء.

ومعاذ الله أن نحاول إثبات نبوة سيِّد البشر من هذه البشائر، لأن ثبوتها قد ارتكز على أرسخ الأركان؛ وأركن الدعائم؛ كما قلت في نهج البردة:

أَحْيَت نفوسَ الوَرَى بِالعِلمِ بَيِّنةٌ ... غَرَّاءَ جِئتَ بِهَا عَنِ بَارِئ النَّسَمِ

أَضْحَتْ شَواهِدُهَا للغيِّ دامغة ... تَفْتَرُّ أنْوارُهَا بِيضاً بَلا لثمِ

بَلاغَةٌ أَزْعجَتْ شُمَّ المَصَاقِعِ عَنْ ... لِينِ المَضَاجِعِ مِنْ وَهْمٍ ومِنْ حلمِ

وعِنْدَمَا سمعوها مُرْغَمينَ هووا ... لهَا سُجُوداً مِنْ الإجلالِ والعِظَمِ

تَبَيَّنُوا الحقَّ لكنْ كَابَرُوه وَمَا ... كَانَ ابنُ آمنةَ فيهِمْ بِمُتَّهَمِ

وَحَاوَلُوا أنْ يُغطُّوا نُورَ مِلَّتِهِ ... وَمَا الصَّبَاحُ لِذِي عَينٍ بِمُنْكَتِمِ

وأَفْرَغوا الجهْدَ فِي تَكذِيبِ حُجَّتِهِ ... والأمرُ أظْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلى عَلَمِ

غَذِيُّ صِدْقٍ يَتيمٌ مَا تَلا كُتُباً ... يَأتِي بِمُعْجِزَةِ الأجْيَالِ وَالأمُمِ

أنَّى يُكَدِّرُهُ رِيبٌ وَيُعْجِبُنِي ... فِي البَحْثِ فَصْلٌ لِمُفْتِي دَارَةِ الحِكَمِ

وَذلكَ الفَصْلُ مَأخُوذٌ بِرِمَّتِهِ ... مِنْ قَولِ بُرْدَةِ مَدْحِ الطَّاهِرَ الشِّيَمِ

كَفَاكَ بِالعِلمِ فِي الأمّيِّ مُعْجِزَةً ... فِي الجَاهِلِيةِ وَالتَّأدِيبِ فِي اليُتمِ

والبَيْتُ مِن آيةٍ تُنفِي التِّلاوَةَ مِنْ ... قَبْلِ النُّبوَّةِ والتَّخطِيطِ بِالقَلَمِ

وَلَوْ تَقَدَّمَ عَنْهَا مِنْهُمَا أثَرٌ ... إذاً لأرْجَفَتِ الأعْداءُ بِالتُّهَمِ

والفصل الذي إليه الإشارة؛ هو ما جاء في رسالة محمد؛ من رسالة التوحيد؛ لمفتي مصر الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده، ودارة الحكم؛ هي مصر.

وإنما الغرض من إيراد هذه البشائر؛ أنها بقيت موجودة بأيدي أهل الكتابَيْن إلى اليوم؛ لم يهتدوا إلى حذفها ولا إلى تحريفها، لِمَا أراد الله من تكذيبهم

بأنفسهم؛ ولو أنهم تفطَّنوا لما فيها؛ لمحوها ولو بمياه عيونهم. وكيف يُتَصَوَّر أن يُقَالْ إنهم أقاموا التوراة؛ وهي أصل المسيحية؛ والإنجيل وهو كتابهم الرسمي؛ وقد كذَّبُوا بما يتلى فيهما إلى اليوم؛ من تلك البشائر الناصعة؛ وأمثال أمثالها؛ على حين أنهم يعرفونه؛ كما يعرفون أبناءهم.

أخرج ابن هشام؛ عن ابن إسحاق؛ عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ عن رجال من قومه؛ قالوا: إنَّ مما دعانا إلى الإسلام؛ مع رحمة الله وهداه؛ أنَّا كُنَّا أهل شرك وأوثان؛ وكانت اليهود أهل كتاب؛ عندهم ما ليس عندنا من العلم؛ وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورة؛ فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون؛ قالوا لنا: إنه قد تقارب زمانُ نَبِيٍّ يبعث الآن؛ نقتلكم معه؛ قتل عاد وإرم. فكُنَّا كثيراً ما نسمع ذلك منهم؛ فلما بعث الله رسوله ﷺ؛ أجبناه؛ وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به؛ فبادرناهم إليه؛ فآمنَّا به وكفروا به؛ ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وقد أسلفنا هذه الآية الكريمة في عداد الآيات من الفصل الثاني. وأخرج عنه بسنده إلى سلمة بن سلامة بن وقش؛ وكان ممن شهد بدراً؛ قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل؛ فخرج علينا يوماً من بيته؛ حتى وقف على بني عبد الأشهل؛ وأنا أحْدَثُ من فيهم سناً؛ فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار؛ فقالوا: ويحك أَوَتَرَى هذا كائناً؟ قال: نعم؛ والذي يحلف به؛ ليود؛ أنَّ له بحظه من تلك النار؛ أعظم تَنُّور؛ يحمونه ثم يدخلونه إياه؛ ثم يطيفونه عليه؛ بأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: فما آية ذلك؟ قال: نَبِيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد؛ وأشار بيده إلى مكة واليمن. فقالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا أحدثهم سناً؛ فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره؛ يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً ﷺ؛ وهو حَيٌّ بين

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

أظهرنا؛ فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً؛ قال: فقلنا له: ويحك يا فلان؛ ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى؛ ولكن ليس به.

وأخرج عنه؛ عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ عن شيخ من بني قريضة؛ قال: قال لي: هل تدري عَمَّ كان إسلام ثعلبة بن سعية؛ وأسيد بن سعية؛ وأسد بن عبيد؛ نفر من بني هدل؛ إخوة بني قريضة؛ كانوا معهم في جاهليتهم؛ ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟ قال: قلت: لا؛ قال فإن رجلاً من يهود أهل الشام؛ يقال له ابن الهيبان؛ قدم علينا قبل الإسلام بسنين؛ فحلَّ بين أظهرنا؛ لا والله ما رأينا رجلاً أفضل منه؛ فأقام عندنا؛ فكنا إذا قحط منا المطر؛ قلنا له: اخرج يا بن الهيبان فاستسق لنا؛ فيقول: لا والله حتى تقدِّموا بين يدي مَخْرَجَكُم صدقة! فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مُدَّين من شعير، قال: فنخرجها؛ ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتِنا فيستسقى لنا؛ فوالله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة وَنُسْقَ. وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً؛ ثم حضرته الوفاة عندنا؛ فلما عرف أنه ميِّت؛ قال: يا معشر يهود؛ ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: أنت أعلم! قال: فإنِّي إنما قدمت هذه البلدة؛ أتوكف خروج نبيٍّ قد أظل زمانه؛ وهذه البلدة؛ مهاجره؛ فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه. وقد أظلكم زمانه؛ فلا تُسْبقنَّ إليه يا معشر يهود؛ فإنَّه يبعث بسفك الدماء؛ وسبي الذراري والنساء ممن خالفه؛ فلا يمنعنكم ذلك منه. فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ؛ وحاصر قريضة؛ قال هؤلاء الفتية (وكانوا شباباً أحداثاً): يا بني قريضة؛ والله أنه للنبيِّ الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى؛ والله إنه لهو بصفته؛ فنزلوا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم. قال ابن هشام؛ قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود اهـ.

وأقول: إنَّ الأخبار من هذا النوع؛ تخرج عن حدّ التواتر المعنوي؛ وقد مرَّ لمخيريق ذكر في الفصل الرابع، وكان حبراً عالماً كثير المال من النخل؛ وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته؛ وغلبت عليه أُلْفَةُ دينه؛ فلم يزل على ذلك؛ حتى كان يوم أُحد؛ وكان يوم السبت؛ فقال: يا معشر اليهود؛ والله إنكم لتعلمون أنَّ نصرَ

محمَّدٍ عليكم لَحَقٌّ! قالوا: فإن اليوم يوم سبت! قال: لا سبت؛ ثم أخذ سلاحه وخرج؛ حتى أتى النبيَّ ﷺ بأُحِدْ؛ وعهد إلى من ورائه من قومه: إنْ قُتِلْتُ هذا اليوم؛ فمالي لمحمد؛ يصنع فيه ما أراه الله تعالى. فقاتل حتى قُتِل؛ فكان رسول الله ﷺ يقول: «**مخيريق خير يهود**» وقبض أمواله؛ فعامَّةُ صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها. وعن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس(١)؛ فقال: اخرجوا إليَّ أعلمكم، فقالوا: هو عبد الله بن صوريا؛ فخلا به رسول الله ﷺ؛ فناشده بدينه؛ وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم؛ من المن والسلوى؛ وظللهم من الغمام: أتعلم أنِّي رسول الله؟ قال: اللهم نعم؛ وإنَّ القوم يعرفون ما أعرف؛ وإنَّ صِفَتَك ونَعْتَكْ لمُبَيَّنٌ في التوراة؛ ولكن حسدوك. قال: فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي؛ عسى أن يتبعوك ويسلموا؛ فأسلم. وعن صفية بنت حُيَيْ؛ رضوان الله عليها؛ قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ ونزل قباء؛ غدا عليه أبِي؛ حُيَيْ بن أخطب؛ وعَمِّي أبو ياسر بن أخطب؛ مُغَلِّسِين(٢)؛ فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس؛ فأتيا كَالَّيْنِ؛ كسلانين؛ ساقطين؛ يمشيان الهوينا؛ فهششت إليهما؛ فما التفت إليَّ أحدٌ منهما؛ مع ما بهما من الهم؛ فسمعت عمِّي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ (يعني المبشر به في التوراة) قال: نعم والله، قال أتثبته؟ قال: نعم؛ فقال: في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيت.

وأخرج ابن هشام؛ عن ابن إسحاق؛ قال: اجتمع أربعة نفر نجيًا عند صنم من أصنامهم؛ يُعَظِّمُونه وينحرون له، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. وتعاهدوا على أن يتصادقوا؛ ولا يكتم بعضهم بعضاً شيئاً؛ فقال بعضهم لبعض: والله ما قومكم على شيء؛ يطيفون بحجر؛ لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع؛ فالتمسوا لأنفسكم. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيَّة، فأما ورقة فاستحكم في النصرانية؛ وكان من تصديقه

---

(١) بيت المدراس: هو بيت يدرس فيه اليهود التوراة.

(٢) الغلس: ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح.

لرسول الله ﷺ؛ عند بدء الوحي؛ ما هو معروف في الصحيح. وأما عبد الله بن جحش؛ فأقام على ما هو عليه من الالتباس؛ حتى أسلم وهاجر إلى الحبشة؛ ففارق الإسلام؛ ومات نصرانياً. وأما عثمان بن الحويرث؛ فقدم على القيصر وتنَصَّر؛ وحسنت منزلته عنده؛ وله خبر طويل.

وأما زيد بن عمرو؛ فكان يقول: يا معشر قريش؛ والذي نفسُ زَيْدٍ بيده؛ ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري! ثم يقول: اللهم إنّي لو أعلم أيَّ الوجوه أحبُّ إليك؛ عبدتك به؛ ثم يسجد على راحته؛ وله في ذلك أشعار كثيرة. ثم خرج يطلب دين إبراهيم؛ ويسأل الأحبار والرهبان؛ حتى بلغ الموصل والجزيرة، ثم أقبل وجال الشام كلها؛ حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء؛ كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون؛ فسأله عن دين إبراهيم؛ فقال له: ما أنت بواجدٍ من يحملك عليه اليوم؛ ولكن قد أظَلَّ نبيٌّ؛ يخرج من بلادك التي خرجت منها؛ يبعث بدين إبراهيم؛ فالحق بها؛ فإنه مبعوث الآن؛ هذا زمانه. وكان زيد قد شام اليهودية والنصرانية؛ فلم يرض شيئاً. فخرج حين ما قال له الراهب ما قال؛ سريعاً يريد مكة؛ حتى إذا توسط بلاد لخم؛ عَدَوا عليه فقتلوه؛ فرثاه ورقة بن نوفل بما هو معروف.

وأخرج ابن هشام عن ابن إسحاق؛ أنه كان موجوداً في الإنجيل قول عيسى عليه السلام: من أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي؛ ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا؛ وظنوا أنهم يعزُّونني؛ وأيضاً للرب؛ ولكن لا بدَّ من أن تتم الكلمة التي في الناموس؛ أنهم أبغضوني مجاناً؛ فلو قد جاء؛ المنحمنا؛ هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب؛ روح القدس؛ هذا الذي من عند الرب؛ إذا خرج فهو شهيد علي؛ وأنتم أيضاً؛ لأنكم قديماً كنتم معي في هذا؛ قلت لكم؛ لكيما تشكوا.

والمنحمنا بالسريانية؛ محمد؛ وهو بالرومية الفارقليط؛ ﷺ؛ فقد أخذ الله الميثاق على كُلِّ نبيٍّ بعثه قبله؛ بالإيمان به؛ والتصديق والنصر له على من خالفه؛ وأخذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك؛ إلى كُلِّ من آمن بهم وصدقهم؛ فأدَّوا من ذلك ما

كان عليهم من الحقِّ فيه، وقال جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١).

وقد سبق عن القاضي عياض؛ أن اسمه ﷺ؛ مادماد. وقد بدا لي أن أذكر عبارته بنَصِّها؛ قال: ومن أسمائه في الكتب ﷺ: المتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدس، وروح القدس، وهو معنى الفارقليط في الإنجيل؛ وقال ثعلب: الفارقليط هو الذي يُفَرِّق بين الحق والباطل. ومن أسمائه في الكتب السالفة: مادماد؛ ومعناه طيِّبْ طَيِّبْ؛ وحطيا، والخاتم، والحاتم؛ حكاه كعب الأحبار. قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم الأنبياء، والحاتم؛ أحسن الأنبياء خلقاً وخلقاً؛ ﷺ اهـ.

والشوط بطين؛ والشأو بعيد؛ والفضاء واسع؛ والبحر عميق. وما أدري أيرجع المؤلِّف(٢)؛ وفقنا الله وإيَّاه؛ بعد هذا؛ إلى الصواب؛ ويرجع عن قوله: بإيمان اليهود والنصارى اليوم؛ على حالهم؛ أم يصر ويقول: معزى وإن طارت(٣).

■ دفع شبهة، وتأكيد حجة:

ربما يشكل على من لا رويَّة عنده؛ عدم اطلاع سلمان الفارسي على البشارة الأولى؛ مع أنها بشارة كتابه؛ ونتيجة علم قومه؛ فكيف خَفِيَتْهُ؛ مع شِدَّة تطلُّعِه؛ وكثرة تشوُّقِه؛ حتى طاف البلاد؛ وتقلَّب في الأخذ عن الأساقفة؛ إلى أن انتهى إلى صاحب عمُّورية؛ فقال له: أي بني؛ والله ما أعلم؛ أصبح اليوم أحد على مثل ما كُنَّا عليه من الناس؛ آمرك به أن تأتيه؛ ولكن قد أظَلَّ زمان نبيٍّ؛ هو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) مؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٣) مثل معناه الاستمرار على الخطأ مع بيان الحق وقد سبق شرحه.

مبعوث بدين إبراهيم؛ يخرج بأرض العرب؛ مهاجره إلى أرضٍ بين حرَّتين؛ بينهما نخل؛ به علامات: يأكل الهديَّة ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة؛ فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فأفعل.

والجواب: اندفاع الأشكال من أصله؛ بما جاء في قصته؛ من قول أبيه له: دين آبائك خير من دين أصحاب الكنيسة؛ فقلت له: كلا؛ فلما خافني؛ جعل في رجلي قيداً.

فمن انتهى به الخوف من تعلُّم ابنه؛ إلى أنْ قَيَّدَهُ؛ كيف يُمَكِّنه من الاطلاع على تلك البشارة؛ التي فيها سقوط دينه؟؛ والله أعلم.

❋ ❋ ❋



الفصل الثاني عشر



الفصل الثاني عشر

قد فرغت من بيان كفر أهل الكتاب؛ وحكم من شكَّ فيه، وخرجت من إثبات الحجة؛ بأنَّ أهل الكتاب لم يتم إيمانهم بكتبهم؛ لجحودهم ما فيها من البشائر بمحمد ﷺ؛ فضلاً عما يدَّعيه المؤلِّف من كونهم مؤمنين؛ وأنهم ناجون؛ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولو أن المؤلف دعا إلى التسامح والتصالح؛ والتعاون على ما يعمر البلاد ويفيد العباد؛ ويكون سياجاً للأمن والعدل؛ ومنجى من الفساد؛ لكان الأمر ممكناً؛ لأن الإسلام لم يجرح خاطر أحد بِذَمٍّ نبيِّه؛ والغضِّ من زعيم دينه؛ بل جاء بتصديق جميع الأنبياء؛ والثناء عليهم؛ والشهادة لهم بأداء الأمانة؛ وتبليغ الرسالة على أحسن وجه وأتم حال؛ ولأنه لا يأبى الصلح الشريف، وقد قال جلّ ذكره؛ في سورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١). وكان من المكارم التي بعث لإتمامها ما انطوى عليه قول زهير:

وَمَنْ يَعصِ أطرافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ ... يُطِيعُ العَوَالِي ركبَّتْ كُلَّ لَهْذَمِ

بل قد أجاب قريشاً ومن لفَّهم؛ إلى صلح الحديبية؛ وفي ظاهره الغبن؛ حتى لقد تذمر منه ابن الخطاب، ولكن كان في طيِّه اختلاط المسلمين بالمشركين؛ فعرفوا من نواميس الدين؛ ما لا يبقى معه الجحود إلّا للمعاندين؛

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

فصحّت تسميته بالفتح المبين. وقد استدل الأستاذ الحكيم على تسامح الإسلام، بقول أحد مؤرخي الأمريكان (واسمه درابر): إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء؛ لم يقتصروا في معاملة أهل العلم؛ من النصارى النسطوريين؛ ومن اليهود؛ على مجرد الاحترام؛ بل فوَّضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام؛ ورقُّوهم إلى المناصب في الدولة؛ حتَّى إن هارون الرشيد؛ وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه (هو حنا ابن ماسويه الشهير)، وبقوله أيضاً: كانت إدارة المدارس مفوَّضة؛ مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء؛ إلى النسطوريين تارة؛ وإلى اليهود أخرى. ولم يكن يُنْظَرْ إلى البلد الذي عاش فيه العالم؛ ولا إلى الدين الذي ولد فيه؛ بل لم يكن يُنْظَرْ إلّا إلى مكانته من العلم والمعرفة. ثم ذكر الأستاذ طائفة ممن حظِيَ من الأجانب لدى خلفاء الإسلام.

وفيه من الدلالة؛ على أن الإسلام رحب الجانب؛ واسع الفناء؛ سهل الشريعة؛ ما لا مزيد عليه. ولكن يعلم الله؛ هل كان داربر يقول ذلك؛ عن طبيعة خاطر؛ وسلامة نيَّة؛ أو يريد به غشَّ المسلمين؛ واستغواء المخدوعين منهم؛ حتى يلقوا إليهم بأزِمَّة التعليم؛ فيتمكنوا من إضلال أبنائهم؛ أو تنصيرهم كما يشاؤون، فإنَّ الخلفاء إنما كانوا يعتمدون على أهل الكتاب؛ في التعليم وغيره من الأمور المهمة؛ إنْ صَحَّ ذلك؛ عند القوَّة؛ والثقة بالتمكن من إبعادهم عند أية تهمة تحوم عليهم. أما عند الضعف؛ فلا يمكن مثل ذلك؛ لأنَّ فيه خروج الأمر عن الضبط. ولقد كان ابن الخطاب يولِّي بعض الفجرة الأقوياء؛ ثِقَةً؛ بأنَّ رجله على أصمختهم؛ ويستبر من أخبارهم في كل ممسى ومصبح؛ كأنما يبيت مع أحدهم في فراش واحد؛ فيكونون نعمةً عليه؛ له قُوَّتُهُمْ وعليهم فجورهم. وقد أراد عثمان أن يتقيَّل هذه الآثار؛ ويتخذ له مبرراً من صنيع ابن الخطاب؛ فوقع فيما لا تحمد عقباه.

وما عن تقصير أخَّرت بعض ما أريد ذكره؛ عن سماحة الدين الإسلامي؛ من السُّنَّة المطهرة؛ ولكن ليكن ختم ذكره مسكاً. فقد أخرج الطبراني في الكبير؛ وأبو يعلى في مسنده؛ عن ابن عباس؛ قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحب؟

قال: «**الحنيفة السمحة**». أقول ومصداقه قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١] وقوله في المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[٢]. وأخرج الطبراني وأبو يعلى أيضاً؛ أنه ﷺ؛ قال: «**أيها الناس إن دين الله عز وجل في يسر، يقولها ثلاثاً**». وفي الحديث المتفق عليه: «**يَسِّرا ولا تُعَسِّرَا**». وقوله: «**الدين يسر؛ ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلّا غلبه**»، ومر في الفصول السابقة من هذا النوع؛ ما لا حاجة معه إلى الإسهاب. وأما النصارى؛ فلما جبلهم الله عليه من محبَّة المؤمنين؛ واطِّراح الكبر؛ ولِمَا بناهم عليه من الرأفة والرحمة؛ حسبما مرَّ في غير هذا الفصل؛ من سورتي المائدة والحديد.

أما التسامح بيننا وبين اليهود؛ فإنه كالمُتَعَسِّرْ؛ إن لم يكن بالمُتَعَذِّرْ؛ لغِلِّ قلوبهم؛ وضِغْنِ صدورهم؛ واندماجهم على اللؤم؛ كما سبق في الفصل السابع. وقد جاء في الخبر المرفوع: «**ما خلا يهودي بمسلم قط إلّا همَّ بقتله**». هذا فيما بيننا وبينهم، أما فيما بينهم وبين النصارى؛ فالغل القمل والجرح الذي لا يندمل. وهل يمكن للنصارى أن يغُضُّوا الطرف عنهم؛ ويطووهم على غرهم؛ والحال أنهم يستهلون بأنَّ عيسى عليه السلام؛ ولد بغيّة؛ وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم؛ كما سبق في البشارة الثانية؛ من الفصل الحادي عشر: إنَّه كان كاذباً؟ هذا والله ما لا تبرك عليه الإبل؛ ولا يُسَلِّم به من يعقل. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٣].

ومع ذلك فإن اليهود لا يزالون يبتغون للنصارى الغوائل؛ ويحفرون لهم الحفائر؛ ويتربصون بهم الدوائر؛ ويدبِّرون لهم الضرَّاء؛ ويفتلون لهم في الذرى والغوارب؛ وإنما كان الأمر كما قال سديف:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

ذُلَّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمُ كَحَزِّ المَوَاسِي

وكم قال المتنبي:

أبْدَى العِدَاةُ بِكَ السُّرورَ كأنَّهُمْ فَرِحُوا وَعِنْدَهُمُ المُقِيمُ المُقْعَدُ

ولقد أخطأ النصارى خطأً فاحشاً؛ وأساؤوا إلى المسيح وإلى العذراء؛ إساءة لا ينالها التكفير؛ ولا يؤثر فيها التعميد؛ بتقريبهم من المناصب؛ وتقديمهم في المراتب، أفكان ذلك طمعاً في أموالهم التي تكبروا بها حتى على مولاهم؛ كما في الآية ١٨١ من آل عمران السابقة في الفصل الثاني؟. وكيف يكون ذلك؛ والنصارى على ثروة ضخمة؛ قد ألقوا بأيديهم على ناصية الزمان؛ وعركوا أذن الدهر، والله جل شأنه يقول للفقراء من المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟[1].

أفيحسب النصارى؛ أنَّ اليهود نسوا ما صار عليهم من قسطنطين؛ قبل الهجرة بثلاثة مائة سنة؛ من قطع آذانهم؛ ثم طردهم؟ وما كان في القرن المسيحي الخامس؛ من طردهم؛ وهدم كنائسهم؛ ومنع عبادتهم؛ وإبطال شهادتهم؛ وقتل الكثير منهم؛ ونهب الأموال جميعاً.

ولم يكف ملك الملوك الرومي ارتكاب ذلك منهم؛ حتى هيَّج عليهم ولاة الممالك الأخرى؛ فتحملوا من آسيا إلى أقصى أوروبا. ثم كُلِّفُوا قبول المسيحية في فرنسا وإسبانيا؛ كما نقله الشيخ الهندي رحمه الله؛ عن رجال اليهود.

ثم نقل عنهم؛ أن الكاثوليك كانوا يسمونهم كفاراً؛ ويجرون عليهم أحكاماً قاسية. منها انتزاع أولادهم ليتربوا في المسيحية؛ ونُقِلَ عنهم: أن اليهود أُجْلُوا من فرنسا سبع مرات؛ وأنَّ اليهود الذين أجلوا من إسبانيا؛ لا يقلون عن مائة ألف وسبعين ألف بيت. وقتل منهم ونهب؛ في النمسا؛ العدد الكثير؛ وما نجا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

إلّا الذين تنصروا. وكان الإنكليز اتفقوا على ظلم اليهود؛ فقتلوا أنفسهم؛ وصاروا أذِّلاء في هذه المملكة؛ يقتلونهم وينهبونهم؛ إلى آخر ما أسهب فيه من ذلك القبيل؛ وهو في الصفحتين ٢٠٤ و٢٠٥ من الجزء الثاني من إظهار الحق.

أفَيَتَوَهَّمْ النصارى أنهم نسوا تلك الأحقاد؛ وأنها استحالت الصهباء؟ لا والله؛ وإنَّ تحت الرماد لوميض نار؛ وإن الحسائك لترامي بالشرار[١]. وهل من بغضاء أكبر من قذفهم للصديقة مريم العذراء؛ المبرأة في كتاب الله العزيز؛ الذي لم يأت ببراءة أحد من النساء سواها؛ وسوى عائشة الصديقة؟

فلينظر الناظر؛ فرقان ما بين المسلمين واليهود؛ في العواطف والنيَّات نحو مريم ابنة عمران عليها السلام؛ التي أحصنت فرجها. وايم الله؛ ليلاقُنَّ منهم يوماً عصيباً؛ إن لم يخنقوا الشرَّ في مهده؛ ويُعِدُّوا للأمر عدَّتُه؛ وينتبهوا له قبل وقوعه؛ وينظروا إلى دسائهم بعين الحزم والحذر. وسيذكروا ما أقول لهم؛ والله عليه وكيل. فإني لم أقله إلّا من العيون الصافية؛ ولم أستَقِهِ إلّا من الينابيع العذبة الباردة؛ ولم أُعَوِّل فيه إلّا على الآيات المقدسة[٢]؛ التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وفي حفظي من زمن بعيد؛ بالواسطة عن التلمود (وهو كتاب ألّفه فقهاؤهم؛ أعني اليهود بالتدريج؛ جيلاً بعد جيل؛ كالتفسير للتوراة؛ حتَّى انتهى حجمه إلى نصف حمل بغل؛ وكانوا يزعمون أنهم يسمعون صوت الإلهام؛ إذا اختلفوا عند تأليفه؛ يقول لهم: إنَّ الحق مع فلان) أنْ قد جاء فيه ما معناه: إنَّ الله سخر لنا هذين النوعين من الخلق؛ وهم النصارى والمسلمون؛ حلالٌ لنا دماؤهم وأموالهم. نأخذها بأيِّ حيلة؛ وننتزعها بأيِّ وسيلة؛ نهباً؛ أو سرقة؛ أو غيلة؛ أو سمًّا؛ أو اختلاساً. وعلينا أن نساترهم العداوة؛ ونظهر لهم الصداقة؛ ونعمل

---

(١) لا زالت كتب المؤلفين من مشاهير النصارى تصدر وتظهر فيها العداوة الشديدة لليهود ومن أمثلتها كتاب اليهودي العالمي لهنري فورد وغيرها كثير.

(٢) من القرآن الكريم.

على كل ما يضرُّهم في الأموال والنفوس؛ ونأمر بناتنا بالتحرُّش بهم؛ حتى يقدِرْنَ على شيءٍ من أموالهم وأرواحهم. أو ما يقرب من هذا على قاعدة (إذا لم تغلب فاخلب).

وعلى بعضه شاهد عندنا من كتاب الله تعالى؛ حيث يقول في سورة آل عمران: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١]. وما أظن شيئاً مما في تلمودهم يخفى على النصارى؛ وهم قد فتَّشوا سمع الأرض وبصرها؛ حتى تطلعوا إلى اكتشاف النجوم؛ واعتزموا الرحلة إلى بعض السيَّارة. وإذا كانوا يعرفون ذلك؛ وهم على ما هم عليه من إدناء اليهود وموالاتهم، فما هو إلّا خطبٌ إد؛ وإشكال عويص؛ يتعذَّر حله على المنطق. وما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن؛ ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

أما ما يكرره المؤلف في غير موضع من كتابه؛ من عدم إمكان تأكد السلام في الأرض إلّا بالوازع الديني، فهو الذي أنطقني الله به من قبله؛ حسبما سمعت فيما مرَّ عن نهج البردة في الفصل العاشر، إذ الدين وحده هو الذي يعرف بالغاية من الإيجاد؛ ويقرر الصلة بين الخلق وبين الذي أوجده؛ ويُعَرِّف كل واحد بما يلزمه لنفسه وأهله؛ وعدوِّه وصديقه؛ ووطنه؛ وخاصة الناس وعامتهم؛ وهو الذي يرشده إلى سياسة الشهوات؛ وزَمِّها بزمام العقل؛ وإبقاء ثنييه في يديه، إذ الإنسان مملكة تامة بمفرده؛ تضمُّ من الشهوات المختلفة أحزاباً؛ ومن الرغائب المضطربة أفواجاً. وما يريش جناح الفتن؛ ويستورى زناد الشرور؛ كالانشقاق الداخلي، ولم نر أُمَّةً قط انهزمت انهزاماً فاضحاً؛ إلّا من تلك الناحية[٢]، وأنَّى يُتَصَوَّرْ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٢) كأنما الإمام يستشف من قبل سبعين سنة ما سيحدث في هذه السنوات في العالم العربي من الاضطراب والفوضى وسقوط الحكومات ولولا أن الوازع الديني بقي يزم الأمور ويكبت الشهوات ويحفظ الأموال ويصون الأعراض لانتهى الأمر إلى فساد كبير وشر مستطير.

الإصلاح في الخارج؛ بدونه في الداخل؛ وفاقد الشيء لا يعطيه.

ومن هنا ينفتح باب واسع؛ لا ينبغي أن يكون ضميمة إلى غيره، بل لا بدَّ من إفراده بمقال فضفاض؛ من لسان نضناض[١]. فلزم العود على البدء؛ من استحالة اندفاع البوائق؛ وانكفاف الطوارق؛ إلّا بالدِّين، إذ لا يمكن بسواه ضم الشت؛ ونظم الشمل؛ ومعاذ الله أن يؤتمن من لا عدالة له في دينه. وليت شعري؛ هل لِمَا يسمونه مجلس الأمن اليوم؛ التفاتٌ إليه؛ وتعويلٌ عليه؛ أم؛ لا؟ فإن كانت الأخرى؛ فما هو إلّا على شفير شَرٍّ هائل، وهلاك عاجل، وعناءٍ وبؤس، وحربٍ ضروس، وإن توَهَّموا أنهم يحسنون صنعاً. وإن كانت الأولى؛ فأحرَّ بأن تخمد النائرة[٢]، وتسكن الثائرة؛ نوعاً ما، إذ لا يستحيل ذلك؛ وإن اختلفت الأديان؛ لأن الأصول كما تقرر؛ على اتفاق.

وَلَكِنْ فِطَامَ النَّفْسِ أثْقَلُ مَحْمَلاً مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ حين تَرُومَهَا

وعند وجود شيء من الإنصاف؛ يعفو ما تعذَّر، ويَسْهُل ما توعَّر. أمَّا مع عدمه؛ فلا.

فَلَمْ تَزَلْ قِلَّةَ الإنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَو كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

ولشدّ ما أحكم المتنبي نسجه؛ وأبدع نظمه؛ فصار أحقَّ به من الأول؛ الذي يقول:

إذَا أنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الهُجْرَانِ إن كَانَ يَعْقِلُ

ولئن دلَّت الآيات والأخبار على امتناع ذلك كله الآن؛ فليست بالمانعة من بعضه؛ ونحن مع النصارى واليهود وغيرهم؛ على اتفاق؛ في انتظار الشخص الذي تنتهي به الحروب؛ وترتفع الشحناء؛ ويفيض العدل؛ وتضع كل ذات حِمَّة حمَّتها؛ وتطبع السيوف سككاً؛ والرماح مناجل. إلّا أنَّا مختلفون في تعيين

(١) أي متحرك كناية عن الفصيح.
(٢) النائرة: العداوة والشحناء.

الاسم، والخطب إذاً يسير؛ والتقارب من اليوم غير عسير.

وَمَا الحَرْبُ إلّا مَا عَلِمتُم وَذُقتُم وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
فَإنْ تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضْرَمُ إن أضْرَمْتُمُوهَا فَتضَرَمِ

وسأختم هذا الفصل بقصيدة في ذلك؛ أنشأتها في ٢٩ من شوال سنة ١٣٦٥؛ تحوي جملة من الحقائق؛ المستنتجة من التنزيل والسنة الثابتة.

ولقد تقدم إليَّ؛ أحد الشبان المتنورين في تريم؛ بسؤال؛ قبل أن تنشب الحرب الأخيرة بنحو من ثمانية أشهر؛ فأمليت عليه الجواب؛ بشرط أن يبادر بنشره؛ فلم يَفِ بوعده؛ بل أضاعه، ولو شئت لسمَّيته.

وملخص السؤال: هل تكون حرب أم لا؟ ومن معنى الجواب:

إنَّ الأوروبيين انتهوا من حصافة العقل؛ ورجاحة الرأي؛ وغزارة العلم؛ إلى ما لا غاية بعده؛ وهم أحرص الناس على السِّلْم؛ لئلا تصاب مدائنهم الزاهية؛ ومصانعهم العامرة؛ بشيء من الأذى والتخريب، وظنِّي أن لو طلبت منهم قارة من الذهب التبر؛ في سبيل التفادي من الحرب؛لنجعوا بها طيِّبَةً نفوسهم؛ باردةً خواطرهم؛ ولكن لا بدَّ من قوع الحرب. ومتى وقعت؛ فسينال الغادي والرائح؛ والقاعد والقائم؛ منها شرٌّ كثير، ولكنه رخيص بالنسبة إلى ما يقع إزاءه؛ من طمأنينة القول بالإيمان بوجود الصانع الحكيم؛ الذي إذا أراد أمراً؛ سلب ذوي العقول عقولها؛ حتى تصبح مختارة لما قضاه عليها؛ مما يصادم ألبابها؛ ويخالف تدبيرها. ويُرَكِّب فيها من شهوات الانتقام؛ ما يُغَطِّي على سرائر العقول. فترى الذين يسهرون على الأمن؛ ويحافظون على السلام؛ ويبذلون جهدهم في نشر الإخاء؛ كيف يخرجون عن طباعهم؛ فيلبسون جلود النمور؛ ومخالب النسور. وتستحيل رأفتهم غِلْظَة وقسوة؛ فلا يفكرون إلّا في اختراع الآلات لحصد الأرواح؛ وإيتام الأطفال؛ وهدم المدائن؛ وتحريق العمائر؛ كتلك الرعناء التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

فإذا وقعت هذه الحرب؛ فلتزدادوا إيماناً بالله وعلماً؛ بأنَّه لا يقدر أحد على

أن يُدَبِّر لنفسه؛ وإن الحكم لله العليِّ العظيم، وقد قال من لا يرقى إليه الطير: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ...﴾[١].

وقال القطامي:

وَمَا يَعلَمُ الخَيرَ امرؤٌ قبلَ أنْ يَرَى وَلا الشَّرَّ حتَّى تَسْتَبِينَ دَوَائِرُه

نعم والله؛ لا بُدَّ من نشوب حربٍ طاحنة؛ لا ينجو الغالب منها؛ إلّا بجريعة الذقن[٢]. والأدلة على ذلك قائمة[٣].

أمَّا من كتاب الله تعالى فقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[٤]. فبمجرد نزولها؛ عرف ﷺ أنه نُعِيَتْ إليه نفسه؛ فودَّع الناس. وكذلك عرف أذكياء الصحابة؛ رضوان الله عليهم؛ أنها أمارة وفاته ﷺ. وهل بقي في نضارة العمارة؛ وغضارة الحضارة؛ في القارة الأوروبية اليوم؛ قيد شعرة من النقص؛ حتَّى تحتاج إلى التمام والكمال؟ كلا؛ وليس بعد ذلك إلّا الانهيار والاندثار[٥].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) أفلت بجريعة الذقن: من الأمثال العربية؛ ومعناه: أفلت بما بقي من روحه أو بعد إشرافه على الهلاك.

(٣) يظهر لنا من كلام الإمام هنا؛ بعد نظره؛ وثاقب رأيه؛ ودقة فهمه؛ وحكمة سياسته؛ في استنباطه الأسباب المانعة للحروب ومعرفته الأسباب المؤدية للحروب ولم أقرأ مثل هذا الكلام الحكيم من قبل؛ ولم أسمع شخصياً بمثله؛ وهو شاهد على عبقرية هذا الإمام حيث لا يقول مثل كلامه هذا إلّا من كان يعيش في قلب أحداث العالم؛ بينما هو يعيش في عزلة عن العالم؛ في حضرموت أكثر بلاد الدنيا عزلة عن أحداث العالم في ذلك الزمن.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٥) يشبه كلام الإمام هنا نظرية نهاية التاريخ لفوكاياما ولكن بمفهوم إسلامي مختلف؛ فهو يعتقد أنَّ في تمام كل شيء بداية نهايته وقد دلّل على كلامه بعدة شواهد كما أن لابن خلدون كلاماً مشابهاً في مقدمته وقد أثبتت الأيام فشل نظرية فوكاياما وصحة المفهوم الإسلامي.

وأمَّا من السُّنَّة فما صَحَّ أنَّه ﷺ؛ كانت له ناقة لا تُسْبَقْ؛ فجاء أعرابي على قعود له؛ فسبقها. ولما عرف النبي ﷺ الكراهية في وجوه الأصحاب؛ قال لهم: «**حَقٌّ على الله؛ ما رفع شيئاً من أمر الدنيا إلّا وضعه**». وما سمع الناس بمثل الارتفاع الدنيوي الذي انتهت إليه الديار الأوروبية؛ اليوم؛ فلا بدّ ضربة لازب من الاتِّضَاع[1]. وأما من أمثال الناس فقولهم:

إذا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّع زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ

وقول أبي العتاهية: أَسْرَعَ في نقضِ امرىءٍ تَمَامُه.

وقول المعرِّي:

إذَا كُنْتَ تَبغِي العِزَّ فَابْغِ تَوَسُّطاً ... فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المُتَطَاوِلُ

تُوَقَّى البُدُورُ النَّقْصَ وَهِيَ أَهِلَّةٌ ... وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوَامِلُ

والشواهد عليه كثيرة جداً.

وأما من الطبيعة التي لا تتبدَّل؛ والسُّنَّة التي لا تتغيَّر؛ فهو أنَّ كُلَّ ما لا يطير من الحيوان؛ إذا أراد الله إهلاكه؛ خلق له أجنحة فطار؛ كالأرضة وأنواع النمل. قال عبد الحميد الكاتب[2]: لو أراد الله بالنملة صلاحاً؛ لما جعل لها جناحاً، وقال أبو نواس:

وإذَا اسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أجْنِحَةٌ ... حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبُهْ

وحكم الله في بريته واحد، وقد طار الإنسان؛ فاقتضت سُنَّةُ الله؛ التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً؛ أنْ يهلك. فإذا تَرَكَّب القياس من المقدمات

---

(١) كما توقع الإمام قبل سبعين سنة بدأنا نشاهد في هذه الأيام بوادر التضعضع على الأمم الأوروبية في الشؤون الاقتصادية والصناعية؛ وغيرها من مظاهر القوة. بينما نشاهد ارتفاع الأمم التي كانت مستضعفة مثل الهند والبرازيل والصين وماليزيا.

(٢) عبد الحميد الكاتب من مشاهير الكتاب فارسي الأصل عربي النشأة عمل كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ثم قتله العباسيون مع هذا الخليفة. اشتهر برسائله البليغة.

الصحيحة؛ كانت النتيجة لا محالة الهلاك[١].

وَلا عِلْمَ لِي بِالغَيْبِ إلّا طَلِيعَةٌ   مِنَ الرَّأيِ لا يَخْفَى عَلَيهَا المُغَيَّبُ

نسأل الله أن يلطف بنا في قضائه؛ وأن يعافينا من بلائه. ومما أجازني فيه بعض علماء اليمن؛ هذا الدعاء؛ فأنا أكرره في هذا الموضع:

(يا رب يا رحيم؛ يا رب يا رحيم؛ ألطف بي في قضاك؛ ولا تجعل أمري لأحدٍ سواك؛ حتى ألقاك). هذا ما بقي بالذكر من الجواب؛ والله أعلم بالصواب.

وربما يقول قائل: إنَّ ما وُصِفَ به النصارى في سورتي المائدة والحديد؛ إنما كان قبل انفصالهم عن دينهم؛ أما الآن فلا؟ **فالجواب**: قد يكون ذلك؛ لكن الحسَّ يشهد ببقائه؛ وإن انحرفوا عن دينهم؛ على شيءٍ منه؛ وقد ظهر أثره وقتما اشتدَّت المجاعة بحضرموت. ولا يزال أخذهم بناصر الحرث؛ الذي لولاه لاقشعَرَّ النخل؛ وصوَّح الزرع إلى اليوم[٢]. أما نقصانه؛ فلا شك أنه من آثار انسلالهم لواذاً عن دين المسيح، ولله في خلقه شؤون.

■ وهذه هي القصيدة (٣):

اليومَ قد وَضَعَتْ أوْزَارَهَا الفِتَنُ   فَهَلْ تَجَلَّتْ وَوَلَّت إثْرَهَا المِحَنُ

(١) وقد ترتب على طيران الإنسان؛ واستخدام الطائرات في الحروب؛ إهلاك أعداد كبيرة من البشر؛ كما يتسبب سقوط الطائرات المدنية في إهلاك مجموعات من البشر.

(٢) قامت السلطات البريطانية بمشروع لتشجيع الزراعة بحضرموت أثناء الحرب العالمية أو بعدها وجلبت المضخات الزراعية وأعطت القروض للمزارعين ووفرت ورشة لصيانة المضخات كما قامت بعملية الإرشاد الزراعي للمزارعين.

(٣) وردت القصيدة في الأصل كاملة بحواشٍ سفلية مطولة وقد ارتأيت أن أوقف الاسترسال في القصيدة وأورد الشرح ثم أستكمل الأبيات وهكذا أعمل كلما ورد تعليق على الأبيات في حاشية سفلية مطوَّلة. وقد قال هذه القصيدة بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٣٦٥هـ.

واليومَ عِيدُ سُرُورٍ بَالسَّلامِ فَهَلْ ... يَدُومُ ذلكَ أم يَلْوِي بِهِ حَزَنُ
غَيْبٌ بِهِ استأثَرَ البَارِي وَلَيْسَ لَهُ ... مَدَى تُطِلُ عَلَى مَكْنُونِهِ الفِطَنُ
لَكِنَّ تفصيلَ مَا يَأتي بِأجْمَعِهِ ... كَمِثْلِ مَا مَرَّ فِي التَّنْزِيلِ مكتَمِنُ
وَفِي لَوائِحِهِ قُربٌ لِمُلْتفِتٍ ... بالسَّمْعِ إنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ دَرَنُ
وَقَدْ تقَرَّأتَهُ فِي القُرْبِ فَانكَشَفَتْ ... لِي مِنْ خَفَايَاهُ مَا مِثْلِي بِهِ قَمِنُ
قَدْ جَاءَ فِي الرَّعْدِ أنْ لا بُدَّ مِنْ حَدَثٍ ... لِلْمُلْحِدِينَ قَرِيبٌ مَسُّهُ خَشِنُ

الإشارة بهذا إلى آخر الآية (٣١) من الرعد وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ونحوها الآية ٧٣ من المائدة وهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أضف إلى هذا ما سبق من جوابي؛ عن وقوع الحرب الأخيرة؛ قبل أن تكون؛ فإنَّ التدليل بما فيه باقٍ على الصلوحية.

وَغيرَهَا قَالَ إنَّ الحَرْبَ وَاقِعَةٌ ... وَالانْهِزَامُ لِمَنْ مَعْبُودُهُ وَثَنُ
أنَّى يَبُوخُ لَظَاهَا وَهْيَ كَامِنَةٌ ... وكُلُّ صَدْرٍ مِن القُوَّادِ مُضْطَغِنُ
لَئِنْ تَجلَّتْ غُيُومُ الحَرْبِ وَانكَشَفَتْ ... فَلِلْسيَاسَةِ أيضاً عَارِضٌ هَتِنُ
وَلا سَلامَةَ وَالأحْشَاءُ مُوغِرَةٌ ... مِنَ الحَسَائِكِ تُذْكِي نَارَهَا الإحَنُ
وَلا نَجَاةَ وَأطْمَاعُ الرُّؤوسِ فَشَتْ ... وَعِلَّةُ الرَّأسِ مَووفٌ لَهَا البَدَنُ
فَالنَّاسُ مِنْ أمْرِهِمْ هَذَا عَلَى وَجَلٍ ... لأنَّ هُدْنَتَهُمْ مِنْ تَحْتِهَا دَخَنُ
وَلَنْ تُقَلَّمَ أظْفَارُ الشُّرُورِ بِلا ... دِينٍ فَلا مَعْقِلٌ يُغْنِي وَلا جُنَنُ
وَقَدْ تَفَسَّخَتْ الألبَابُ مِنْ نَبَأٍ ... كَأنَّمَا الطِّفْلُ مِنْ أهْوَالِهِ يَفِنُ

قَذِيفَةٌ تَنْسِفُ الدُّنْيَا رَوَاجِعُهَا إنْ طَالَ فِي صُنْعِهَا للصَّاغَةِ الرَّسَنُ[١]
وَلا سَبِيلَ إِلَى تَحرِيمِهَا بِسِوَى عَهْدٍ وَثِيقٍ مِنَ الإيمَانِ يُؤتَمَنُ
لا كَهْفَ إلَّاه واقٍ مِنْ فَجَائِعِهَا إنْ قَدَّسُوهُ عَلَى قَانُونِهِمْ أمِنُوا
لا يَحْسِمُ الدَّاءَ إلَّا الاعتِقَادُ مَتَى أَرْسَى الدَّعَائِمَ طَابَ العَيْشُ وَالزَّمَنُ
وَكُلُّ دِينٍ وإنْ طَالَتْ طَوَائِلُهُ غَيْرَ المَسِيحِيِّ وَالإِسْلام يُمْتَهنُ
أمَّا هُمَا فَإِلى يَوْمَ القِيَامَةِ وَالدُّنْيَـ ـا لمالكيهما أصقاعها وَطَنُ

أما بقاء الإسلام محفوظاً إلى يوم القيامة؛ فالأدّلة عليه تفوت الحصر، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، والحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما؛ من طرق كثيرة: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله**»، وألفاظهم متقاربة، وفي رواية لمسلم وأحمد: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق إلى يوم القيامة فينزل عيسى ابن مريم؛ فيقول أميرهم: تعال فصلِّ بنا؛ فيقول: لا إنَّ بعضكم على بعض أمير**».

وأما الدين المسيحي فشاهده ما أخرجه مسلم في صحيحه؛ عن المستورد القرشي؛ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**» فقال له عمرو بن العاص: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ، قال لئن قلت ذلك؛ إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة، وأوشكهم كَرَّة بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف؛ وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك.

هَذِي حَقَائِقُ مِنْ فَحْوَى الكِتَابِ وَمِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ فَلا وَهْمٌ ولا ظَنُّ
وَقَدْ تَفَرَّسْتُ لِلْحَرْبِ التِي سَكَنْتْ فَجَاءَ مَا قُلْتَ حَقاً مَا بِهِ أفَنُ

---

(١) يشير هنا إلى القنبلة الذرية التي ألقيت على اليابان في نهاية الحرب العالمية ويبيّن في الأبيات التي بعدها أنه لا يقي من شرها ويحرم استعمالها مرة ثانية إلّا الإيمان والدين.

مِنْ آلِ عِمْرَان قَدْ بَيَّنتُ غَايَتَهَا أَيَامَ تَغْرَقُ فِي أَثْبَاجِهَا السُّفُنُ

(١) وخبر ذلك؛ أنَّ الضابط السياسي إنجرامس[١]؛ وهو الآن حيٌّ يرزق؛ تردَّد عليَّ أيام سطوة الألمان؛ وهبوب ريحهم؛ وتَغَلبهم على أكثر القارة الأوروبية؛ وإثخانهم في البحر والبر، وقال لي: ما رأيك في هذه الحرب؟ فقلت له: أكُلُّ النازيون الذين يَشِبُّونها مسيحيين أم ملحدين؟. قال: بل ملحدون؛ وقد تمرَّدُوا على النصرانية؛ وتبرأوا منها، قلت له: إذاً فأنا وَكُلُّ مسلم نعدك وعداً صادقاً؛ نشهد شهادة الحق عليه؛ بأنْ ستدور عليهم الدائرة، لأن الله جل شأنه يقول في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٢]. والمقصود هنا من الاتِّباع؛ الكافي للنسبة إلى المسيحية؛ وإن لم يكن إلّا اسمياً فقط؛ فلا يخالف ما ننكره من الإيمان الكامل؛ الذي لا بدَّ له من العمل بسائر مقتضياته؛ التي منها الاعتراف بنبيِّنا؛ والجري على ما بُشِّروا به منه في كتابهم، إذ تلك حقيقته؛ التي لا يوجد مثلها حتَّى عند المسلمين؛ باعتبار دينهم. ولقد صدق عليهم من أزمان الحديث المتفق عليه: «**لتتبعن سنن من قبلكم؛ يعني اليهود والنصارى؛ شبراً بشبر وذراعاً بذراع**»[٣] أو ما يقرب منه.

---

(١) هارولد انجرامس داهية من دواهي الإنجليز خبر حضرموت وأهلها وطباعها وتاريخها وثبَّت عليها السيادة البريطانية وتولى السلطة الحقيقية في الدولتين الكثيرية والقعيطية وأخضع قبائل حضرموت لمشيئة بريطانيا وكان في حضرموت عام ١٩٣٤ وكان يزور الإمام ابن عبيد الله ويحترمه لكن لم ينصفه فيما بعد في كتبه كعادة الأجانب والمستشرقين.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٣) (حديث مرفوع) حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْنُ يَحْيَى، ثنا ابْنُ مَرْيَم، أنبا أَبُو غَسَّان، حَدَّثَنِي زَيْد بْنُ أَسْلَم، عَنْ عَطاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدَرِي، أَنّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟». (من كتاب السنة للمروزي عن موسوعة الحديث).

ولقد نجمت في الإسلام أضاليل وأباطيل؛ يُتَبَرَّأُ منها. ولولا ضيق الوقت؛ لزدت فصلاً؛ أصف به ما طار في نصيب بلادنا؛ من لقاح الرهبانية؛ ومتاجرة منتحليها بالمغفرة؛ والدرجات العُلَى؛ وفتنة أتباعهم. بما يتذمر له الإسلام؛ ويملأ قلبه غيظاً؛ ويحشو صدره قيحاً. فإنك لترى أحدهم؛ إذا اجتهد في الحَلْف؛ حلف بمتبوعه منهم؛ فلا يحنث إذاً ولا يكذب؛ ولكنه يحنث ويكذب إذا حلف بالله. وإنهم ليطلبون من مشايخهم؛ دون الله: غفر الذنوب؛ وستر العيوب؛ وتيسير الأرزاق؛ وما أشبه ذلك. وما علموا أن أئمتهم من القَسَسْ[١]؛ قد دُفِعُوا عن هذه السلطة، فما لهؤلاء في تأريبها وتأكيدها؟

ولكن قد أدركني الملل ولحقتني السآمة؛ وفي منثوري ومنظومي ما يقوم بذلك. فلقد وقفت نفسي عليه قبل العشرين؛ وها أنا قد ذرفت فيه على الستين. فلا بلاغ إلّا بالله؛ فأسأله الثبات إلى الممات؛ على أحسن خاتمة وأقوم سبيل.

وما تزال طوائف الحلفاء مع تمرُّدِهم على أوامر الكنائس؛ يرعون ذمامها؛ ويعتقدون حرمتها. ولقد قرأت قصة تتويج عاهل الإنكليز الحالي[٢]؛ فتندَّى خَدِّي؛ لأنها دينيَّة محضة.

ومن هذه التعليقات الثلاثة؛ ينتصب أيضاً دليل على قولي: «وغيرها قال إنَّ الحرب واقعةٌ» إلخ.. إذ قد غاب عن فكري الآن؛ الدليل الذي بنيت عليه البيت؛ والحفظ يخون؛ لا سيَّما لمن وقف مثلي على منصف دقاقة الرقاب. فلقد صرت أتلعثم في الشاهد؛ الذي كنت أمر فيه مرَّ السهم؛ ثُمَّ لا تنطلق به لساني؛ إلّا إذا عدت ما قبله بإدراج؛ فقاتل الله ابن الرومي؛ لكأنَّما لحظني بطرف الغيب؛ إذ يقول:

---

(١) أعتقد أنه يقصد القسس الذين كانوا يمنحون النصارى صكوك الغفران بمقابل كبير ثم اختفوا مع ظهور النهضة بأوروبا.

(٢) الملك جورج السادس والذي تولى بين ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ وعاصر الحرب العالمية الثانية وله بنتان مرجريت والثانية إليزابيث التي هي ملكة بريطانيا الحالية وقد حضر حفل تتويجه عدد من زعماء العالم ومنهم السلطان القعيطي.

وَتَــالٍ تَــلا يــومــاً فَــأُنْــسِــيَ آيَــةً فَــأَعْـيَـتْ عَـلـيـهِ حِـيـنَ رَامَ انْـتِـهَـازَهَـا

فَـكَـرَّ عَـلـى مَـا قَـبْـلَـهَـا مُـتَـدَبِّـراً فَـثَـابَ لَـهُ فِـكـرٌ فَـأَفْـضَـى جِـجَـازَهَـا

فَـشَـبَّـهْـتُـهُ بِـابـنِ الـسَّـبِـيـلِ تَـعَـرَضَـتْ لَـهُ وَهْـدَةٌ فَـاسْـتَـصْـعَـبَـتْ حِـيـنَ رَازَهَـا

فَـقَـهْـقَـرَ عَـنْـهَـا قَـيْـسَ عِـشـرِيـنَ خُـطْـوَةٍ فَـجَـاشَ إِلـيْـهَـا جِـيـشَـةً فَـأَجَـازَهَـا

نعم؛ جاء أنَّ الأمم تجتمع قبيل قيام الساعة على عيسى؛ وتكون كلها أمة واحدة دينها الإسلام؛ وهذا لا ينافي ما نقول به من بقاء المسيحية إلى يوم القيامة؛ لأنها إنما انجلت من الشوائب؛ وصفت من الكدورات؛ ولبست بردها الطاهر القشيب. وعليه دليل من كتاب الله جلَّ وعلا وهو قوله في سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1]. وأيضاً فزمانه قصير جداً؛ لا يُعَدُّ شيئاً مذكوراً؛ بالنسبة لما سبقه من الاختلاف. ولهذا لا يخرم شيءٌ منه؛ ما سبق في المقدمة؛ والفصل العاشر؛ ولا يُغَبِّر عليه، ولأنه يعقبه شرٌّ كبير؛ بشهادة ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود مرفوعاً؛ ولفظ الأول: «**من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء**»، ولفظ الثاني: «**لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق**». وقد مرَّ في الفصل العاشر؛ حديث مسلم؛ في الريح الليِّنة التي تقبض روح كلّ مؤمن. وله في آخر حديث النواس ابن سمعان الطويل؛ في قصة الدجال وعيسى ويأجوج ومأجوج: «**إذ بعث الله ريحاً طيبة فتقبض روح كلّ مسلم ومؤمن؛ وتبقى شرار الناس؛ يتهارجون تهارج الحمر؛ فعليهم تقوم الساعة**». ولمسلم أيضاً: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله**». وهو عند أحمد أيضاً بلفظ: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول لا إله إلّا الله**».

والجمع بينها؛ وبين حديث: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة**»، السابق ذكره عن الصحيحين؛ وغيرهما؛ ظاهر. لأنَّ هذا من

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

أشراط الساعة؛ فهو مثل قيامها؛ وبمثله نقول في اجتماع الأمم على عيسى عليه السلام. ومن الأحاديث الواردة بشأنه في الصحيحين؛ قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً؛ فيكسر الصليب؛ ويقتل الخنزير؛ ويضع الجزية؛ ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**». وفي حفظي عن بعض روايات مسلم ما معناه: «**ويطوف الأرض ويترك القلاص**»[١]، إشارة إلى استغنائه عنها بنحو الطائرات. وفيها أيضاً: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم**».

أما المهدي؛ فقد جمع السيوطي من أحاديثه؛ وأوعى بما يتعذر معه العد؛ ولولا اختلافها في الوصف؛ لانتهت إلى التواتر المعنوي؛ أو زادت عليه. ولا شيء منها في الصحيح[٢]؛ ولم أر فيها ما يصرِّح باجتماع الخلق عليه؛ أمَّةً واحدة مسلمة، ولكن في حديثٍ عن عليٍّ: بنا يصبحون بعد عداوة الفتنة إخواناً؛ كما أصبحوا بعد عداوة الشرك إخواناً في دينهم. وفي آخرَ عن أبي هريرة: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي؛ فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق**». وفي آخرَ عن حذيفة: «**حتى يملك رجل من أهل بيتي تجري الملاحم على يديه ويظهر الإسلام**». وفي آخر: «**يستخرج الكنوز ويفتح مدائن الشرك**». وفي آخر: «**يقوم بالدين في آخر الزمان؛ كما قمت في أول الزمان؛ ويملأ الأرض عدلاً؛ كما مُلِئَتْ جوراً**». وفي آخر: «**وتستقيم له البلدان ويفتح الله على يديه القسطنطينية**». ولكنها قد فتحت من زمان؛ غير أنَّ بعضهم يذكر أخرى؛ ويصفها بما يقرب من صفة إرم ذات العماد. وفي آخر: «**حتى ينزل بيت المقدس؛ وتنقل إليه الخزائن؛ ويدخل العرب والعجم وأهل الحرب والروم في طاعته؛ من غير**

---

(١) وفي رواية مسلم عن أبي هُريرة أنهُ قال قال رسُولُ الله ﷺ: «**ولتُتركن القلاصُ فلا يُسعى عليها ولتذهبن الشحناءُ والتباغُضُ والتحاسُدُ وليدعُون إلى المال فلا يقبلُهُ أحدٌ**». والقلاص جمع قلوص وهي أشرف الإبل ومعناهُ أن يُزهد فيها ولا يُرغب في اقتنائها لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقُرب القيامة. وجاء الإمام هنا بمعنى بديع في قوله أن سبب ترك كرائم الإبل هو الاستغناء عنها بالطائرات كما نشاهده حالياً.

(٢) صحيح البخاري.

قتال؛ **حتى يبني المساجد بالقسطنطينية وما دونها**». وفي آخر: «**يملك الدنيا بأسرها**». وفي آخر: «**يستخرج أسفار التوراة من أحد جبال الشام فيحاج بها اليهود فيسلم على يديه جماعة منهم**». وفي آخر عن سلمان بن عيسى؛ قال: «**بلغني أنه يظهر على يديه تابوت السكينة؛ فإذا نظرت إليه اليهود أسلمت؛ إلّا قليلاً منهم**»(١). وأخرج ابن ماجه عن أنس مرفوعاً: «**لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق؛ ولا مهدي إلّا عيسى ابن مريم**». قال القرطبي: وإسناده ضعيف.

وقد أخذ العلامة ابن حجر ما أخذ عن السيوطي في فتاواه الحديثية؛ بدون عزو؛ وأحال على تأليفٍ له؛ سمَّاه: المختصر في علامات المهدي المنتظر. وما أخاله إلّا على رسالة السيوطي. وأطال ابن خلدون في الفصل (٥٣) من الفصل الثالث؛ من الكتاب الأول؛ في أخبار المهدي؛ وبالغ في توهين أحاديثه وخروجه؛ مبالغة نُسِبَ فيها إلى التعصُّب؛ وكان يَزِن بشيءٍ من النصب. وقال الحافظ ابن حجر: تواترت الأخبار النبويَّة؛ بأنَّ المهدي من هذه الأمة؛ وذكر عدة أحاديث؛ منها حديث الصحيحة الذي أسلفناه: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم**». وكلهم على اتفاق؛ أنه من ولد علي؛ إلّا المتنبي في قوله:

فَإِنْ يَكُنِ المَهْدِيُّ مَنْ بَانَ هَدْيُهُ   فَهَذَا؛ وإلّا فَالهُدَى ذَا؛ فَمَا المَهْدِي؟

والحمد لله رب العالمين؛ حمداً يوافي نعمه؛ ويكافئ مزيده؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم:

لِلخَلْقِ رَبٌّ كَرِيمٌ قَادِرٌ نَفَذَتْ   فِيمَا مَضَى وَالذِي يَأتِي لَهُ سُنَنُ

جَلالَةٌ لا يَنَالُ الوَهْمُ أقْرَبَهَا   قُوَى الخَلائِقِ طُرًّا عِنْدَهَا وَهَنُ

عَمَّ الأنَامَ بِجُودٍ مِنْهُ أسْبَغَهُ   تَهْمِي عَليهِمْ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ المِنَنُ

---

(١) حديث مقطوع: عن سليمان بن عيسى قال: «بلغني أنه على يدي المهدي يظهر تابوت السكينة من بحيرة الطبرية، حتى يحمل فيوضع بين يديه ببيت المقدس، فإذا نظرت إليه اليهود أسلمت إلّا قليلاً منهم، ثم يموت المهدي» (كتاب الفتن لنعيم بن حماد؛ عن موسوعة الحديث).

لَنْ يَرْضَى بِالجُورِ فِي أمْلاكِهِ وَعَلى ... فَضِيلَةِ العَدْلِ يَبْنِي صُنْعَهَا الحَسَنُ
هَلْ يَتْرُكُ العَادِلُ المَظْلُومَ مُضْطَهِداً ... وَالظَّالِمِينَ لَهُمْ مِنْ رِيقِهِ السِّمَنُ
حَاشَا وَكَلَّا ولكن قد يُؤخِّرُ ... أفْرَاداً بِحِكْمَتِهِ يَبْلُو وَيَمْتَحِنُ
أمَّا الشُّعوبُ فَبِالطُّغيَانِ يَسْلُكُهَا ... إلى الهَلاكِ وَإنْ طَالَ المَدَى قَرْنُ
مَا عُذِّبَتْ أمَّةٌ إلّا بِمَا اجْتَرَمَتْ ... كُلٌّ بِمَا كَسَبَتْ كَفَّاهُ مُرْتَهِنُ
فِي حَالِ عَادٍ وَفِيمَنْ بَعدَهُمْ عِظَةٌ ... بَغَوْا وَبَادُوا فَلا أصْلٌ وَلا فَنَنُ
وَحَالَةُ العُرْبِ فِيهَا عِبْرَةٌ فَبِهِ ... تَقَاسَمَتْ دَهْرَهَا عَدْنَانُ وَاليَمَنُ
لَكِنْ عَلَى جَهْلِهِمْ فِي جَاهِلِيَتِهِمْ ... تَشَرَّفُوا إذْ تَسَاوَى السِّرُّ وَالعَلَنُ
فَمَا لَهُمْ قَطُّ سُلْطَانٌ سِوَى ذِمَمٍ ... مَصْقُولَةٍ بَيْنَهُمْ مِنْ دُونِهَا القِنَنُ
هُمُ الشّيَاطِينُ إبَّانَ الحُرُوبِ وَهُمْ ... إذَا التَقَوا فِي السَّلامِ المَاءُ واللِّينُ
لا يَغْدُرُونَ إذَا شَدُّوا وَإنْ نَطَقُوا ... فَمَا عَلَى فِرْيَةٍ أوْ سَوْءَةٍ مَرِنُوا
وَخِزُ الكَلامِ لَدَيْهِمْ كَالسِّهَامِ وَمَا ... مِثْلُ الذِّمَامِ لِشَيءٍ عِنْدَهُم ثَمَنُ
مَاتُوا قَدِيماً فَأحْيَتْهُمْ مَكَارِمُهُمْ ... إنَّ المَكَارِمَ أعْمَارٌ لِمَنْ دُفِنُوا
واليَومَ أبْنَاؤُهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ... مِنْ سُوءِ أعْمَالِهِمْ فِي مَجْدِهِمْ طَعَنُوا
لَهُمْ بُقَاقٌ وَأَوْرَاقٌ يُنَمِّقُهَا ... تَمَلُّقٌ وَنِفَاقٌ وَالوَفَا زَمِنُ
قَالوا نُهُوضٌ وَلَكِنْ لِلْوَرَى وَلَهُمْ ... عَزْمٌ وَلَكِنَّهُمْ كَلُّوا وَمَا ظَعَنُوا
حَادُوا عَنَ الدِّينِ فَانْحَطَّتْ مَرَاتِبُهُمْ ... عَنِ الذُّرَى وَبِشُومِ الافْتِرَاقِ مُنُوا

وقد اتفق أن مؤلِّف توحيد الأديان؛ زار مفتي جُهُور العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد[1]؛ بمكة المشرفة سنة ١٣٦٨؛ فزجره ونهره. فكتب إليه يعاتبه؛

(١) ولد العلامة علوي بن طاهر الحداد ببلدة قيدون بحضرموت عام ١٣٠١هـ وتميز بحافظة قوية ورغبة شديدة في العلم؛ وأخذ العلم بقيدون عن الإمام أحمد بن حسن العطاس =

فأجابه حضرة السيد علوي بن طاهر بكتاب مُطَوَّل نلخِّص منه ما يأتي:

أما بعد فقد وصلني خطابك المؤرخ ١٤ ذي الحجة الجاري؛ وذكرت فيه شدتي عليك؛ ومفاجأتي لك بغير اللطف؛ واستعمالي معك طريق العنف. والأمر كما ذكرت؛ وإنما هي غضبة والد على ابنه الذي يشفق عليه؛ وما له عنده إلّا محض النصح. قلت لي في كتابك: إنَّ كتاب توحيد الأديان؛ أيها السيد الكبير؛ لم يؤلف إلّا للدعوة لدين كله الإسلام؛ الذي أنزله على خاتم رسله؛ إلى آخر ما ذكرت. ولكني رأيت في رسالتك؛ التي سمَّيتها توحيد الأديان؛ ما يخالف ذلك مخالفة صريحة؛ أو ظاهرة؛ أو مكسوة بستار من الدعاية؛ يكفي في الدلالة على ذلك قولك في صفحة ٩: وأصرِّح أنني لست أقصد الدعوة إلى دين معيَّن؛ وإنَّ غرضي من التوحيد؛ هو الرجوع إلى أصول الأديان جميعاً؛ كما سترى؛ هكذا قلت، وأصول الأديان اليوم؛ مناقضة لأصول دين الإسلام؛ في الإيمان بالله ورسله؛ وقد نهى الله ذلك على اليهود في سورة البقرة؛ فذكر تحكمهم في الأديان؛ وكفرهم بما يجب به الإيمان؛ وبطلان إيمانهم باليوم الآخر؛ وعدم إيمانهم بما أنزل الله من الحق. ومن الخطأ جعل المعنى واحداً؛ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[2] من ربهم؛ فجعل عملهم كفراً؛ وذكره في

= وغيره من العلماء؛ وحفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك في ثلاثة أشهر؛ وتصدر للتدريس وعمره سبعة عشر؛ وبرع في علوم الفقه والحديث والتفسير والتصوف والأدب والتاريخ وعلم الفلك كما تميزت كتاباته بالبلاغة قوة الحجة وجمال الأسلوب وقوة العبارة ودقة الملاحظة. وقد ارتحل في شبابه إلى أثيوبيا والسواحل الإفريقية لطلب الرزق كما هي عادة أهل دوعن وقيدون في زمنه ثم سافر إلى أندونيسيا ثم استقر به المقام في ماليزيا وتولى منصب الإفتاء بولاية جوهور واستمر عليها خمساً وعشرين سنة حتى وفاته بها سنة ١٣٨٢هـ. له مؤلفات كثيرة منها: المدخل إلى تاريخ الإسلام بالشرق الأقصى وكتاب الشامل في تاريخ حضرموت ومجموعة فتاوى وكتب أخرى متنوعة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩١.

عدة آيات كريمة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(١)]؛ وهو هذا الإسلام الذي أنزل على محمد؛ وليس المراد بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا...﴾[(٢)]؛ أنَّ الأديان المخالفة لدين الإسلام؛ هو مما شرعه الله لنا؛ ولا أنَّ دين اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين؛ كما تقول؛ هو الدين الذي شرعه الله، ومن لم يؤمن برسول الله ﷺ؛ وبما جاء به جميعاً؛ فليس بمؤمن ولا مسلم.

وسائره، قد رأينا مثله فيما يكتبه رجال جمعية التبشير بتوحيد الأديان؛ وهي جمعية معروفة؛ فيها نصارى ويهود وأقباط؛ وهي سياسية كالماسونية؛ وذلك أصل من أصول الديانة البوذية.

وأنت اغتررت بما عرفه الناس قبلك؛ وعرفوا ما يراد به؛ وليست أول سارٍ غرَّه القمر. وفي رسالتك مثل الذي أشرت إليه؛ وأكثر.

ثم ساق جملة من الآيِّ المذكورة في السيف الحاد؛ وقال بعدها: وإذْ قد ثبت أن القرآن سجَّل على اليهود والنصارى؛ كفرهم بالله واليوم الآخر؛ فما معنى توحيد أديان؛ كلها كفر وضلال واختلاف؛ بدين كُلّه إيمان وإسلام وحق وهدى. ثم ساق آيات مذكورة في السيف؛ آخرها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾[(٣)]. فهذه الآيات صريحة في النصِّ على أن الذي تزعمه لن يكون أبداً.

ولا يمكن؛ يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً؛ أن يكون مسلماً؛ مع بقائه على يهوديته أو نصرانيته أو مجوسيته. وإذا أسلم أحدهم؛ فقد انخلع عن اليهودية أو النصرانية أو المجوسية التي كان عليها؛ وصار مسلماً.

ثم إنَّ السند إلى الأنبياء السابقين مفقود؛ وما جاؤوا به غير محفوظ؛ ولو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

وصل إلينا كما هو؛ فالفرض علينا اتباع رسول الله ﷺ وآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ . . .﴾[1]؛ نَصٌّ في ذلك.

وجمعية توحيد الأديان؛ لا شأن لها في الإيمان بالرسل؛ ولا نصوص لما جاؤوا به؛ إلّا بقدر ما يستعينون به على تزيين دعوتهم؛ ولما وجدوا جُلَّ الأديان تدعو إلى عبادة الله؛ والعمل الصالح؛ وتُخْبِرْ بالجزاء؛ أرادوا بعقولهم وضع دين جديد؛ مشتمل على هذه الأصول؛ ليجمعوا الناس عليه. فإذا دَعَوا مجوسياً ذكروا جُمَلاً مما في كتب المَجُوس. وإذا دعوا اليهود ذكروا شيئاً مما في التوراة. وكذلك يفعلون في دعوتهم للنصارى؛ يذكرون شيئاً مما في الأناجيل.

وإذا دعوا المسلمين فعلوا كما فعلت؛ من تقطيع آيات القرآن؛ وحملها على ما وضعوه؛ ولا يغتَرّ بأعمالهم مسلم يفهم معنى الإسلام. وفي رسالتك؛ مثل الذي أشرت إليه وأكثر؛ ولو جِئتَ؛ لبيَّنتُهُ لك؛ وقد قال الله تعالى في أهل الكتاب جميعاً: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾[2] [3]؛ وقال فيهم: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ فسجَّلَ عليهم بطلان الدين؛ والكفر بالله واليوم الآخر. وزعمت أنت أنها من أصول أديانهم؛ فإن أردت أنها كانت كذلك؛ ثم نُسِيَتْ أو حُرِّفَتْ فذاك؛ ولكن مجموع ما قلته في رسالتك؛ يدُلُّ على غير ذلك. هذا وعسى الله أن يتوب علينا جميعاً؛ ويردُّنا إليه مرداً جميلاً والسلام.

كاتبه علوي بن طاهر الحداد

شعبان ١٣٦٩ الموافق يونيه ١٩٥٠

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٣) ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

من خطب الإمام
عبد الرحمن بن عبيد الله
ابن محسن السقاف

مقدمة

بعد أن استمتعنا واستفدنا من كتب الإمام السابقة أحببت أن أطلع السادة القراء على خاصية أخرى من خصائص هذا الإمام العظيم وهي في كونه من الخطباء المفوهين؛ وكان يرتجل الكلمات البليغة؛ بلا تحضير مسبق؛ فيأتي فيها بالعجب العجاب. وبذلك نكون قد عرفنا الإمام ابن عبيد الله في كتابه العظيم صوب الركام كإمام من أئمة الفقه؛ يعرف دقائقه؛ ويفهم حقائقه؛ ويلم بطرائقه؛ ثم رأيناه في كتابه الشهير العود الهندي أديباً مبدعاً؛ وكاتباً مدهشاً؛ شهد له بذلك كل من قرأه من العلماء والأدباء والشعراء. ثم رأينا الإمام في كتاب النجم المضيء إماماً في النقد الأدبي؛ والتذوق الشعري؛ مع حافظة قوية سردت لنا ما لا يُحصى من أبيات الشعر قديمه وحديثه مع العديد من القصص والنوادر. كما يعتبر ديوان شعرالإمام ابن عبيد الله؛ الذي نحن بصدد إعادة طبعه؛ ديوان علم وأدب؛ ودين وأخلاق؛ وتاريخ وسِيَرْ. كما قيَّمه بذلك الشيخ حسنين مخلوف؛ الذي أشرف على إخراجه وطبعه. ولا نحتاج هنا للتعليق على كتابي بلابل التغريد؛ والسيف الحاد؛ لأنهما الآن بين يديك أيها القارئ الكريم؛ تتصفحهما وتستمتع بقراءتهما؛ وقد قلنا عنهما في المقدمة ما تيسر من الكلام.

كما أن للإمام ابن عبيد الله مجموعة من الخطب البليغة؛ قالها في العديد من المناسبات ومن حسن الحظ أن بعضها قد سجله بعض طلبته وجمعها؛ ولكنها لا زالت إلى الآن مخطوطة؛ لكنني أحببت أن لا ينتهي القارئ من قراءة بلابل التغريد والسيف الحاد؛ إلّا وقد تعرف على أسلوب الإمام في خطبه وكلماته؛ حتى نوفِّي هذا الإمام العظيم؛ والذي لم يسمع به الكثيرون خصوصاً خارج حضرموت؛ حتّى نوفِّيه حقَّه من التعريف والتنويه. وقد دفعني لتقديم خطبة من

خطبه في هذا المقام كونه قد يمضي وقت طويل على مخطوطة خطب الإمام قبل أن تسلك الطريق إلى التحقيق والطبع؛ فيحرم القراء من التعرف على خطبه؛ كما قد يكون ذلك دافعاً للإسراع بطبع مخطوطة هذه الخطب والكلمات.

أما زعامة الإمام ابن عبيد الله السياسية؛ وتحركاته الدبلوماسية؛ فلن نعرفها إلّا بعد أن نتمكن من تحقيق وطبع كتابه العظيم؛ بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت؛ وهي في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير؛ ولن تكون بعد طبعها في أقل من عشرة مجلدات أو أكثر من عشرة من المجلدات العادية؛ ونسأل الله تعالى أن يتيسر لنا ذلك في المستقبل القريب؛ لأنَّ فيها من الفوائد العلمية؛ والمعلومات التاريخية؛ والمعاهدات السياسية؛ والنكت الفقهية؛ الشيء الكثير جداً؛ وسيكون كتاب بضائع التابوت؛ إن شاء الله؛ بعد تحقيقه وطبعه؛ مرجعاً أساسياً مهماً؛ لكل من يريد أن يكتب عن حضرموت وعن اليمن وعن جزيرة العرب على وجه العموم. والآن إلى خطبة من خطب الإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ألقاها في ليلة الواحد والعشرين من رمضان من سنة ١٣٣٨هـ بمسجد طه؛ أشهر مسجد بمدينة سيئون ببلد حضرموت.

خطبة وعظ وتذكير

للإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ألقاها في ليلة الواحد والعشرين من رمضان سنة ١٣٣٨هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العظيمة منَّتُه، السابغة نعمته، البالغة حجته، السابقة رحمته، القاهر سلطانه، العميم إحسانه، الواضح برهانه، البعيدة صفاته، التامة كلماته، الباهرة آياته، المتقدِّسُ بعزته، المنفردُ بوحدته، المتجبِّرُ بعلوِّه، المتكبِّر بسموه، لا تدركه الأبصار، ولا تتصوره الأفكار، وسع كل مسرف حلمه، وأحاط بكل شيء علمه، يعلم مقرَّ الأمشاج من الأرحام، ومواقع القطر في حناديس الظلام، ودبيب النمل على ذرَّات الرمال، وأوكار الطيور في صياخيد الجبال، فسبحانه من ملك حليم، رؤوف رحيم، علم فستر، وعُصِيَ فغفر، وملك فقهر، أحمده حمد أوَّاهٍ منيب، مطيعٍ مستجيب، تائبٍ عما اقترفه، نادمٍ على ما أسلفه، وأشهد أن لا إله سواه، جلَّ عن الشريك والنضير، والمعين والمشير، والحاجب والوزير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأشهد أن أبا القاسم رسوله وحبيبه وخليله، بعثه وشهب الشرِّ منقضَّة، والأفئدة عن التوحيد منفضَّة، فعارضهم بآياته، وكافحهم براياته، وأظهر حصرهم بالقرآن، وأبلى جيوشهم بالغرارة والسنان، ومحَّص الشرك وأباده، وأظهر الدين وأشاده، أرسله بالهدى، وزعزع به الردى، وجعله رحمة لعبيده، ومنذراً بوعيده، ختم به نبوَّته، وأسعد به أمته، وأقام به حجَّته، وأوضح به محجَّته، فضاعف اللهم له الصلاة والسلام، واعبق اللهم ضريحه الأزهر بالتحية والإكرام، ما هدر

الحمام بروضته، وتنفس الريحان من حضرته، وتهجَّد الخاشعون بمسجده، وشابوا لجين دموعهم بعسجده، واشتاق المحبُّون لعقيقه ومحجره، واعتكف المعتكفون ما بين قبره ومنبره.

أما بعد عباد الله؛ فأوصيكم بتقواه، فإنها أوضح منهاج، وأنور سراج، لا يَضِلُّ صاحبها المسلك،ولا يضام من تمسَّك بحبلها ولا يهلك، فتراكضوا جياد أعماركم في مضمار العمل، قبل أن تبلغوا غايته وهو حلول الأجل، فإن الظعن واقع، والطريق شاسع، فلا بدّ له من حسن الارتياد، وتهيئة قدر البلاغ من الزاد، وقد أرشدنا الله إلى زاده، وحثَّنا على استعداده، واعلموا أن شهركم هذا شهر كريم، فيه أُنْزِلَ القرآن العظيم، جعله الله للعالم مصباحاً، ولليلِ السيئات صباحاً، يبذل فيه رحمته، ويغلُّ فيه جنته، ويزيد فيه تنمية صدقته، وتضعيف حسناته، وهو موسم الخيرات وعكاظها، وفيه زيادة الأرباح ونضاضها، تغلق فيه أبواب النيران، وتفتح أبواب الجنان، وتُزَيَّنُ الحور، وتزخرف القصور، وهو شهر المواصلة والمواساة، والتلاوة والمناجاة، فقوموا بما فيه من الحقوق، وإيَّاكم والرفث والفسوق، واجتنبوا الخمس الموبقات، فإنهنَّ للصائم مفطرات، وألجموا لقالقكم؛ فإنَّ حصائدها تكِبُّ في النار، وأرسلوا أعنَّتها في الدعاء والاستغفار، وعليكم بقراءة القرآن، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والترياق النافع، والكلام الجامع، لا تُخْلِقُهُ كثرة الترداد، ولا يُفْنِي عجائبه مرُّ الآباد، وقد خُصَّت هذه الأمة، بواسطة نبي الرحمة، بليلة خير من ألف شهر، ألا وهي ليلة القدر، لا دعاء فيها إلّا يسمع، ولا عمل إلّا يرفع، لا يُرَدُّ فيها سائل، ولا يُخَيَّبُ فيها آمل، ألا وإن شهركم قد قوَّض خيامه، وأزمع انصرامه، وآذن شمله بالانصداع، ووقف على ثنية الوداع، فاعتنقوه بعمل البر، وودعوه بصدقة السرّ، والتزموه معولين؛ وشيعوه محزونين، السلام عليك يا شهر رمضان، السلام عليك يا شهر الإحسان، السلام عليك يا شهر التراويح، السلام عليك يا شهر المصابيح، فيا ليت شعري مَنْ العائِدُ منا إلى قابل، ومن تفترسه مخالب الحِمَام، وتندبه الثواكل، ومن المقبول ومن المطرود، فتداركوا بقيَّته، والتمسوا فيها ليلته، فإنها

تنتقل في ليالي الشهر، واعتمد الجمهور أنها في هذه العشر، وأرجى ما تكون عند المحققين، ليلتكم هذه؛ ليلة إحدى وعشرين، وهذا القول نصَّ ابن إدريس[١] على ترجيحه، وأيَّد ما أخرجه أبو عبد الله[٢] في صحيحه، وقد كان نبينا لدخول العشر يَشُدُّ مئزر جدِّه، ويُفْرِغُ في اقتناص الخير غاية جهده، ويحيي ليله، ويوقظ أهله، ولا يغفل عن المراقبة؛ قدر سِنَةْ، وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فرحم الله امرأً أبرز همَّته، وصمَّمَ عزمته، وأنضى في العبادة قعدته، وكسر شهوته، وانتهز فرصته، والويل لمن أنفق عمره في الباطل، ولم يعثر منه بطائل، وضيَّع في اللهو أوقاته، وسَوَّفَ بالمتاب حتى فاته، فتطهروا من الأدناس، وتخلصوا من الأرجاس، بماء التوبة والنزوع، والندم والرجوع، فإنها أول باب يُقْرَعْ، والعمل من دونها لا ينفع، وقوموا بوظائف العبادة، لتفوزوا بالحسنى وزيادة.

فالصلاة قاعدة الدين وأساسه، وعموده ورأسه، من تعمَّد تركها؛ أو أخرج فرضاً عن وقته، باء من الله بسخطه ومقته. والزكاة حق محتوم، وفرض من الدين بالضرورة معلوم، وكم جاء في تركها من الوعيد، والإنذار الشديد، صرح به القرآن وشفى، ولو لم يكن إلّا قوله: إن الذين يكنزون لكفى، وقد حان وجوب زكاة البدن، على من فَضَلَ معه عن حاجة يوم العيد وليلتها من المؤن، وهي على المسلم، وعن كُلٍّ مِمَّنْ في نفقته من خادم وولد، صاع سليم من العيب من غالب قوت البلد، ووقت وجوبها أول جزء من شوال، حين تقسم على الصوام الجوائز، وتعجيلها من المالك إلى الولي من أول رمضان جائز، وبَقِيَّةُ أحكامها محقَّقَةٌ في كتب العلماء، وقد جاء أن الصوم قبل إخراجها مُعَلَّقٌ بين الأرض والسماء، فدونكم إخراجها من أعزِّ ما تُحِبُّون، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون.

وأما الصوم فقد اصطفاه الله له، ووعد صاحبه أوفر جزاء وأجزله، وأما

---

(١) أي الإمام الشافعي.
(٢) أي الإمام البخاري.

الحج فواسطة عقد النظام، وجديرٌ بمن تركه مستطيعاً سوءُ الخِتَامْ، ودونكم الصدقة فإنها تُطفئ غضب الجبَّار، وتمَحِّص الذنوب والأوزار، فإنَّ لصبر الفقراء دوله، وزهواً يوم القيامة وصوله، فاتخذوهم للحسنات أجمالاً، واجعلوهم لزاد سفركم حُمَّالاً، وإياكم والمعاصي، ومخالفة مالك النواصي، واحذروا الشهوات؛ فالشفاء في ضمنها مدمج، واقتحموا المكاره فإن الفوز في طيها مدلج.

واعلموا أن الله جلَّ سلطانه، وعلا شأنه، ليس بينه وبين خلقه سبب، ولا صهر ولا نسب، ما هو إلّا امتثال أمره، والقيام بشكره، فاكدحوا أعانكم الله للميعاد، وازرعوا في أيام مهملتكم للحصاد، وليغنم كل منكم صحته قبل سقمه، وشبابه قبل هرمه، وغناه قبل قِلِّه، وفراغه قبل شغله، فبينما الإنسان جانحٌ إلى غَيِّه، جامحٌ في بغيه، إذ وعكته الآلام، وشقته الأسقام، ونهكه المرض، وتجرَّع المَضَضْ، وكثر عُوَّادُه، وحزن أولاده، واستعان كلّ ذي وِدٍّ وقريب، بكل حكيم وطبيب، واستمر على ذلك زماناً، لا يزداد إلّا وهناً وزِمَاناً، فملَّه طبيبه، ويئس منه حبيبه، ونكره أصحابه، وأتاح له الحمام كأسه، وصعدت بالزفرات أنفاسه، أحضره أهله ضارعين لما نزل به، مشفقين عليه من الموت وكربه، لا يغنون عنه دفعاً، ولا يملكون له نفعاً، فبينا هو يراجعهم الكلام، ويصف لهم الآلام، إذ خُتِمَ على لسانه؛ فشخص ببصره، وطمح بنظره، يسمع خطابهم، ولا يَرُدُّ جوابهم، ثم اسْتُلَّت روحه، وسكنت ريحه، ورشح جبينه، ولان عرينه، وانقطع أنينه، وفغر فاه، وأُلْقِيَ على قفاه، ونعاه أبواه، وقامت نوادبه، وصاحت أقاربه، وتأيّمت زوجته، ويُتِّمَتْ صبيَّتُه، ونُشِرَ كفنه، وشُدَّ ذقنه، وأُرْكِبَ على العود، وأُخْرِجَ إلى اللحود، ووضع في رمسه، وأفضى إلى ما قدم في أمسه، وأهيل عليه التراب، وتبدل به الأحباب، وَانْتُهِبَ ماله، ولزمته أعماله، وَوَدَّ أن يعود فيتدارك ما فات، ويستعدَّ بصالح العمل وهيهات، فاذكروا أيها الغافلون، وشمِّروا أيها المقصرون، واطلبوا الخير جهدكم، واهربوا من النار دهركم، فإن الجنَّة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وقد أبلغ الله في معذرته، وبالغ في عظته،

فالحق أبلج، والباطل لجلج، ما لي أراكم عن المواعظ ناعسين، وعن الرتب العَلَيَّةِ متقاعسين، كأنَّ الموت على غيرنا كُتِبْ، وكأنَّ الحقَّ على غيرنا وجب، وكأنا قد سالمنا الحِمَامْ، وعلقنا من الزمان بذمام، كلا والله؛ إنَّه كأسٌ لا بدّ من تجرُّعِه، ووطيسٌ لا بدَّ من مصرعه، ألا وإنه أسرع من البريد، وطالب الأبق الشديد، فكم جَمْعٍ فَرَّقَهْ، وشبابٍ مزَّقَهْ، وعالٍ وضعه، ووضيعٍ رفعه، وجبَّارٍ قمعه، وشامخٍ أرغم أنفه، وآمِنٍ أراه حتفه، لا يُدْهَنْ ولا يُرْشَى، ولا يهاب أحداً ولا يخشى، فصوِّرُوا نزوله، واستشعروا حلوله، فإنه مُعَمَّى، وكُلٌّ يجري لأجلٍ مسمى. الجد الجد للنُّقْلَهْ، والاستعداد الاستعداد قبل الرحلة، واعزبوا عن الدنيا فإنها ليست لكم بدار، ولا لأحدٍ فيها قرار، دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، كثيرٌ عناؤها، سريعٌ فناؤها، بينما أهلها في سرور وحبور، إذ قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها وقلبت مجَنَّها، وأظهرت حزنها، وما هي وسرعة زيالها، وانمحاق خيالها، إلّا كالفيء الذاهب، والخيال الكاذب، ألا تعتبرون بنعيٍ سمعتموه، وميِّتٍ شيَّعتموه، ألا تتعظون بمن قضى في سالف الأحقاب. إنَّ في قصصهم لعبرةً لأولي الألباب، كانوا أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، قد أصبحت أصواتهم هامدة، وآثارهم خامدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وعُوِّضوا عن القصور المشيدة، بالأحجار المسندة، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتزاورون كالجيران، وأنَّى وقد طحنهم البلاء بكلكله، وأكلهم الثرى بجندله، فأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غضارة العيش رفاتاً، وشحبت أجسامهم بعد بِضَّتِهَا، وانمحقت وجوههم بعد نُضْرَتِهَا، فُجِعَ بهم الأحباب، وظعنوا فليس لهم إيَاب، أين من بنى وشاد؛ وطغى في البلاد، أين من دوَّن الدواوين، ورفع الأواوين؟، أين من فرض الأُعْطِيَة، وعقد الألوية؟، بل أين الآباء والأمهات، أين الإخوان والأخوات؟، ألبسهم المحاق قميصه، وشرح بهم البلاء عويصه، واهتصرتهم يد المنيَّة، وحالت بينهم وبين الأمنية، ووردوا على ما أسلفوا، وندموا على ما خلَّفوا، وخَلوا في أجداثهم الضيِّقة بالسعادة أو الشقاء، وتمنوا أن لو استظهروا لذلك اللقاء، قد تبدلت صورهم، وانقطع خبرهم. أرأيتم

لو كُشِفَ لكم عن إخوانكم وآبائكم وخِلَّانكم، فَحُشِروا من قبورهم، يسيل صديدهم على نحورهم، بوجوهٍ باسرة، وعظام ناخرة، فماذا يكون إشفاقكم، ووجلكم، واحتراقكم، فتَخيَّلوا حالهم، وتذَّكروا مآلهم، فكأنَّكم قد صرتم إلى ما صاروا إليه من الوحدة، وعاينتم ما حل بهم من الشدَّة، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضَمَّكم ذلك المستودع، حتى ينفخ في الصور، وتُدْعَوْنَ إلى النشور، وبعثرت القبور، ويحصَّل ما في الصدور، في موقف مُهِيلْ، ومشهدٍ جليل، يأخذ للمظلوم من الظالم، قد علم كلَّ قضيةٍ قضاها، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾، وكيف بكم إذا أوقفتم للحساب، بين يدي شديد العقاب، وقد ماج عرشه، واشتدَّ بطشه، فطارت القلوب إشفاقاً من سالف الذنوب، وكَثُرَ الصياح، وظهر النواح، وهُتِكَتْ الأستار؛ وظهرت الأسرار، وأُعْلِنَتْ القبائح، وشهدت الجوارح، وغلق الرهن، وصارت الجبال كالعهن، هنالك ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾، و﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فأما العاصي فإلى النار لا يهدأُ زفيرها، ولا يُفَكُّ أسيرها، وأما من زحزح عن العذاب، وسبقت له السعادة في أمِّ الكتاب، فإلى ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾. ماؤها سلسبيل، ممزوج بزنجبيل، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، وآثَرَ مرضاته وقربه. اللهم اجعلنا من أهلها، واسقنا من نهلها، وكُنْ لنا يوم التناد، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد، اللهم أنت العليم بما أخفينا، والمحيط بما آتينا، فلا تؤاخذنا بما جنينا، وامطر سحائب رحمتك علينا، ولا تقطع عادتك من الإحسان إلينا، اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس كتاب السيف الحاد لقطع الإلحاد

